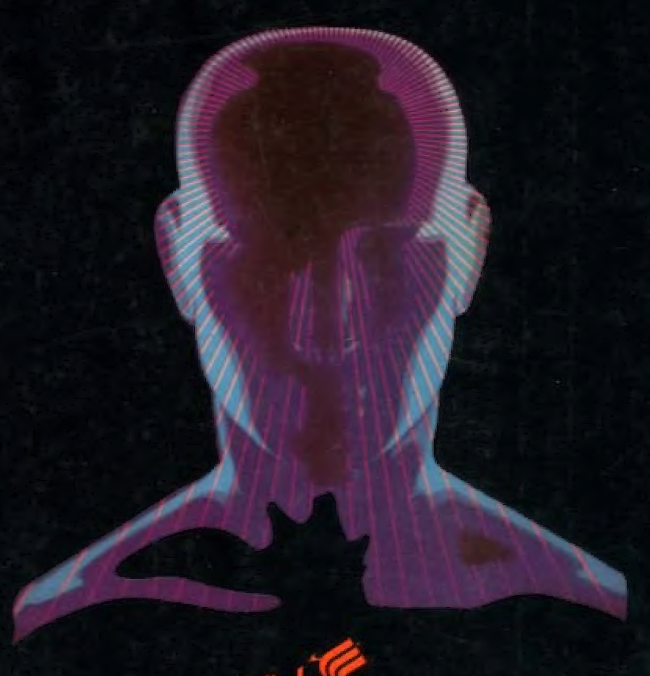
د. علي الوردي

في الطبيعة البشريّة

محاولة في فهم ما جرى

تقديم:

سعد البزاز





د. علي الوردي

في

الطبيعة البشرية

د. علي الوردي

في الطبيعة البشريّة

محاولة في فهم ما جرى

تقديم:

سعد البزّاز

١٩٩٦



الكتاب : في الطبيعة البشرية
تأليف : د. علي الـوردي
تقديم : ســعد البـزاز

الغلاف : زهير أبو شايب
التنضيد : ندى القدومي
حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م
رقم الإيداع في المكتبة الوطنية الأردنية : ٦٣٥ / ٥ / ١٩٩٦

منشورات الأهلية للنشر والتوزيع - الأردن - عمان - وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص. ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨ فاكس ٦٥٧٤٤٥

تم النشر بإذن من المؤلف وبالإتفاق مع دار كوفان - لندن.

المقدمة

مــــا الذي حــلّ ببغـــداد؟

مـحاولة في فهم مـــــا جرى

بقلم : ســـعد البــــزاز



كان حرياً أن يسير خلف جنازة الدكتور علي الوردي الذي قضى في صيف ١٩٩٥ عن اثنين وثمانين عاماً الألاف من محبيه وخصومه ليودعوا أكبر عالم إجتماع في العراق بعد ان إستودعهم على تراث ضخم كان مثيراً للجدل خلال نصف قرن من الزمان هو الأخطر في تكوّن المجتمع العراقي منذ نشوء الدولة الحديثة في هذه البلاد ، غير أنّ لكل من الخصوم والمحبين أسباباً منعتهم من السير في جنازته بالألاف ، فلم يكن للخصوم أن ينحنوا تحية واحتراماً لمفكر كبير في بلاد غابت عنها تقاليد الحوار وبات من النادر إحترام الرأي الأخــر وتحولت فيها الخلافات الفكرية الى حافات سكاكين تقسّم الناس ، حتى النخبة منهم ، فلم يعودوا قادرين على الإفصاح عن إحترامهم لمفكرين لم يتفقوا مع أفكارهم ودعواتهم .. فحيثما لا يكون هناك إحترام للرأي الأخر يصبح التشبث بالخصام والنزوع الى الإيذاء بعضاً من مظاهر الإنفصام العام في شخصية المجتمع .. أما محبو الوردي وتلامذته ، فعدا القلة ممن شارك في وداعه ، فلا شك أن الخوف من الإفصاح عن تابعيتهم الفكرية والعاطفية له قد شل أقدامهم عن الخروج الى الشارع في تظاهرة الوداع التي لن تعيد نفسها مرة اخرى ، فحيث يوجد رعب جماعي تزداد الهواجس ولا يعود بإمكان الناس الإفصاح عن هوياتهم الفكرية خشية تحملهم للأذى عن معتقداتهم وآرائهم .. بل وأهواء نفوسهم ..

في هذه اللحظة المشوّهة من التشظي في تركيبة العراق .. ودع الدكتور الوردي مجتمعاً شغلته تناقضاته وعيوبه ، فتصدى له بالبحث وخلّف وراءه ثلاثين مؤلفاً منشوراً وعدداً غير منظور من التلامذة والمحبين المأخوذين بدعواته للإصلاح

الإجتماعي .. كما خلف إرثاً من الخصومة المزمنة مع الحكومات التي تعاقبت على البلاد في أكثر من نصف قرن .. فهل كان من العسير أن يحيا مفكر بشجاعته في بلاد الخوف حيث إعتاد الناس إظهار خلاف ما يعتقدون فاستقووا بالباطنية لإخفاء أرائهم ومعتقداتهم ، بعد أن صار رأس المفكر مطلوباً للمقصلة .. كما هو رأس الجنرال الذي يحيك المؤامرات لقلب أنظمة الحكم ...؟

إنها لظاهرة نادرة ان يكون مطلوباً وجود مفكرين وكتّابٍ وشعراء على مقاسات واحدة وتحت خطوط حمر لا يحق لهم رفع رؤوسهم بعدها .. حتى لا يخرج منهم المميزون والشجعان غير المألوفين .. وقد أدرك الوردي ميزة ذاته كرجل فوق الميول في مجتمع مأسور للتمحور الطائفي والحزبي والمناطقي .. واستشعر الأخطار المحدقة به من كل صوب ، فداری بالحيلة والصمت ساعات الخطر ، حتى غدت هذه الحيلة وغدا ذلك الصمت فناً لم يحترفه الوردي وحده .. بل إحترفه شعب كامل أسره الخوف والحذر .

* * *

تنبع أهمية الوردي من إختياره التعامل مع أكثر عناصر التكوين الإجتماعي حساسيةً .. ألا وهي جذور الدافع الذي يتحكم بسلوك الفرد، من حيث بيئته الجغرافية والأخلاقية ، وهي مسألة كان من الطبيعي أن يثير الإقتراب منها ردود أفعال حادة ، لأن كثيراً من قرائه كانوا هم أنفسهم نماذج في المختبر الإجتماعي الذي أسسه بعد أن رفض الإستسلام لجمود فكري سائد .. وعلى هذا الأساس فإنه يتكرس كنموذج متحرر من حالة الثبات والنمطية الناشئة عن قمع سلطوي من جهة وعن قهر إجتماعي صادر عن أفراد عاديين من جهة أخرى ..

إنّ من حق أي محلل إجتماعي أن يتعامل بحرية وطلاقة مع نماذجه التي يدخلها الى مختبره ، وقد تخرج هذه النماذج من حالات إجتماعية سائدة وصاحبة نفوذ ، غير أنّ هذا العمل سيثير حساسيتها ، حتى ليبدو أن بعض الأفراد يقاومون وضع أنفسهم تحت إضاءات التفسير والتحليل .. ولذلك يرفضون تلقائياً أن يكونوا نماذج للإختبار والمعاينة .. فمن أين كان الوردي سيجيء بنماذجه لو لم يأتِ بها من المجتمع العراقي .. من بغداد والنجف والكاظمية وسامراء .. ؟ .. لقد

تحاشى التنظير في المجهول .. وغير المعرّفة أسماؤهم وأنسابهم .. بل ذهب ليقول إنّ الآتي من (المحلة) في بغداد أو من (القرية) في الجنوب أو من (البادية) في الغرب .. يتصرف على هذا النحو .. ودلالة ذلك .. هي الآتي ..

هنا ، لم يكن له أن يخشى من محاكم تفتيش في بلاد يوصف فيها الكاتب والمفكر الخارج عن الطوع بالجاسوسية وخيانة الأوطان والتناطح مع القيم .. ولم يسلم الوردي من النقد حتى عندما تهرّب من الحاضر وذهب لإلتقاط حالاته من زمن غابر ..

لقد كتب منتصف الثمانينات عن أبيه الذي رفض الإنخراط في الخدمة العسكرية ، فهاج وزير الإعلام يومئذٍ وإستدعى رئيس تحرير جريدة (العراق) التي نشرت مقالة الوردي ، ليتهمه بترويج ما يثبط من عزائم الجند ويهين العسكرية .. ولما سمع الوردي بما حصل .. رد ساخراً .. ومازحاً بأن الوزير قد لا يكون أدرك غايته .. فهو بإيراده ما حدث لوالده .. كان يعني ان أباه رفض الإنخراط في خدمة العلم قبل إستقلال البلاد ونشوء الدولة .. وان الأمر يختلف عن حالة الأمة وهي تخوض حرباً مع دولة أخرى .. ومعنى ذلك انه لم يخلص من اللوم حتى في إستشهاده بواقعة كانت تعود الى قرن مضى من الزمان .

ويومها سألتُ الوردي : ماذا ستفعل الحكومة بابن خلدون لو كان مواطناً عراقياً .. ؟ .. فضحك ونصحني بعدم لفت الإنتباه اليه ، لانه هو الذي حذر من قدوم العوام من ريف متخلف الى المدن ، ولأنه هو الذي تحدث عن أولئك الذين يجدعون أنوف أبناء عمومتهم ويبطشون بالقريب والبعيد ويتسلون بإيذاء الخَلق ونشر الرعب .. وخاف الوردي .. وخفتُ على ابن خلدون فلم نعد نذكر اسمه علانية .. لأنه كان مرشحاً للإتهام بالإنخراط في مؤامرة لقلب نظام الحكم وقيادة تنظيم .. هدّام .

* * *

لقد وجدتُ أمامي ، بعد الهزيمة في الحرب ، أن ثمة حاجة مضافة ومتجددة للعودة الى الوردي ، لأن الهزيمة لم تكن نتاجاً لقوانين الصراع الدولي والإقليمي ، مما هو معروف ومتداول ، بل كانت نتيجة لأداء سياسي أفرزته قيم إجتماعية وأخلاقية تحتاج الى المعاينة والتمحيص ، فالذي ذهب بالعراق الى الكارثة هم أشخاص جاءوا من بيئة إجتماعية محددة ، ولم يكن العراق كله من ذهب بنفسه الى الكارثة مختاراً برغبة الغالبية فيه ، أو بقـــرار نخبته من مفكرين ومصلحين ودعاة تنوير وتحديث .. فقد كانت البلاد كلها ضحية أداء سياسي هشّ هو إنعكاس لقيم إجتماعية مهتزة .. ومن الصواب البحث في الخلل الأخلاقي والإجتماعي قبل البحث في قوانين الصراع على العراق والمنطقة التي التقـــت مع ناتج الخلل الصادر من الشريحة الإجتماعية المتسييدة على البلاد ..

ولم تعد المعضلة في نوع الخيار الأيديولوجي ، كأنْ تكون قومياً ام إسلامياً ، ماركسياً أم برجوازياً ، علمانياً أم سلفياً ، تقدمياً أم رجعياً ، ثوريوياً أم محافظاً .. إنها في ما هو أعمق من ذلك .. ألا وهو الى أيٍ من العصبيات الضارة تنتمي .. وفي أي منها تتخندق .. القبيلة أم العائلة أم فخذ من عائلة .. أم الحزب .. أم المنطقة .. أم الطائفة .. ؟ .. ولماذا ضاقت الخيارات على هذا النحو في بلاد رحبة كانت قادرة من قبل على إستيعاب كل العصبيات .. ؟..

لقـــد جاء العرب كلهم من أرحام القبائل ، وليس في ذلك عيب أو حرج ، لكن هذا الإنتساب لا يمنع من دراسة جذور الدافع العشيري وتحسس درجة التعصب له وتأثير ذلك على سلوك الفرد عند إنخراطه في الحياة العامة وممارسة السياسة .. بل والإستحواذ على السلطة ..

ولا أظن ان أحداً سيذهب الى الإعتقاد بأنني أتخذ من (المدينة) العراقية

نمـوذجاً يقبل التعميم عن قضية التصادم بين الحواضر والأرياف في دول عربية أخرى ، فقد يكون هناك تشابه ، ينقص أو يزيد ، إلا ان إفتراض وجود تطابق وإستنساخ هو أمر مستبعد ، ولعل أكثر أمثلة التباعد وضوحاً هو لبنان الذي كانت القرية فيه مركزاً علمياً وثقافيا أيام تدهورت أدوار المدن والحواضر الكبرى ، وكانت القرية اللبنانية أبعد ما تكون عن حال القرى المرتحلة في سوريا التي تعد أقرب البلدان اليها وأكثرها إلتصاقاً بها ، كما لا يتطابق الأمر مع مصر أيضاً ، حيث قاومت المدن نزوح المتريفين وعزلتهم بعيداً عن مراكزها لتبقيهم على أطرافها أحزمة فقر وحرمان ، كما كان الأمر بالنسبة لطهران التي سيجتها أحزمة القفراء وغير المتعلمين الذين وجدوا في الثورة سنة ١٩٧٩ فرصتهم لغزو جزء من حاضرة العاصمة الإيرانية .

أما في العراق فقد كانت الحاضرة المدينية رمزاً للإستقرار والتنظيم والتنوير والإنتعاش الثقافي ، على العكس من الأرياف المتباعدة التي احتفظت بالآصرة المعنوية للعشيرة أو الطائفة وأُستُلبت لصالح الإقطاع في جنوب البلاد والرأس العشيري في شماله في حين افتقدت أنماط التنظيم المديني مع ما يوفره من فرص للإنتعاش الثقافي والتحديث والتنوير .

وعندما يخص هذا الأمر العراق تحديداً ، فإنّ العمق الزمني لتاريخ الحواضر فيه يكشف عن طاقة متاحة لإحتواء العصبيات وإذابتها في بوتقة مدن عريقة وكبيرة إستطاعت على الدوام إنتاج قيمها الوسط التي تنأى عن التعصب والتحزب والتـطرف والغلو والمغالاة لتتيح في المجال لعلاقات جديدة مبنية على الأداء والكفاءة .. ولتخرج من الولاء العشيري الى الولاء الوطني فيتغلب السِلم على العنف في العلاقات داخل الأسرة والحي والمجتمع .. فالسكان المتجاورون مع بعضهم الآخر في منازل مستقرة مبنية جوار بعضها البعض سيستنبطون مصالحهم المشتركة ، بغض النظر عن البيئات الحضرية أم البدوية أم الريفية التي تحدروا منها ، فيُنشؤون أسواقهم ومنتدياتهم ومجالسهم ومدارسهم وأنظمة الخدمات في حياتهم ويتقاسمون فوائدها ويستشعرون الخطر الذي يتهددها كنظام مشترك للأمن .. كما يتهددهم كمجموعة بشرية متكافلة ومتضامنة خارج العصبيات الطائفية

والقبلية .. لأن حالة الثبات في المدن تلزم السكان بالإنتماء الى هذه الحواضر وترغمهم على التصرف بنفس طويل يقبلون على مدياته مستويات من التنازل المتقابل حتى يتمكنوا من العيش مع بعضهم البعض ، على العكس من حالة اللاثبات التي تميز بعض أجزاء الريف ، حيث لا توجد سوى عصبية معنوية تربط بين الأفراد على أساس الدم ، دون أن تكون هناك أواصر ناشئة عن الثبات الذي يستلزم السلم بين الأفـراد .. إذ كان الترحال متاحاً في ليلة وضحاها .. مـع ما يستجلبه ذلك من فقدان الأمان وتكريس الخوف من الآخرين واستسهال اللجوء الى القوة .

ولكي يكون هناك مجتمع مدني ، لا بد أولاً من الإنتقال من الآصرة المعنوية المجردة التي يمثلها الإنتماء القبلي وحسب .. الى الآصرة النفـعية والمادية التي يمثلها التكامل والتضامن الإجتماعي الذي تنتجه المدينة .. حاضنة كل العصبيات وحاويتها القادرة على إذابتها وتحييدها تدريجياً .. فالآصرة المعنوية قد تدع المجموع متشبثاً بأذيال الوهم ، سواء كان وهم القوة ، أم وهم النصر ، أم وهم التفوق ، أم وهم النقاء .. في حين ان الآصرة المادية ونتائجها النفعية والمصلحية تفرض نظاماً كاملاً للحياة ، تتأسس فيه علاقات إنتاج تتجاوز النمط البدائي الذي يخرج من الريف الى ما هـو مؤهل لتكوين مجتمع مركب تتقابل فيه المنافع والحاجات ، والـواجبات والحقوق ، وهو أمر يحفز الدافع الفردي في الأداء ، ويخلق مقاسات للتفوق تتناسب مع الكفاءة ونوع الخدمة العامة ودرجتها فينصف الذكاء والجـهد بدلاً من أن يجري المنح المجاني للمراتب على أساس النسب والنقاء القبلي المزعوم .

* * *

ثمة قيم يقاومها الوردي في المدينة العراقية ، لكن هذه القيم كانت إمتداداً لعصبيات شاملة تحدرت الى المدن من بعض حافات العراق وأريافه ، وإستنهضت المتخلف من أخلاقيات المدن لتشكل في روافدها المختلفة عصبيات قبلية وطائفية ومهنية ، سواء إنحازت الى حي سكني ضد حي آخر ، أو جاءت على شكل تبعية بلهاء لأحد الشقاوات ضد أشقياء آخرين يستجلب العداء بينهما صدامات دموية

كانت تتخذ مكاناً لها بين بيوت الآمنين وعلى أسطح منازلهم ، بل حتى أن هذا التعصب كان يظهر أحياناً في حزمة من المهن التي تنتقص من مهن أخرى يمارسها أفراد آخرون على الرغم من حاجة المجتمع إليها وحيوية مكانتها في حياته ..

ومن حيثما إستدار محرضو التنوير في العراق ، يجدون أنفسهم في صِدام مع الجميع ، إذْ أن التعصب لقبيلة أوطائفة أو مدينة أو أشخاص أو أحياء أو مهن ، موجود في المعلن والمستور من سلوك جميع الناس ، ولا تعدو صيحات المنورين غير محاولة لكبح جماح التعصب دون الجرأة على زعم إمكانية إنتزاعه .. فالأولوية في المجتمع العراقي ، قبل ثلاثة أرباع القرن عندما تأسست دولته الحديثة، كما هي اليوم أيضاً، هي في إيجاد مستوى من التراضي بين شرائح إجتماعية تحفزها أنماط متباينة من التعصب .

أما المعضلة الأكبر التي تهدد البنية الإجتماعية فهي تآكل دور (المدينة) في مواجهة زحف (الريف) ، وهي حالة تجاوزت آثارها المشكلات الإجتماعية وإتساع العصبيات وتغلغل قيم متخلفة في بنية المدن ، الى ما هو أخطر من ذلك ، عندما إستحوذ المتعصبون للمتخلف من قيم الريف والمتمسكون بالبدائي من دوافعهم الغريزية ، بالحياة السياسية للبلاد .. وربما منع الحرج الكثيرين من التعامل مع هذه الظاهرة ومحاولة تحليلها وتفسيرها لِما تثيره من حساسيات كثيرة وما تلقاه من قصور في التفهم والقبول ..

* * *

وضع الوردي متخلفي الريف الذين غزوا المدن وشقاوات المدن نفسها على خط واحد من التحدر في السلوك الذي يجنح الى العنف ويمتنع عن الخضوع للسلم الإجتماعي ، والمثير في تاريخ العراق ان الحركات الثورية فيه دفعت الى الخط الامامي فيها شرائح قادمة من ذينك المصدرين الإجتماعيين : فجاء المتريّف الغازي للمدينة وجاء شقاوات المدن ، واحتمى الخط الأمامي في هذه الحركات خلف سحب ثقيلة تراكمت بفعل غياب الحريات داخل تنظيماتها ، سواءكانت قد وصلت الى الحكم أم التي لم تستطع الوصول اليه ، ولذلك تقاسمت هذه الحركات صفات مشتركة مع كل ما كان بينها من اختلافات سياسية وفكرية :

فغياب الديمقراطية في حياتها الداخلية والإحتماء بالسرية والكتمان قد وفر غطاءً للفساد الإداري والشخصي وللعجز الفكري وتدني الوعي ، كما كان غطاءً للقسوة في الحيٰاة الداخلية لهذه الحركات ولتبرير إستخدام العنف ضد بعضها البعـــض ، أو ضد أعضاء التنظيمات نفسها في حالات الإنشقاق والخلاف الداخلي .

حتى ليبدو ان ثمة ملامح مشتركة لدى السياسيين من الجهاز الحكومي وبعض فصائل معارضته ، فيخال لمـــن يتطلع في وجوه المشاركين في واحد من إجتماعات المعارضة العراقية (عقد في إحدى العواصم العربية) ان أصحابها يمقتون الآخرين .. أي آخرين كانوا ، حيث يغيب لدى الفريقين الإحساس بالجمال والحرية والعدل ، ويغلب التحزب وتتسيد العصبية ، فقد جاء الفريقان من بيئة التخلف نفسها ، يحملون الكراهية للحواضر وقيمها الوسط ، إنه مرآى واحـــد ، عندما تنظر في ملامح المشاركين في أحد الإجتماعات الحكومية ، حيث تصادفك وجوه انتزعت منها حساسية إستشعار روح الناس من المقهورين والمضطهدين ، فيُستنسخ المشهد على الطرف المقابل .. إنعدام الإحساس بالآخـــر .. حتى لا يصدف أن يبتسم أحد في وجه الآخر إينما كان اللقاء .. في صف الحكم .. أم في بعض صفوف المعارضة .

يحدث هذا في وقت كان يُفترض فيـــه أنْ يخرج السياسيون من أرحام مدارس فكرية مختلفة ، وأن يجدوا أنفسهم إمتداداً لعلماء الإجتماع وفلاسفة التنوير في قرن النهضة الذي إفتتـــحه دعاة التـــحرر من السيطرات العثمانية والبريطانية أوائل القرن العشرين .. لقد ميز هذا التواصل بين السياسي والإجتماعي الكثير من مراحل التاريخ السياسي في العالم ، فكم من سياسي تمخض عن الفكر الإجتماعي والسياسي لابن خلدون ، وكم مـــن سياسي خـــرج مـــن مـدرسة ميكافيلي وغاريبالدي .. ؟ .. فلماذا لم يخرج السياسيون في العراق من كنف علي الوردي وساطع الحصري وفكرهما التنويري المحرض .. ؟ .. ولماذا لا يعترف السياسيون بحاجتهم الى إقتفاء أثر المفكرين .. ؟ ولماذا يتجاهلون شجاعة الفـــكر .. ولا يعرفون غير أحابيل السياسة ومكرها وظلمها وتخفيها في الظلام .. ؟

عندما لا تجد أبناء للمفكرين في السياسة العراقية ، فان هذه السياسة تبدو مقطوعة الرحم ، وآنذاك سيتاح تفسير تناقضاتها وإضطرابها وتقاطعها مع المصالح العليا للمجتمع في أمنه ووحدته وروح تراضيه ومسالمته مع ذاته والآخرين .. وعندئذٍ ستبدو معضلة العراق هي في أن نظامه السياسي الحكومي والمعارض ، على حد سواء ، بدأ مفككاً ومشوشاً ولم يبدأ قوياً متماسكاً ثم تآكل ، بل إنه خرج من مخاض الشوارع ، لا من حاضنات المفكرين ، فبدا مشوهاً وسار تلقائياً الى الجمود والتفتت .

وقد يقول قائل ، ان وضع العراق من هذه الناحية ، ربما كان مماثلاً لسواه في بلدان أخرى ، او أنه ليس الأسوأ منها ، وهو قول راجح في شكلية المقارنة ، غير أنّ عراقة هذا البلد وعمق تراكمه الحضاري وجنوح العراقي الى عدم الرضا ووجود نخبة فكرية باسلة ومشاكسة فيه يجعل من المستحيل قبول الإنهيار القيمي الذي أصاب المجتمع وفتت بنيته ، وفي هذه الحالة لا تقاس رفـعة العراق على درجة أداء سياسييه وقسوتهم .. وجهلهم .. بل على مستوى ما يخلفه مفكروه الشجعان من إرث للعقل الساخط وغير المطمئن الى صناعة السياسة وآثامها .. ..

لقد مات الوردي خائفاً من عقاب السياسيين وزاهداً في دنياه ووحيداً مجرداً من صولجانات الحكم ورضاه ، بعد أن أهمله صناع السياسة المستحكمون بالمال العام ، فجاء يلتمس العناية من الملك حسين في الأردن الذي إحتضنه بعد أن نخر المرض في أحشائه ومثانته .. حتى غدت هذه النهاية في حياة الوردي ، شاهداً على ظلامية عصر لم يقم وزناً لأشجع مفكريه الإجتماعيين .

* * *

ثمة جدلٌ محتد يشغل العقل العراقي هو جزء من رحلة البحث المضنية للوصول الى عروق الكوارث التي حلّت بالعراق ، ويدور الجدل حول تساؤلات يبدو بعضها بسيطاً ويبدو بعضها الآخر مركباً وعالي التعقيد ، ومن هذه التساؤلات : من نحن .. ؟ وهل نحن شعب واحد حقاً ؟ ولماذا توالت الكوارث على هذا البلد ؟ أهو عقاب إلهي قررته الأقدار ولا مناص من مواجهته والقبول به ؟ أم أنّ الكوارث هي نتاج جلدٍ جماعي للذات تخرج فيه القرة من حيزها الضيق في إيذاء الفرد لذاته أو إيذاء الفرد لفرد آخر لتصبح نوعاً من الرضوخ الجماعي للعقاب والإرتضاء بالجلادين ؟ وكيف تفسر الإزدواجية في السلوك الإجتماعي ، وهل يكفي القول بوجود مفارقات ناتجة عن صراع قيم البداوة وقيم الحضارة ، أو التنازع على الأدوار بين المدينة والريف .. أو بين الحاضرة والبادية .. ؟

وهل كل الذي جرى في ثلاثة عقود دامية هو إختبار لا بد منه لصلابة الفرد والمجتمع لكي يتأهل لدور خارق أمام الذات والآخرين .. ثم ما هو هذا الدور وهل ثمة ضرورة لإظهار فعالية تتجاوز في التأثير حدود الوطن ؟ وهل هناك خواص إجتماعية في العراق فرضت روح الخصام مع العالم الخارجي ؟

أم أن ما حصل من إبتداع للمعارك الخاسرة وإرتماء في الكوارث هو نتيجة سياسات خاطئة صنعتها شريحة صغيرة لا تنعكس في سلوكها كل خصائص المجتمع بل إنها تعكس قانون السطو والشعور الكامن بالنقص ، فتهشمت علي يديـها القيم المعنوية ووحدة المجتمع وإنهار بسببها النظام السلمي للعلاقات بين الناس ؟ .. ثم أنها فتحت الطريق أمام شرائح مثيلة لها لإستسهال الإستحواذ على السلطة وطرح نفسها كبديل .. بحيث يستبدل التخلف بتخلف سواه .. ويحل دمويون جدد بدل الدمويين الراحلين .. ولنذهب أبعد من ذلك : من هي هذه الشريحة التي تسببت في هذا الخراب القيمي والإجتماعي .. ؟ دون أن ينطوي هذا

التساؤل على أي مسٍ بمكونات جزء من المجتمع العراقي سواء كان مدنياً أم ريفياً أم بدوياً لأن الأمر قد يقودنا الى الإستنتاج بأن هناك معضلة في أهلية الذين مارسوا العمل السياسي وأرادوا أن يصنعوا المجد لأنفسهم ولمجتمعهم ، فإذا بهم لا يحصدون غير الخيبة لأشخاصهم ولا يخلفون غير الكارثة الإقتصادية والأخلاقية للمجتمع ، فالسياسة في هذه الحالة هي فن لإدارة الحياة العامة وتسيير شؤون الجموع وخلق قدرٍ من التراضي الإجتماعي دون ان نبالغ لنتحدث عن الوهم في مسؤولية السياسة عن خلق العدالة بين الناس ، حتي ليبدو أن العمل السياسي هو وعاءً للقيم الإجتماعية والأخلاقية تتشرب فيه تلقائياً دوافع سلوك إجتماعي محدد وغاياته .. ومن هنا بات من المستحيل إدراك دلالات الفوضى التي طبعت السياسة في العراق خـلال ثلاثة عقود دون تجميع الجهد للبحث في الجذور الإجتماعية والأخلاقية ، وآنذاك يكون من الطبيعي إثارة التساؤل : من هي الشريحة التي ذهبت بالمجتمع الى حالة التشرذم والإنقسام على الذات وفقدان الأمن الإجتماعي وإستسهال اللجوء الى العنف وإحتقار الرأي الآخر والإعتماد على دوافع بدائية في تكوين قرارات تتعلق بمصائر الملايين على غرار قبول خيار الحرب أو التنازل عن مصالح وطنية عليا أو الإرتضاء بإنقسام الوحدة الدستورية للبلاد أو إرتضاء هجرة خُمس السكان الى الخارج أو التسبب في خسائر مادية لا تأكل من أرصدة الماضي التي كانت مكتنزة من قبل بل تحمل جيلين على الأقل من الأبناء والأحفاد دفع تبعاتها .

* * *

إننا إزاء نموذجين من (الدول) خلّفهما الإرث الديني ، الأولى هي الدولة المستندة الى الأحقية الدينية والثانية هي الدولة التي تستمد شرعيتها من الرضا الإجتماعي وتعود الى الجمهور للحصول على هذه الشرعية ، وفي كلتا الحالتين ، كانت هناك قدرة على إنشاء عصبية عامة إنضوت تحتها العصبيات القبلية والمذهبية والمناطقية ، بحيث قبلت كل التحزبات والعصبيات الإنضواء الى دولة الإسلام (منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم) إنصياعاً منها لما تمثله هذه الدولة من شرعية دينية ، أي أن العصبية للدين كانت هي العصبية الجامعة ، في حين ان

الدولة الأقرب الى شكلها المدني المعاصر كما تخلّف عن النموذجين العباسي والأموي إستطاعت تحقيق قدر من الإستيعاب للعصبيات الفئوية لتصبح هي الأخرى عصبية جامعة ، وينطبق الوصف على أية دولة تحظى بنسبة راجحة من الرضا الإجتماعي عندما تتمثل فيها كل العصبيات وتنشأ عنها دساتير جامعة غير متـحزبة لفئة سياسية أو إجتماعية أو عِرقية واحدة على حساب فئات أخرى .

ستغدو عصبية الدولة مقبولة لو أنها بدت ملتقى تراضي كل العصبيات الطائفية والمناطقية والحضرية والريفية ، أما أن تكون الدولة منحازة لإحدى العصبيات فهو أمر ينزع عنها صدقيتها ويحولها الى مجرد عصبية متنازعة مع عصبيات أخرى ، ولذلك باتت التربة خصبة لإعادة إنبات العشائرية والمناطقية وإنعاش الطائفية وتمرير مشروع تقسيم العراق .

إذا كان لا بد من عصبية .. فهي عصبية الدولة الجامعة ، لا الدولة المُفرقة ، حتى لا يكون في مقدور الحانقين على المدن وأهلها الإنتقام منها سياسياً عندما يدخلونها مدججين بأسلحة الدولة بعد أن كانوا يغزونها من قبل بأسلحة القبيلة أو القرية .

وستفترق (الدولة) عن العصبيات الجزئية لأنها .. أي (الدولة) .. هي الحق العام في العصر الحديث ، وليست الغنيمة التي تستفرد بها جماعة ، أو عائلة ، أو جزء من عائلة ، أو جزء من طائفة . وفي حالة العراق تغدو الحاجة مضاعفة الى وجود دولة تجمع العصبيات لا (دولة) تتحزب لعصبية واحدة ضد أخرى ..

كم يبدو التراجع سريعاً .. إنه لا يتم على نحو متدرج .. فكل مظاهر الإنحطاط تبرز دفعة واحدة .. وتتوالى وقائعها واحدة إثر أخرى ..

حتى كأن عصبية القبيلة نفسها قد ضعفت لصالح عصبية أصغر منها ، وباتت عصبية فخذ من عائلة هي الغالبة على عصبيات أخرى في العشيرة الحاكمة ، وأكثر الشواهد إثارة ، كان إعلان أعلى جهاز في الدولة ، هو مجلس قيادة الثورة ، عن شمول أحد المسؤولين الذين إنشقوا عن الحكم بالعفو ، ثم قيام جناح صغير من عائلة بإبادته مع أبيه وإخوته وأخواته وأطفالهم ، وجاء الخطاب

الرسمي الذي أعلن الخبر ليتحدث عن قيام أفراد من (آل ...) ينتمون الى (البو..) – وهي أوصاف تُعرّف بأفخاذٍ عشيرية وأجزاء من أفخاذ – بتنفيذ عملية الإبادة .. ثم عد البلاغ الرسمي ما حصل عملية (جهادية وبطولية ومن نمط الأعمال الوطنية التي تستحق التمجيد) .

وتدل حادثة واحدة من هذا النوع على مدى إنحطاط دور عصبية الدولة لصالح عصبيات صغيرة وجزئية كان ينبغي إنصياعها لإرادات يفترض فيها ان تكون أعلى من سواها لو كانت ثمة (دولة) تعد ملكاً عاماً .. وحقاً عاماً .. وسلطة عامة عليا .. بدل ان تكون هذه (الدولة) ظلاً لإرادة عصبية ثانوية صار على المجتمع كله ان يخضع لإرادتها ، بمعنى ان حفنة صغيرة من الأشخاص باتوا يقررون لوحدهم مصائر المجموع ، برغم كل ما بذلته هذه العصبية من جهد لتتخفى وراء براقع وأغطية ومسميات تستحوذ بوساطتها على (الحق العام) و (السلطة العامة) و (المُلك العام) .. وفي ذلك أعلى درجات الحط من كرامة المجتمع ودستورية الدولة .

فأيهما أكثر فعالية .. دستور الدولة .. أم دستور العائلة .. لا بل دستور جناح من عائلة .. ؟ ..

إن الإجابة لا يمكن أن تتأخر في إقرار غلبة دستور الدولة .. وعندما يحصل العكس فإن ذلك ينذر بتقنين التفكك الإجتماعي وجعله شرعة الأمر الواقع في بلاد نشأت على أرضها أولى دساتير البشرية قبل ستة آلاف سنة ، وعلّمت حواضرها وما نشأ فيها من دول . أشكال التنظيم المتقدم للعلاقة بين الأفراد والسلطات .. وسُنت فيها أمتن الشرائع في بيئاتها الزمنية الغابرة كما يشهد على ذلك عصر (حمورابي) الملك العراقي الخالد الذي دوّن على مسلته الشرائع المنظمة لإسلوب التعاطي بين الحاكم والمحكوم ولنمط العلاقات في مجتمعات بشرية تقاوم سلوك المخلوقات الأخرى التي إرتضت لذواتها .. شرعة الغاب .

لقد مضت ثمان وثلاثون سنة على سقوط الدستورية الملكية دون ان يقوم في العراق دستور دائم للبلاد ، وأدى تعليق الحقوق والواجبات على خلفية الإضطرابات السياسية وعدم الإستقرار الى إطلاق فرص (الفرد)

أو (الحزب) أو (العصبية) للإستحواذ على الحق العام وإلغاء دور الأغلبية في صياغة نظام العلاقات داخل المجتمع من جهة وبين الجمهور والسلطة من جهة اخرى بعد ان تسيّدت (شرعية ثورية) على حساب الشرعية الدستورية ..

وسأستخدم هنا تعبير (الشرعية الثورية) مجازاً لوصف الأمر الواقع الذي ينتج عن الإنقلابات العسكرية وإستخدام القوة في فرض نموذج سياسي وإجتماعي على البلاد دون ان يتمكن من إحتواء غالبية تطلعات المجتمع وحاجاته ، ويتأتى التحفظ على إضفاء صفة الشرعية على مثل هذا الأمر المفروض بالقوة من كونه حالة قسرية أنتجتها مصادفات ولحظات متخلخلة من التاريخ السياسي للمجتمع ، وهذه (الشرعية) هي أعلى ما كانت تسعى اليه جميع الأحزاب التي حملت صفات (الثورية) وإعتمدت العنف وأسقطت الخيار الديمقراطي داخل بنيتها الداخلية ، كما أن هذه (الشرعية) هي جلّ ما كان يتطلع اليه العسكريون المغامرون وهم يتهيأون للإنقضاض بدباباتهم على قصور الحكومة ، ليخرجوا في اليوم التالي بهيئات حاكمة تلغي كل ما سبقها من إرث سياسي ولا تعترف بكل من يخالفها او يختلف معها .

إنّ شريعة القوة سمحت في الكثير من بلدان العالم الثالث وبعض البلدان العربية ببروز شرائح إجتماعية دفع بها الشارع الى سدة الحكم وهي تحمل نقائضها في التكوين وعقدها ومثالبها وهو ما نقصد به عدم أهليتها الإجتماعية والأخلاقية ، وصارت طليقة في ممارسة العنف المنظم مستخدمة أدوات الدولة وقدراتها ، ففي حين كانت تستخدم من قبل بندقية القبيلة أو الطائفة أو العصا السياسية السرية صارت اليوم تستخدم سلاح الدولة للتعبير عن النوازع والمصالح الضيقة .

ومن الحق والإنصاف القول بأن جميع الحركات السياسية المتماثلة في التكوين عانت من غياب الديمقراطية الداخلية وسيادة منطق العنف وغياب الأهلية الإجتماعية وأنها كانت تتقاسم الصفات ذاتها ، سواء تلك التي وصلت للحكم لفترات قصيرة أو طويلة ، أو تلك التي ما زالت تسعى للوصول اليه لأنها تعكس في سلوكها عصبية ضيقة منتمية للقبيلة أو الطائفة أو المنطقة أو الطبقة

ولذلك لا ترى وجوداً لعصبية واحدة تمثل المجتمع في غالبيته ، لأنها حين تسقط إعترافها بالآخرين ولا تكترث بالديمقراطية وحق المشاركة في بنيتها الداخلية وتُشرع إستخدام العنف تنتهي الى فئوية ضيقة حتى لتصبح دوائر القرار فيها أصغر بكثير من إطار الأحزاب أو الحركات السياسية الموجودة في نطاقها ، وهو ما يفسر كثرة الإنشقاقات داخل كل حركة وإرتدادها ضد بعضها البعض وهيمنة شرائح طائفية وعائلية وطبقية ومناطقية على حساب من يناقضها في أي من هذه العصبيات الفئوية .

فالرضوخ الى التعددية والإعتراف بها ، ليس نمطاً من التنازلات التي يقدمها السياسيون ، حيث أن أياً من المعيارين : الجـــغرافي والإجتماعي سيُفضي الى فرض (التعددية) كأمر واقع ينتج تلقائياً تعددية سياسية ، وإذا قبلنا بالجغرافيا كعامل في تكـوين نموذج إنساني محدد ، فان جغرافيا العراق متنوعة بين جبل وسهل وصحراء ، ولذلك فان نتاجها الإنساني سيظهر على إيقاع البيئة المكانية التي يخرج منها وستكون له خصائص وصفات مميزة عن سواه ، ولكنها ليست متقاطعة ، بل ان الأصح هو الإقرار بحالة التكامل بين هذه النماذج . وإذا إعتمدنا العامل الإجتماعي فإنّ في العراق ملتقى ترسبات عقائدية وعِرقية متنوعة ، حيث يوجد فسيفساء هو الأكثر زخرفة وتنوعاً من أي مثال آخر في العالم ، وبإمكان هذا الطيف وظلاله أن يكوّن نسيجاً لا يأكل فيه جزءٌ الآخر ، بل يجعل من تعدديته وتنوعه مصدراً للتكامل والإضافة .

وأجدني أكرر ما ذكرته في مناسبة سابقة من أنّ الحفاظ على عروبة العراق واسلاميته لا يلغي حقيقة أنّ الفسيفساء العقائدي والعِرقي والمذهبي فيه يجعله على الدوام أغنى حاضنة للتنوع الذي يضم : العرب والكرد والتركمان والمتحدرين من أصول فارسية وهندية وبلوشية ، الى جانب معـــتنقي الإســـلام والمســـيحية واتـــباع مـــعــــتقدات قـــديمـــة ومـــحدودة الإنتـشار مـــثل (اليزيدية) و (الصابئة المندائية) و (النسطورية) .. ولذلك فإنّ إستفراد قرية ، أو بعضٍ من قرية ، أو عائلة أو جزءٍ من عائلة ، بهذا العراق هو إستحواذ على جــماعية التكوين النفسي ، وتصغير لمرآى البلاد وأهلها أمام نفسها والعالم .. وهو ما يبيح إلغاء الرأي

الآخر .. والحق الآخر .. وتكريس إحدى العصبيات الضارة لتكون بديلاً عن تعددية نفسية وإجتماعية تبحث تلقائياً عن تعددية تعبيراتها السياسية والفكرية ..

* * *

لقد نشأت عن تحكم البدائيين بالحياة السياسية حالة من الرهبة والحذر والشك عند الإتصال بالعالم الخارجي .. ويبدأ هذا الإتصال عند هؤلاء البدائيين بالمدينة ثم بما هو خارج حدود الدولة نفسها ، ليتكون خوف من إجراء هذا الإتصال يعكس نفسه بإدعاء القوة وتقمص الثقة مما لا يعدو كونه سوى تغطية على شعور راسخ بالخوف والإرتياب والضعف ، وأدى هذا الإحـساس بالنقــص الى إرغــام الحــواضر وساكنيها على الخضوع لقانون (القرية) ومنطق (العشيرة) حتى غدا العراق فــي الأداء السياسي الهشّ الذي أُدير به على مدى ما يزيد على ثلاثة عقود وكأنه قرية مرتابة في التعامل مع العالم وفي هذا حط من منزلة البلد وقدرة شرائحه الإجتماعية على إنتاج أداء سياسي أرقى قدر تعلق الأمر بالإتصال مع العالم الخارجي .

وكان يُعاب على أهل المدن غرقهم في الملذات وتعلقهم بالحياة المادية ، في حين كان يُفترض أن غيرهم من المتريفين هم أكثر تعلقاً بالقيم المعنوية ، غير أن الذي حصل هو أن هجرات الريف الى المدن ، أدخلت شرائح متعطشة للقيم المادية والملذات فغرقت فيها ، بشهوانية وشراهة مما يعف عنه أهل المدن الموصوفون أصلاً بتهمة الغرق في الملذات ، وأقصد بالمتريفين أولئك الذين اتاحت لهم السياسة الحصول على وجاهة إجتماعية في المدن الكبرى فدخلوها دخول الثيران الى متاحف الخزف ونقلوا إليها البدائي مـــن طباعهم ليخلوا بنظام حياة المدينة ويحرفوا توزيع الأدوار فيها ..

* * *

يبدو أحياناً أن هناك حاجة للعثور على خيار ثالث إزاء خيارين تمتعا بدوريهما في تاريخ العراق الحديث ، الأول هو حصول عدد من أبناء المدن على الوجاهة السياسية منذ تكوين الدولة الحديثة فأسسوا مستوىً من الصالون السياسي المعزول عـــن بـــقية شـــرائح المجتـــمع ، وضم ذلك الصالون من كانوا

يعرفون بـ (البيكات) أو (البهوات) الذين شكلوا شريحة مائعة وضعيفة لم تقوَ على إستيعاب تعددية المجتمع العراقي والتفاعل معها .. أما الثاني فهو إستحواذ المتـريفين على الوجاهة السياسية من خلال الإنقلابات العسكرية والحركات الثورية ، وتسببت إدارة هؤلاء للحياة السياسية في سلسلة من النكسات والكوارث والحروب بعد ان تم عزل شبه كامل للدور الإصلاحي والتنويري للمدينة ، ولذلك فإن الخيار الثالث ـ وهو إستعادة دور المدينة ـ ليس خياراً للمكان الوسط بل هو خيار للوسط في القيم الإجتماعية السائدة الذي يفرز أداءً سياسياً وسطاً ومعتدلاً لابميوعة مرحلة (البيكاوات) ولا بإستبداد مرحلة (المتريفين) ..

وسيترتب على عودة دور المدينة إنشاء سلسلة من التحسينات في الأداء السياسي للدولة من جهة كما سيؤدي الى إستعادة هيبة الدولة بعد ان غابت طويلاً في هامش التريف :

أولاً : إن المدينة تـنزع الى التكتيل والإتحاد وتجمع بين ظهرانيها كل النقائض ، ولذلك فهي قادرة على إذابة الفروقات العرقية والمذهبية واستيعابها وتكريس نمط من الإتحاد الإجتماعي في مواجهة أشكال الإستقطاب الطائفي والمناطقي والعِرقي التي تنمو وتنتعش في التجمعات السكانية الصغيرة والمحدودة .

ثانياً : سينشأ عن رد الإعتبار الى المدينة ردُ إعتبار آخر للدولة كمفهوم معنوي وكتنظيم عملي ، وعليه ستجد (الدولة) خلاصها مما تراكم فيها من طفيليات البدائيين الذين إنضووا الى مؤسساتها ليخلطوا بين الحق العام والحق الخاص ، وظلوا يحتفظون بدوافعهم الغريزية التي تستحلي جعل (الدولة) منطلق إنتفاع فردي ، فهزلت على أيديهم قدرة الدولة على التنظيم والإدارة وضعفت قدرتها على إشاعة قدر من العدل والتراضي .

ثالثاً : ستفرض المدينة نمطها السلمي في العلاقات الإجتماعية كبديل لعلاقات السطو والنهب وإستخدام العنف والتمحور العشائري والمذهبي ، بحيث يتغلب الحوار والتفاعل ويتكرس إلتقاء التناقضات في الوسط من الخيارات .

رابعاً : وسيكون متاحاً للمدن إستعادة وظيفتها الحضارية ، لتنتعش مرة أخرى ، مجالس الفكر في بغداد والموصل والبصرة والكوفة والنجف بعد ان

إضمحلت تحت وطأة الرقابة وتقييد الرأي الآخر وتضييق الإجتهاد وسيادة دور البدائيين ونزوعهم الى الإستحواذ على المنافع المادية على حساب الدور الحضاري التقليدي للمدن ..

خامساً : ولن تكون المدن حاضنة معنوية وحسب ، بل ستكرس المنعة والقوة عندما تسترد مكانتها كقلاع وحصن ومراكز دفاع الى درجة تصبح فيها المدينة رمزاً لدولة مهّابة قوية على عكس ما تمثله التجمعات السكنية الصغيرة من نقاط مبعثرة ضعيفة لا تقوى على تجسيد هيبة الدولة ومنعة دفاعاتها ..

إن أعدل مثال في تاريخ العرب ، هو حالة (قريش) التي كانت قبيلة بدوية مؤصلة لم تلبث أن استوطنت في حواضر مستقرة لتبني المدينة – الدولة التي إنطلق منها الإسلام الى العالم كله برسالة الإيمان والعلم : الفروسية والمدنية . وكذلك الأمر بالنسبة للقبائل الجرمانية في القاطع الألماني التي تحولت من مجتمع رعوي بدائي الى مجتمع إستيطاني مستقر انتج في بضعة عقود أكبر انجاز صناعي وعلمي ومدني عرفته اوربا التي كانت القبائل الجرمانية تغزوها من قبل .. وحسب .

فالمدينة هنا هي مــركز تأسيس الحضارة كقيم معنوية والمدنية كشواهد مادية .. ومنها اتخذ الإسلام قاعــدة لإنتشاره كرسالة عالمية مقبولة للإنسانية كلها ..

وثمة مصلحة عامة في العراق نفسه وفي الإقليم الذي يحتضنه ليتغلب دور المدينة على دور نقيضها في الحياة السياسية لكي تنمو قيم العلاقات السلمية مع الذات الوطنية ومــع الآخرين ، ولا يعني ذلك ان المدينة ستنتج مجتمعاً سياسياً رخواً ومخنثاً ، في حين ان القرية تنتج مجتمعاً محارباً قوياً ، لأن في ذلك الكثير من الخلط والإيهام وقدراً كبيراً من فــهم شــكلي للقــوة ، فالمــدن هــي رديف (الدولة) ونتاجها وتوأمها في منطوق التنظيم وسيكون الحُصن رديفها في منطوق الدفاع ، ولم يحصل في تاريخ العراق أن صمدت قرية أو قرى في وجه الغزوات الخارجية ، كما صمدت المدن المنيعة كالموصل والكوفة والبصرة .

ولا ينبــغي التــخلي عــــن ميــزة المــدن في القــدرة على إستيعاب (الأعراق) و (المذاهب) و (الجهويات) من حيثما أتت لتخلق بينها قدراً من التفاعل لا يستطيع الريف الإتيان به في كل الأحوال .

* * *

من مظاهر تشوه النموذج الإجتماعي هو سقوط دور الطبقة الوسطى في العراق بحيث غدا المجتمع شريحتين إقتصاديتين إحداهما صغيرة تجمع شلةً من أصحاب الثروات الكبرى هي أشبه ما تكون بـ (مهراجات الهند) في مواجهة شريحة تمثل الغالبية من السكان الذين يعانون من العوز ولا تكفي مواردهم لتغطية حاجاتهم الأساسية ، ويعتاش بين هاتين الشريحتين طفيليون ووسطاء يحتلون مساحةً إسفنجية تضخ قيماً مشوهة تعبر عن مصالح مغتنمي الفرص في مرحلة الحصار الإقتصادي على العراق التي تتغلب فيها القيم المادية على القيم المعنوية بعد ان تدهور نظام القيم وأعيد تسلسل أولوياته ، فغاب العيب مثلاً ، وإشترعت خطوط حمرٌ جديدة تحجز بين الصحّ والخطأ ، وتدهور نظام الأسرة ، وقد حدث ذلك كله في ظل غياب الأمن الإجتماعي بمعنى زوال الطمأنينة في العلاقة بين الناس حتى داخل الأسرة الواحدة والحي الواحد مع ما رافق ذلك من إنتشار الجريمة وإستسهال السرقة وعدم إستبشاع بيع الذات .

وسأدعو القارىء في هذا الكتاب ليعايش النماذج التي أحبها الوردي واستنبط منها رؤاه لسلوك الفرد العراقي ، وهي نماذج تكاد تختفي اليوم من خارطة المجتمع ، ويختفي معها ايقاع حياتها ، وأعني بهم الوراقين والعتالين والعطارين والعمارين والصاغة والحدادين والبنائين ، حيث طغى عليهم دور الوسطاء والمخبرين والوكلاء السريين والسماسرة وباعة الأوراق المالية وأشباه المقاولين ، بعد ان تحول البناؤون الى مهن طفيلية لا تخضع لحد أعلى او حد أدنى من القيم التي تنظم السلوك وتحميه وتمنعه من التحدر كما تمنع المجتمع كله من التفتت والضياع .

إن محنة العراق بعد هزيمته العسكرية في حرب الخليج هي غير محنة مصر وبلدان عربية أخرى بعد هزيمتها سنة ١٩٦٧ عندما وقعت صدمة سياسية وإجتماعية بعد حرب الساعات الست أو (الأيام الستة) ونشأ عنها إختلال في نظام القيم ، فمعضلة العراق هي أن هذا التخلخل والتراجع ظل مستمراً بتأثير خلل الإدارة العامة للنظام الإجتماعي المحلي في جانب وتأثيرات العوز الناتجة عن العقوبات الإقتصادية المفروضة على البلاد ، وبدلاً من ملاقاة الخلل القيمي ومعالجته

شهد المجتمع العراقي لأول مرة في تاريخه مظاهر وإجراءات عمّقت التصدع النفسي والأخلاقي ، ومن أمثلة ذلك التداخل بين المال العام والخاص في سلوك شريحة سياسية متنفذة ، وبروز ظاهرة تورط رجال الشرطة ، الذي يفترض أنهم مؤتمنون على أمن السكان ، في جرائم السرقة والقتل ، وإشتراع عقوبات غريبة من مثال قطع الآذان ووشم الجباه وغير ذلك مما يعيد المجتمع الى أنظمة قرون غابرة أشبه ما تكون بمجتمع الغاب .. الى جانب إلغاء التدرج في نظام العقوبات العراقي الذي كان يضمن عدم ذهاب مرتكبي الجرائم الى الحد الأقصى في الجريمة على أمل ان الجريمة المخففة ستقابل بعقوبة مخففة ، في حين أنّ الذهاب الى العقوبات القصوى ألغى التدرج في مستويات الجريمة ودفع بالمجرمين الى أقصى درجات الجرم ما دامت العقوبة قد صارت واحدةً في كل الحالات .

* * *

لم يكن من الترف أن تتداعى الأسئلة .. ؟

إنها تخرج من لجة سؤال كبير : هل كان سلوك القساة جزءاً من روح هذا العراق .. ؟ .. ونعني بهم أولئك الذين عنفوا أبناء جلدتهم و احترفوا تعذيب الآخرين ، وشي لحومهم ، وإلقاء الخصوم أحياء الى الكلاب ، وقطع نسل الخصم وإزالة حرثه وبذره ، ومعاقبة الأقارب ، وقطع آذان الخَلق ، وإلقاء السجناء في أحواض السيانيد ...

من رحم هذا التساؤل خرجت الأسئلة كلها ..بعد ان تغير امام الناظر مرآى بغداد.

حقا مالذي حلّ ببغداد إذن .. ؟ ..

في يوم مضى كان الناس يلتقون عند حكايات المواقد وآماسي المسرات .. أما اليوم فإن بعضهم يدعو الآخر الى سهرة بكاء ينتحبون فيها الفجيعة التي حلّت بهم .. وتلك التي يخافون قدومها إليهم ..

من الذي فعل هذا ببغداد فأطلق فيها البكاء والشجن ليخنق الأغاني وإيقاعات الخلاخل وقهقهات الصغار .. ؟

سعد البزاز

١٥/٤/١٩٩٦

الدكتور علي الوردي

حوارات

في الطبيعة البشرية



العراق .. أولا

نزاع هابيل وقابيل صراع بين البداوة والحضارة

س : كيف ومتى ظهرت الحضارة على وجه الأرض ؟ ولماذا ظل البشر طيلة مئات الألوف من السنين بلا حضارة ، ثم ظهرت الحضارة فجأة قبل ستة الاف سنة تقريباً ؟

ج : هذا السؤال ذو اهمية علمية كبيرة . وطالما تناقش حوله الباحثون ، فالمعروف ان البشر ظهروا على وجه هذه الأرض قبل مليون سنة او أكثر ، ولكنهم عاشوا هذه المدة كلها تقريباً بلا حضارة ، ثم ظهرت الحضارة قبل ستة الاف سنة ، فلماذا ؟

* ومما يلفت النظر ان الحضارة كان اول ظهورها في « العراق .. ومصر » ثم صارت تظهر بعدئذٍ في بعض الأقطار الأخرى شيئاً فشيئاً ، والسؤال الذي يواجهنا هنا : لماذا كان العراق ومصر مهد اول حضارة على وجه الأرض ؟ وما هي الظروف التي أدت الى ذلك ؟

* حاول بعض الباحثين في القرن الماضي أن يجيبوا عن هذا السؤال بقولهم ان هذين القطرين اتصفا بوفرة المياه وخصوبة الأرض واعتدال المناخ ، فنشأت فيهما جراء ذلك الزراعة التي هي أساس الحضارة .

* والواقع ان هذا الجواب بالرغم من وجاهته الظاهرة لا يحل لنا المشكلة حلاً تاماً ، فنحن نعلم ان هناك في انحاء العالم أقطاراً عديدة كالعراق ومصر تتصف بوفرة المياه وخصوبة الأرض واعتدال المناخ ، فلماذا لم تنشأ الزراعة والحضارة فيها على نحو ما ظهرت في العراق ؟

* للمؤرخ المعروف ارنولد توينبي نظرية في هذا الموضوع يمكن اعتبارها أفضل جواب للسؤال آنف الذكر . وفحوى هذه النظرية أن الإمتداد الصحراوي الكبير الموجود الآن بين المحيط الأطلسي والخليج العربي لم يكن موجوداً قبل عشرة آلاف سنة ، بل كان منطقة غزيرة المطر ومليئة بالأشجار والحيوانات وكان سكانها يعيشون على صيد الحيوانات والتقاط الأثمار ، ولم يكن احتراف الزراعة أو رعي الأنعام قد ظهر بينهم .

* كان مناخ هذه المنطقة قبل عشرة آلاف سنة يشبه مناخ اوربا في أيامنا وسبب ذلك انها كانت حينذاك تعيش في ما يسمى « العصر الجليدي الرابع » ، ففي ذلك العصر كان الجليد القطبي يغطي اوربا ، اما المنطقة التي تقع الى الجنوب منها فكانت غزيرة المطر ، ولما بدأ الغطاء الجليدي بالإنسحاب نحو الشمال منذ عشرة آلاف سنة ، اخذ المطر يتحول الى أوربا

بينما صارت المنطقة التي تقع الى الجنوب منها تميل الى الجفاف شيئاً فشيئاً .

* ان هذا التغير في المناخ الذي حدث في هذه المنطقة كان له اثره الكبير في تاريخها وفي طبيعة مجتمعها ، فقد حلّ الجفاف بهم بعد المطر الغزير ، وبذا ضاقت عليهم وسائل العيش التي اعتادوا عليها زمناً طويلاً . فهم كانوا يكسبون رزقهم عن طريق صيد الحيوانات والتقاط الأثمار وهي كانت وفيرة في الفترة السابقة ، ثم اخذت تشح عليهم تدريجياً ، واضطروا الى التفكير الجدي في البحث عن وسيلة اخرى للعيش .

* يقول توينبي ان السكان انقسموا الى فريقين أحدهما التجأ الى رعي الأنعام من الابل والغنم وغيرها ، وصار يتنقل في الصحراء بحثاً عن المراعي . أما الفريق الآخر فقد إلتجأ الى أحواض الأنهار القريبة كالرافدين في العراق والنيل في مصر وصار يحترف الزراعة . وبذا نشأت الحـضارة لديهم .

* وفي رأي توينبي ان قصة ادم وسقوطه من الجنة – وهي القصة التي ورد ذكرها في الكتب الدينية – انما تشير الى التغير الكبير الذي حدث في هذه المنطقة ، فقد كان ادم وزوجته حواء يعيشان في جنة عدن منعمين ، ثم عصيا ربهما بتحريض من الشيطان ، فطردهما الله من الجنة حيث صارا يكسبان قوتهما عن طريق الكدح وعرق الجبين ومما يلفت النظر في قصة ادم كما ترويها الكتب الدينية انه رُزق بعد خروجه من الجنة بولدين هما هابيل وقابيل . وتذكر القصة ان هابيل امتهن الرعي بينما قابيل امتهن الزراعة ، ثم تنازع الإخوان فقتل « قابيل » « هابيل » وفي رأي توينبي ان النزاع بين هابيل وقابيل رمز للصراع الطويل الذي حدث بين البداوة والحضارة في هذه المنطقة .

* لو فرضنا ان هذه النظرية صحيحة حول منشأ الحضارة .. فالسؤال الذي يواجهنا هنا : لماذا نشأت الحضارة عن الزراعة ولم تنشأ عن البداوة ؟

– يجب ان نعلم قبل كل شيء ان الزراعة تعطي محترفيها فضلة انتاج ، اما البداوة فلا تعطي هذه الفضلة ونقصد بـ « فضلة الإنتاج » ما يزيد على الحاجات الضرورية للإنسان ، ومن الممكن القول ان البداوة تعيش على حافة المجاعة دائماً . فالبدو يتنقلون وراء المراعي في الصحراء الواسعة . وهم يعتمدون في رزقهم على المطر ، فإذا توافر المطر في سنة من السنين نعموا به وشبعوا ، واذا شح المطر جاعوا . ومعنى ذلك انهم لا يستطيعون ان يزيدوا من انتاجهم بالإرادة وبذل الجهد ، بل هم ينظرون الى السماء لتنعم عليهم بالرزق وقد وصفهم القرآن قائلاً : « رزقكم في السماء وما توعدون » .

أما الزراعة فهي وإن كانت تعتمد على المطر أيضاً غير ان للإرادة وبذل الجهد لها

نصيبٌ في زيادة انتاجها على وجه من الوجوه . وكلما بذل الزراع المزيد من الجهد في تنظيم الري وفي ابتكار الأدوات لإستغلال الأرض كان انتاجهم اوفر . وهم قادرون بالإضافة الى ذلك ان يجعلوا انتاجهم أكثر مما يحتاجون اليه في إشباع حاجاتهم الضرورية وبذا ينتشر بينهم الترف في المأكل والملبس والمسكن ، وتنمو لديهم الفنون المختلفة وغيرها وهذا معناه نمو الحضارة .

* وهناك ناحية اخرى جديرة بالذكر في هذا الصدد هي ان الدولة التي هي أهم مستلزمات الحضارة لا يمكن ظهورها الا في المناطق الزراعية . أما المناطق البدوية فمن النادر ان تظهر فيها الدولة .

ان الضرائب هي الأساس الذي تقوم عليه الدولة ولا تمكن جبايتها الا في المناطق التي تتوافر فيها فضلة انتاج ـ اي في المناطق الزراعية .

* ان البدو غير قادرين ان يدفعوا الضريبة مهما كان نوعها . وهم يعتبرون الضريبة نوعاً من الأتاوة ، اي « الخاوة » حسب التعبير الشائع في العراق . وهم يفتخرون بالحصول على الأتاوة من غيرهم ويختزون من دفع الأتاوة الى أحد ، وهذا من الأسباب الذي جعل العداء مستحكماً بين الدولة والقبائل البدوية . فاذا اتيح لقبيلة بدوية ان تدخل في حدود دولة مجاورة صعب عليها ان تدفع الضريبة لها ، وكثيراً ما تنشب المعارك الضارية بينهما جراء ذلك .

* وصفت الدولة بأنها أهم مستلزمات الحضارة ونحن نعلم ان الدولة في العصور القديمة كانت تتصف بالظلم والإستغلال والإستبداد . وقد أعطتنا الكتب الدينية وصفاً واضحاً للحكام القدامى من حيث ظلمهم للناس وإستغلالهم كفرعون ونمرود وغيرهما . فكيف توفق بين هاتين الصفتين ؟

– كان البشر قبل ظهور الدولة يعيشون على شكل قبائل متفرقة ، وظل البدو يعيشون على هذا النمط حتى عهد متأخر ومن الممكن القول بوجه عام ان النظام القبلي . يخلو من الظلم والإستغلال ولكنه في الوقت نفسه لا يساعد على نمو الحضارة وزيادة الإنتاج .

ان القبيلة يتزعمها رئيس متبوع عادة ، وهذا الرئيس يجري في حكمه للقبيلة حسب الأعراف السائدة فيها ، وهو لا يستطيع ان يكون ظالماً او مستبداً بخلاف الأعراف السائدة ، وإذا ظهر ظلم او إستبداد على الرئيس القبلي ، ونفر منه أفراد القبيلة وكرهوه ، وقد يلتفون حول أحد منافسيه ليجعلوه رئيساً لهم بدلاً من رئيسهم المكروه .

أما الدولة فتقوم في الحكم على نمط آخر ، فالحاكم فيها كان يعتمد في حكمه على

القوة القاهرة ، ولا يستطيع احد من رعيته أن يعترض عليه في شيء أو يعصي أمره . وهو لا بد ان يندفع في شهواته ورغباته بلا حدود .

من طبيعة الإنسان بوجه عام انه يندفع في شهواته ورغباته ما لم يجد رادعاً يردعه ، وهذا هو ما كان يفعله الحكام غالباً قبل قيام النظام الديمقراطي الحديث . فهم كانوا يشترون الجواري ويشيدون القصور الباذخة وينفقون اموال الأمة كما يشتهون ، ولكننا يجب ان لا ننسى مع ذلك ان حكمهم على مساوئه هو أفضل من النظام القبلي القديم .

ان القبيلة تكاد تخلو من الظلم والإستغلال والإعتداء والجريمة في داخلها . فأفراد القبيلة يتعاملون فيما بينهم حسب ما تمليه عليهم الأعراف السائدة فيهم ، وإذا خالف أحد منهم تلك الأعراف احتقروه أو طردوه من بينهم ، ولكن هذا النظام ، لا ينجح في مجتمع كبير يشمل عدة قبائل ولا بد من وجود قانون عام يفرض على الناس بالقوة ، وهذا هو ما تفعله الدولة عند قيامها ، فإنها على الرغم من مساوئها الكثيرة تفرض الأمن على مجموعة كبيرة من الناس ، وتجبرهم على التعاون في الإنتاج وعلى الحياة المشتركة .

لكي نعرف قيمة الدولة ننظر الى ما يجري بين الناس عندما تغيب عنهم سلطة القانون والدولة ، فسرعان ما تنتشر الفوضى بينهم فيتناهبون ويتقاتلون دون رادع ، وقد أدرك ذلك بعض فقهاء المسلمين منذ زمن بعيد حيث قالوا : « الحاكم الجائر خير من الفوضى » .

ان الأعراف القبلية قادرة على ضبط الناس في داخل القبيلة ، اما في خارجها فأفراد القبيلة أحرار فيما يفعلون بغيرهم ، وهم قد يفتخرون بما يفعلون من قتل او نهب او إعتداء خارج قبيلتـهم وهذا يصدق أيضاً على المجتمعات المحلية الصغيرة إنها المجتمعات المحلية الصغيرة ، وهي المجتمعات التي كنا نعيش فيها في العهد العثماني . فقد كان (الشقي) في ذلك العهد يفتخر بالسطو على البيوت وقطع الطريق . وفرض الأتاوة على التجار ، ولكنه يفعل ذلك خارج محلته . أما في محلته فهو البطل المغوار الذي يحمي محلته تجاه أعدائها ويحرص على إتباع أعرافها .

ولا يفوتني ان أذكر مثلاً .. فقد أعجبتني في هذا الصدد المقالة الإفتتاحية التي نشرتها جريدة « الثورة » في ٩ تموز ١٩٨٧ ، ففيها عرض موجز للمجتمع العراقي في العهد العثماني فقد كانت الحكومة آنذاك ضعيفة متفسخة ، وكانت سلطة القانون غائبة عن أنحاء كثيرة من العراق ، فحلت محلها الأعراف العشائرية وصار الفرد لا يأمن على نفسه او عرضه او ماله إلا إذا كان منتمياً الى عشيرة قوية تحميه ، او أسرة ذات نفوذ تدافع عنه . وانتشرت حينذاك قيم الثأر والدخالة والتسيار وفرض الأتاوة والعصبية المحلية والبلدية والفخار بالغلبة بين الناس وبذا انحطت الحضارة إنحطاطاً فظيعاً .

ان لهذا المثل معنىً يمكن ادراكه بسهولة ..

حول الشخصية

س : ما الطبيعة البشرية حسبما تراها انت .. ليكن هذا بدايةً للحوار .

ج : هناك ثلاثة محاور رئيسة تدور حولها الطبيعة البشرية ، ومن الصعب على الانسان ان يفهم هذه الطبيعة دون فهم المحاور ، هي الشخصية والعقل والانوية . وسوف أتحدث الآن عن الشخصية :

المقصود بالشخصية مجموعة الصفات التي يتميزبها كل فرد من البشر عن الآخر ، فقد إتضح الآن علمياً ان البشر يختلفون في تكوين شخصياتهم ، فمن النادر ان نجد اثنين من البشر يتشابهان في شخصيتهما تشابهاً تاماً ، ولا بد أن يكون بينهما شيء من الاختلاف قليلاً أو كثيراً ، وهنا يواجهنا السؤال الأكبر الذي حار القدماء فيه قديماً وما زال العلماء حتى الآن في بحث مستمر حوله ، هو : لماذا يختلف الناس بعضهم عن بعض في تكوين شخصياتهم ؟

ذهب الكثير من الباحثين في وقت مضى الى القول بأنّ الوراثة هي العامل الحاسم في تكوين شخصية الإنسان ، وجاء وقت آخر ذهب فيه بعض الباحثين الى القول بأن التربية والبيئة الاجتماعية والظروف التي ينشأ فيها الانسان هي الأكثر تأثيراً في تكوين شخصية الإنسان من الوراثة . ومن الممكن القول ان أكثر الباحثين الآن يقفون موقفاً وسطاً بين هؤلاء وأولئك .

فقد اتضح الآن أن الشخصية هي حصيلة التفاعل بين مجموعتين من العوامل هما عوامل الوراثة من جهة وعوامل البيئة الإجتماعية والظروف التي ينشأ فيها الانسان من الجهة الأخرى .

ان الفرد عندما يولد يحمل معه صفات معينة ورثها من ابويه ، كشكل وجهه وبدنه ، وتكوين اجهزته العصبية والهرمونية ، وكفاءة اعضائه ، وقوة عضلاته ، وغيرها . وهذه الصفات تدخل في بودقة البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد ، كالبيت الذي يتربى فيه ، والأقران الذين يلـــعب معهم في طفولته ، والمجتمع المحلي الذي يتلقى القيم الاجتماعية منه ، والمهنة التي يكسب الرزق منها ، الخ .. وبهذا تتكون شخصية الفرد تدريجاً بمرور الزمن .

ان العوامل التي تدخل في تكوين شخصيات الأفراد لا يمكن ان تكون متشابهة ، ولا بد من ان يكون هناك شيء من الاختلاف بينها قليلاً او كثيراً . ولهذا فان من النادر جداً ان

نجد اثنين من البشر يتشابهان في جميع صفاتهما تشابهاً تاماً – على نحو ما أشرت اليه انفاً .

خد مثلاً توأمين متشابهين في جميع صفاتهما الوراثية ، ثم نشأا في بيت واحد ، ولكنهما مع ذلك لا يمكن ان يمرا معاً بتجارب واحداث متماثلة في طفولتهما وصباهما وشبابهما ، ولا بد من ان تكون هذه التجارب والأحداث مختلفة على وجه من الوجوه مما يؤدي الى شيء من الاختلاف في تكوين شخصيتهما .

يأتي أحد الباحثين بمثل واقعي على ذلك هو ان امرأة كانت تمشي على رصيف الشارع ومعها طفلاها التوأمان . فهي كانت تحمل احد الطفلين على إحدى يديها بينما كان الطفل الثاني يمشي معها على الرصيف وهي تقوده بيدها الأخرى . وشاءت المصادفة ان تقع حادثة قتل فظـــيعة خلف نافذة قريبة بحيث شاهدها الطفل المحمول بينما كان الطفل الآخر غافلاً عنها .

أن مشـــاهدة الحادثة الفظيعة لا بد من ان يكون لها اثرها في نفس الطفل الذي شاهدها ، بينما هي لم تؤثر على نفس الطفل الآخر . وهذا يمكن ان يعدا نموذجاً لما يجري في الحياة من تجارب واحداث مختلفة ومبلغ تأثيرها على الذي شاهدوها او شاركوا فيها . ان كل انسان لا بد من ان تمر به احداث وتجارب تختلف عما يمر بها الآخر ، فضلاً عما لدى كل انسان من صفات وراثية تجعل تأثير الأحداث والتجارب فيها مختلفاً عن تأثيرها في الآخر .

ان تعداد البشر الذين يعيشون على وجه هذه الأرض يزيد على الخمسة مليارات . ومما يلفت النظر ان كل واحد من هذه المليارات له شخصية خاصة به تميزه عن شخصية غيره . وهذا امر يجب ان نضعه امام ابصارنا عندما نريد التعايش مع الناس والتعامل معهم .

مشكلة بعضنا انهم يتعجبون او يمتعضون حين يرون غيرهم يختلفون عنهم في بعض مظاهر السلوك والتفكير . انهم لايدرون ان غيرهم قد يتعجبون منهم او يمتعضون كذلك . فكل انسان راض عن نفسه على نحو ما ورد في المثل العربي القديم . وقد جاء في الحديث النبوي قوله (ص) : « رحم الله امرءاً شغله عيبه عن النظر الى عيوب غيره » .

س : إسمح لي أن أعترض عليك . فان كلامك الذي قلته الآن يؤدي بنا الى نتيجة غير مقبولة عقلياً . ويبدو من كلامك ان شخصية الانسان مصنوعة بعوامل ارادة للانسان فيها ، ومعنى هذا ان الانسان مسير في أعماله لا مخير وان قوة الإرادة والدأب والمثابرة لا اثر لها في تقرير مصير الانسان او نجاحه في الحياة .

فما جوابك على هذا ؟

ج : إنّ قوة الارادة والمثابرة والدأب لها تأثيرها في تقرير مصير الانسان ولكن هذا التأثير له حدود يقف عندها . وقد أخطأ القدماء حين قالوا « كل من جد وجد » أو « كل من سار على الدرب وصل » أو « همم الرجال تزعزع الجبال » ..

ان الانسان الذي يريد أن يصل الى هدف له في الحياة يجب ان يعلم قبل كل شيء ان النــجاح في الوصول الى الهدف المنشود يحتاج الى قدرات نفسية وظروف اجتماعية تؤهله له ، وبغير هذه القدرات والظروف فان الجهد المبذول كثير ما يؤدي الى مردود عكسي .

خذْ مثلاً شخصاً يريد ان يكون عالماً مشهوراً وهو لا يملك الذكاء المناسب او الظروف الملائمة ، فهو مهما اجتهد وثابر ذهبت جهوده عبثاً ، وقد تؤدي به الجهود الى الاصابة بالعقد النفسية أو الجنون .

ان هذا الشخص يشبه ذلك الرجل النحيل الضعيف العضلات وهو يريد ان يكون مصارعاً يغلب الأقران ، أو الرجل الذي لا يملك الصوت الجميل وهو يريد ان يكون مغنياً مشهوراً .

أوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو المخترع المشهور أديسون الذي اخترع المصباح الكهربائي والحاكي والمخترعات الأخرى ، فهذا الرجل كان موهوباً بموهبة نفسية كبرى مكنته من الإختراع ، وهي موهبة لم يخلقها اديسون في نفسه بإرادته بل هي كانت مخلوقة فيه ، ثم اتاحت له الظروف ان ينمي تلك الموهبة فيه وان يدربها لكي تعطي ثمارها بعدئذٍ .

ليس في مقدور أي واحد منا أن يكون اديسون عن طريق بذل الجهود والدأب والمثابرة ، ويمكن ان نقول مثل هذا عن اي شخص يسعى نحو العظمة او الشهرة في أي مجال من مجالات الحياة . فان كل مجال في الحياة يحتاج الى موهبة أو قدرة تؤهل صاحبها الى النجاح فيه ، وبغير هذه القدرة فان بذل الجهد لا ينفع أو هو يضر بدلاً من ان ينفع .

س : المعروف عن اديسون هذا الذي ذكرته انه قال ان بذل الجهد والدأب هو السبب الأكبر في نجاح الانسان وتأتي الموهبة في الدرجة الثانية في ذلك ، وينسب اليه القول بأن الموهبة تمثل اثنين بالمئة في النجاح بينما الجهد يمثل ٩٨ بالمئة . فما قولك ؟

ج : مشكلة بعض اولى المواهب انهم لا يعرفون انهم موهوبون بها . فالذكي المفرط في ذكائه لا يدري انه مفرط في الذكاء ، وقد يتصور انه لا يختلف عن غيره في درجة ذكائه وقد ضاعت من جراء ذلك مواهب الكثيرين في زحام هذه الدنيا .

يبدو أن أديسون كان من هذا النمط ، أو انه كان متواضعاً لا يريد ان يتباهى بموهبته

على الناس . ونحن لو درسنا مسيرة هذا الرجل لوجدنا أن الموهبة كان لها اكبر الأثر في نجاحه العظيم .

ليس هنا مجال الاسهاب في ذكر سيرة هذا الرجل ، وقد يكفي ان اقول انه عندما أدخل الى المدرسة في طفولته لم يوفق فيها ، فبعد مرور ثلاثة اشهر من دخوله فيها كتب مدير المدرسة الى أمه يصف ابنها بأنه مصاب بالتخلف العقلي وقال عنه انه لا خير فيه . ولهذا فقد تقرر اخراجه من المدرسة . .

يمكن القول أنّ ذكاء اديسون في طفولته كان أرفع كثيراً من مستوى أقرانه من التلاميذ وربما كان أرفع من مستوى معلميه . وهذا هو الذي جعله لا يستطيع التكيف مع محيطه المدرسي . ويقال عنه انه كان محباً للإستطلاع الى درجة عجيبة غير مألوفة . فكان يسأل عن كل شيء يراه ويلح في سؤاله .

لو أن أديسون هذا كان قد ولد في قرية بدائية منعزلة لكان ذكاؤه المفرط شؤماً عليه ولظل طوال حياته لا خير فيه ثم مات أخيراً غير مأسوف عليه .

من حسن حظ هذا الرجل انه ولد في حضارة راقية من جهة ، وانه كانت له ام عاقلة مثقفة من الجهة الأخرى ، فقد تولت امه تعليمه بعد اخراجه من المدرسة ، ثم اتيح له بعد ذلك من الظروف والمصادفات ما جعله قادراً على استثمار موهبته الذكائية الخارقة حتى صار أخيراً أشهر مخترع في تاريخ البشر ، أو أعظم مخترع فيه .

خلاصة ما أريد قوله في هذا الصدد هي أن كل فرد من البشر ليس له يد في صنع شخصيته الا ضمن حد محدود . فهو صنيعة عوامل لا ارادة له فيها الا قليلاً ..

س : أريد ان أعترض عليك مرة اخرى . فان كلامك هذا يؤدي بنا الى الاستسلام للقدر حسب المبدأ القائل : « ما يصيبنا إلا نصيبنا » . وهذا المبدأ كان شعار المجتمعات القديمة المتخلفة بينما نحن الآن نتطلع نحو عصر النهضة والتقدم ، والرجاء منك أن تشرح لنا موقفك بوضوح .

ج : قلت أنفاً ان بذل الجهد والدأب والمثابرة لها تأثيرها في تقرير مصير الانسان ولكن هذا التأثير له حد يقف عنده . فان الذي يبذل الجهد في مجال لا قدرة له فيه أو موهبة لا بد ان يكون مصيره الفشل الذريع ، وكذلك الذي يبذل الجهد في ظروف غير ملائمة فهو يجب أن لا يتوقع لنفسه النجاح .

أن مبدأ « كل من جدّ وجد » خطأ ، ولكن المبدأ المناقض له أي مبدأ الاستسلام للقدر خطأ أيضاً ، أما المبدأ الصحيح فهو الذي يكون في الوسط بين هذين المبدأين المتناقضين .

ان المبدأ الأول كثيراً ما يؤدي الى ضياع الجهود وتحطيم الشخصية لأنه يجعل الانسان يسعى نحو هدف في الحياة هو فوق نطاق قدرته ، ان كل مجال او مهنة في الحياة في حاجة الى قدرة او موهبة تؤهله لها ، فالذي يطمح ان يكون عالماً مشهوراً مثلاً يجب ان تكون لديه درجة عالية من الذكاء ، وإلا فان جده وكدحه سيذهبان عبثاً ، وربما أدى به الى الإصابة بالعقدة النفسية أو الجنون ، وقد رأينا من أمثال هذا كثيرين مع الأسف الشديد .

أما المبدأ الثاني فهو قد يضر الانسان أيضاً من الجهة الأخرى ، إذْ هو يجعله يهمل نفسه وما لديه من مواهب وقدرات معتقداً ان الجدّ لا جدوى منه ، وهو بذلك يضر نفسه ومجتمعه .

ان السعي والدأب والمثابرة ضرورية للإنسان الذي يريد النجاح في الحياة ولكنها في الوقت نفسه مشروطة بما لدى الانسان من مواهب وقدرات .

يتنبأ العلماء بمجيء يوم يسير البشر فيه على الطريقة الوسطى بين ذينك المبدأين ، فالطفل عندما يشب عن الطوق يخضع للفحوص النفسية والبدنية المختلفة من أجل اكتشاف المواهب والقدرات التي يملكها ، ثم يوجه نحو المهنة التي هو مؤهل لها . وبذا ينتفع هو وينتفع مجتمعه معه .

س : إسمح لي ان أقاطع حديثك بسؤال خطر ببالي الآن وأخشى ان أنساه ، فإذا كان الطفل في المستقبل سوف يخضع للفحوص النفسية والبدنية من أجل اكتشاف مواهبه وقدراته فما هو مصير الطفل الذي لا يملك أية قدرة تؤهله لمهنة أو مجال في الحياة ؟

ج : ان النظام الاجتماعي الذي يتصوره العلماء للمستقبل يختلف كل الاختلاف عن هذه الأنظمة التي نعيش فيها .

فقد اعتاد الناس في هذه الأنظمة على احتقار الشخص الذي يخفق في حياته من جراء نقص في قدراته او مواهبه ، فهم يظنون أنه مسؤول عن اخفاقه ، وهم يوبخونه او يلومونه قائلين له : « لماذا لم تنجح كما نجح فلان ؟ ! » . وهذا يمكن اعتباره احد معالم الظلم الإجتماعي الشائع بيننا .

ان أكثر الفاشلين في الحياة ليسوا مسؤولين عن فشلهم . ويمكن ان نقول مثل ذلك عن أكثر الناجحين . فان المواهب والقدرات الموروثة لها أثرها في نجاح الانسان أو فشله ، وكذلك الظروف التي يعيش فيها الانسان ، والمصادفات التي تمر به ، إذ هي لها أثرها في نجاحه او فشله .

من الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الناجحين في حياتهم هم الذين نشروا مبدأ « مَنْ

جد وجد » بين الناس ، فهم يريدون ان يعلنوا للناس ان نجاحهم كان بسبب جدهم وحسن تدبيرهم ، وهم يحتقرون الفاشلين بحجة انهم كسالى لا همة لهم .

ان هذا الظلم الاجتماعي سوف يختفي ، أو هو لا بد أن يختفي ، من المجتمع في المستقبل . فكل فرد سوف يوجه منذ طفولته نحو المهنة التي هو مؤهل لها ، أما الذي لا موهبة له او قدرة فيوجه نحو الأعمال البسيطة التي تناسبه ، وفي الوقت نفسه ستوفر له جميع الحاجات التي توفر لغيره من غير تفريق ، إذ هو غير مسؤول عن عجزه او تقصيره .

س : ما رأيك في شخصية المجرم وهل هو غير مسؤول عن سلوكه الإجرامي ؟ وكيف يعامل في المستقبل ؟

ج : أن شخصية المجرم هي كغيرها من شخصيات البشر لا يد له في صنعها الا قليلاً .

لو درسنا المجرمين الذين تمتلىء بهم السجون لوجدنا أي واحد منهم هو في الغالب ضحية العوامل الوراثية والإجتماعية التي ابتلى بها . ولو أن أي واحد منا كان قد ورث الصفات نفسها التي ورثها المجرم من أبويه ، ثم عاش في الظروف نفسها التي عاش فيها ، لصار مجرماً مثله في أرجح الاحتمال .

أن الاحصاءات الحديثة تشير الى ان نسبة المجرمين في الأحياء الفقيرة من المدن هي أعلى من نسبتها في الأحياء الغنية ، وتلك ظاهرة اجتماعية من السهل فهم تعليلها . ففي الأحياء الفقيرة نجد الأطفال يلعبون في الأزقة دون رقابة من أهليهم في الغالب ، وهم ينشأون هناك على قيم الاستحواذ والتباهي بالغلبة والإعتداء . وهنا تلعب الوراثة دورها ، إذ أن بعض الأطفال أميل الى الاستحواذ والإعتداء بحكم الصفات الموروثة فيهم ، وهم سيتفوقون على أقرانهم في الأزقة وتكون لهم الرئاسة فيها ، وسوف يظلون يفعلون ذلك في كبرهم بحكم العادة التي إعتادوا عليها .

وهنا نقطة يجب أن لا ننساها في هذا الصدد ، هي ان القاء القبض على الذين يقترفون الجرائم لا يكون على درجة واحدة في جميع الناس ، فالفقراء هم عادة أكثر عرضه لإلقاء القبض عليهم من الأغنياء . وكثيراً ما ينجو أبناء الأغنياء من سطوة القانون تحت تأثير الرشوة او الوساطة او النفوذ أما أبناء الفقراء حين يقترفون جريمة فأن الحرص على تطبيق القانون وأمنه سيكون على أشده فيهم .

س : يمكن أن نستنتج من كلامك هذا أن العقوبة لا بد أن تلغى في المستقبل بإعتبار أن المجرم في سلوكه الإجرامي غير مسؤول وانه ليس من العدالة معاقبة إجرامه .

ج : قال أحـــد المختـــصين في علم الاجرام كلمة جديرة بالذكر في هذه المناسبة ، وهي : « أن معاقبة المجرم ظلم له ولكن في عدم معاقبته ظلم للمجتمع » .

الواقع ان معاقبة المجرم امر واجب لا بد منه من اجل سلامة المجتمع وأمنه ، فان عدم معاقبة المجرمين ، وتركهم يفعلون ما يشاؤون ، يؤدي الى شيوع الفوضى والاعتداء في المجتمع وهم لا بد ان يعاقبوا ، او يحجروا في اماكن خاصة بهم ، لكي لا يعم ضررهم بقية الناس .

وهنا ينبغي ان لا ننسى ان المجرمين عند حجرهم في اماكن خاصة بهم ، وهي التي نسميها السجون ، يجب ان توفر لهم فيها مختلف وسائل الترفيه والراحة . فان من الظلم تعذيبهم او تشديد العقوبة عليهم على نحو ما كانوا يلقونه في السجون قديماً .

حين نقرأ ما سجله المؤرخون عن أحوال السجون في اوربا في القرون الوسطى نجد عجباً من حيث فظاعة التعذيب الذي كان السجناء يعانونه في سجونهم . فقد كان المبدأ السائد لدى الحكومات حينذاك هو وجوب الانتقام من المجرم باعتباره المسؤول الاول عن إجرامه . وهذا يناقض المبدأ السائد الآن – كما أشرت اليه أنفاً .

من عالم الظلم الإجتماعي في مجتمعنا

س : ما معنى الظلم الإجتماعي وما هو معالمه في حياتنا الإجتماعية ؟

ج : ان الظلم الذي يقع بين البشر أنواع شتى كالظلم السياسي والظلم الاقتصادي والظلم الطبقي والظلم الطائفي والظلم الشخصي . وقد كثر الحديث قديماً وحديثاً عن الظلم وأنواعه ، ولكن هناك نوعاً من الظلم غفل الناس عنه فلم يتحدثوا عنه أو هم لم يكونوا يعرفون أنه ظلم ، وهو الذي نسميه الظلم الاجتماعي .

أعني بالظلم الاجتماعي انه الظلم الذي يقع بين الناس من جراء بعض المعتقدات أو القيم والتقاليد أو المفاهيم الشائعة بينهم والتي تجعلهم يظلمون بعضهم البعض بدون أدراك منهم انهم يظلمون ، ويقع المظلوم ضحية بينهم دون ان يكون له أي ذنب يستوجب ظلمه .

رأينا نموذجاً للظلم الاجتماعي عند الحديث عن علم الفراسة القديم . فمن جملة مفاهيم هذا العلم أن جمال الوجه يدل على حسن الخلق في الانسان كما أن دمامة الوجه تدل على سوء الخلق فيه . وقد صدق الكثيرون من الناس بهذا المفهوم المغلوط فصاروا يعاملون الدميم باعتبار انه سيء الخلق بطبيعته ، وهو قد يصبح سيء الخلق فعلاً من جراء معاملة الناس له . ويا ليت شعري أي ذنب جناه هذا المسكين لكي يلقى مثل هذه المعاملة الظالمة ؟!

ان كثيراً من أمثالنا الدارجة تحتوي على شيء من الظلم الاجتماعي أذكر منها اثنين حسبما يخطر ببالي الان منها هما :

١ ـ اذا شفت الاعمى كبه ، انت مو أشفق عليه من ربه .

٢ ـ الله يعرف السلاية ويسود رأسها .

فقد كان الناس يعتقدون ان الله حين يبتلي أحدا بعاهة أو نقص في الخلقة انما يفعل ذلك عن حكمة ، لان الشخص المبتلي يستحق ذلك لسوء خلقه أو لؤم طبعه أو بسبب ذنب فظيع قام به تجاه غيره .

القيم العشائرية

يمكن القول بوجه عام ان كثيرا من القيم العشائرية التي كانت سائدة بيننا في العهد العثماني ، والتي مازالت أثارها باقية فينا حتى الان ، تحتوي الكثير من الظلم الاجتماعي .

خذ مثلا عادة الثأر وغسل العار والاهتمام المفرط بالانساب . فهذه القيم تؤدي الى

سقوط كثير من الضحايا دون يكون لهم ذنب قاموا به بأنفسهم . ويجب أن لا ننسى أن هذه القيم كان الاسلام قد نهى عنها نهيا قاطعا ووصفها بأنها من أخلاق الجاهلية .

يروي ان رجلا شتم اخر بحضور النبي (ص) . اذ قال له يا بن السوداء . فزجره النبي وقال له : انك امرء فيك جاهلية . ومن الجدير بالذكر أن قيم الجاهلية تقدر الفرد ليس فقط كما هو في حد ذاته بل هي تقدره ايضا بما كان لابيه وامه وقبيلته من صفات حسنة أو قبيحة . وجاء الاسلام فجعل الانسان مسؤولا عن نفسه وما يفعل هو فلا يضره أو ينفعه ما فعل غيره . وهذا هو من معالم الثورة الاجتماعية التي قام بها الاسلام في زمانه .

هناك أية وردت في القرآن خمس مرات وهي : ولا تزر وازرة وزر أخرى ومعناها ان الفرد لا يجوز أن يؤخذ بجريرة غيره . ويبدو أن القران انما كرر ذكر هذه الاية لكي يحذر الناس من مخالفتها كما اعتادوا عليها في زمانه .

ومن المؤسف أن أقول ان عادات الجاهلية التي كانت مستفحلة بين الناس قبل ظهور الاسلام عادت فاستفحلت مرة أخرى بيننا في العهد العثماني . واني مازالت أتذكر ما كان الناس عليه في ذلك العهد ، وقد أدركت بقاياه في طفولتي ، فقد كان الفرد حينذاك تقاس قيمته في الغالب بما كان لديه من انتماء عائلي أو قبلي أكثر مما تقاس بما لديه من صفات خاصة به .

ان من يدرس الشتائم والمنابزات التي كانت متداولة بين العوام في العهد العثماني ، ومازالت بقاياها موجودة حتى الان ، يجدها في معظمها لا تشتم الفرد بما فيه من صفة مذمومة بل هي تشتم أباه أو أمه أو أخاه أو أخته أو أسرته أو عشيرته ، فيقال له :ابن الكذا و أخ الكذا و عشيرة الكذا الخ ...

ومن الطريف أن نذكر في هذه المناسبة ان الفرد في ذلك العهد لم يكن يشتم بصفة ذميمة فيه الا اذا كان مفعولاً به جنسيا ، فهذه الصفة تعد من أبشع الصفات الذميمة التي يوصف بها رجل ، أما الصفات الذميمة الاخرى كالكذب أو الغش أو الاعتداء أو السرقة أو الفعل الجنسي الشاذ اذا كان ايجابيا ، فهي لا يشتم بها الفرد عادة ، وهو قد يفتخر بها في بعض الاحيان .

العصبية القبلية

كانت العصبية القبلية قوام الحياة الاجتماعية في أيام الجاهلية ، ولم يكن للسلطة الحكومية أي دور فيها . ولهذا كان الفرد لا يستطيع صيانة نفسه وعرضه وماله الا بالانتماء الى قبيلة تحميه . فكان الناس اذا أرادو التعرف على شـــخص تساءلوا عنه من أية قبيلة هو وما

هو نسبه .

وجاء الاسلام فالغى العصبية القبلية وجعل محلها طاعة ولي الامر ، ومن هنا جاءت الاية الكريمة : و اطيعوا الله ورسوله وأولى الامر منكم . ومعنى هذا أن السلطة الحكومية حلت في الاسلام محل الرئاسة القبلية . ومن الاحاديث المأثورة عن النبي (ص) قوله : من قاتل تحت راية عصبة بغضب العصبية أو يدعو لعصبية أو ينصر عصبية فقتل قتل قتلة جاهلية .

وحين ندرس المجتمع العراقي في العهد العثماني نجد العصبية القبلية استفحلت فيه على نحو ما استفلحت قيم الجاهلية الاخرى . فقد كانت السلطة الحكومية حينذاك ضعيفة ومتفسخة ، وكان الفرد لا يستطيع أن يحمي نفسه وعرضه وماله الا بالانتماء الى أسرة أو عشيرة تحميه . وبهذا انتشرت بين الناس قيم الاهتمام بالنسب والاخذ بالثأر وغسل العار والدخالة والتسيار والنخوة وتقدير النهب والغزو وما أشبه . هي كلها لا تخلو من شيء من الظلم الاجتماعي قليلا أو كثيراً .

نذكر حادثة حدثت في الثلاثينيات في محلة الانباريين في الكاظمية ، فقد قتل أحد أبناء المحلة بيد رجل ينتمي الى قبيلة تسكن بالقرب من الكاظمية ، فأسرع أحد أقرباء القتيل يريد الاخذ بثأر قريبه ، واقتحم مقهى كان يجلس فيه رجل من قبيلة القاتل فأرداه قتيلا دون أن يكون لهذا الرجل أي ضلع بحادثة القتل الاولى . فهو قد نال عقوبة عمل قام بها غيره . والواقع ان هذه الحادثة لم تكن نادرة في تلك الايام بل هي كانت كثيرة الحدوث ولا سيما في الارياف .

حول القيم العشائرية

أرجو ان يعلم القارىء اني حين أذكر مساوىء القيم التي كانت سائدة في مجتمعنا في العهد العثماني ، والتي مازالت بقاياها موجودة فيه حتى الان ، لا يعني ذلك اني أقصد ذم هذا المجتمع . فالواقع ان كل مجتمع في هذه الدنيا لا يخلو من عيوب ومساوىء خاصة به . ومن واجـب الباحث الاجتماعي أن يبحث في تلك المساوىء من أجل معالجتها أو محاولة اصلاحها .

يؤسفني أن أقول أن العقلية الشعرية المسيطرة على اذهان بعض متعلمينا قد أضرت بنا كثيرا . فمن طبيعة العقلية الشعرية انها تقف موقفا جدّياً تجاه المجتمعات أو الافراد . فالمجتمع أو الفرد في نظر تلك العقلية اما أن يكون حسناً كله أو قبيحاً كله ، ولا توسط بين الحسن والقبيح فيه . ولهذا كان الشعراء قديما اذا مدحوا شخصا صعدوا به الى عنان السماء ، واذا ذموه هبطوا به الى أسفل الدركات . وكانوا يفعلون مثل ذلك تجاه الاقوام أو الطوائف أو القبائل . وقد انتقلت عدوى هذه العقلية الى الكتاب والمؤلفين . اذ هم صاروا كالشعراء أما مفرطين في المدح أو مفرطين في الذم .

ولا حاجة بنا الى القول أن هذا المنهج الشعري لا يلائم المنهج العلمي الحديث . فالعلم الحديث لم يتقدم هذا التقدم العظيم الذي نراه الا بعد ما تخلص من التحيز العاطفي وأخذ ينظر الى الامور نظرة موضوعية حيادية .

يجب أن لا ننسى اننا نعيش في عصر بلغ تنازع البقاء فيه اقصاه ولا ينجح في هذا التنازع الا من تسلح بسلاح العلم والتقنية . فقد ذهب زمن السيف والحماس وحل محله زمان العلم والنظر الموضوعي .

عادات الجاهلية

ان الرأي الذي أخذت به سابقاً ، ومازلت آخذ به ، هو ان كثيرا من القيم العشائرية التي سادت في مجتمعنا في العهد العثماني هي من عادات الجاهلية التي حاربها الاسلام ، وهي في الوقت نفسه تعرقل علينا طريق الحضارة . وهذا أمر يجب أن نضعه أمام أبصارنا دائماً في هذه المرحلة المتأزمة التي نعيش فيها ، فان اغفالنا لهذا الامر يؤدي بنا الى الوقوع في اخطاء مهلكة .

ان القيم العشائرية هي في الواقع تدور حول العصبية القبلية التي كانت تصور الحياة

الاجتماعية في أيام الجاهلية والتي بذل الاسلام كثيرا من جهوده للقضـاء عليها .

جاء أحد الصحابة الى النبي (ص) يسأله قائلاً : يا رسول أمن العصبية ان يحب الرجل قومه ؟ فأجاب النبي لا ، ولكن من الـعصبية ان ينصر الرجل قومه على الظلم .

وهناك حديث نبوي اخر يشبه هذا الحديث في مضمونه الاجتماعي . فقد ذكر النبي ذات مرة المبدأ الذي كان أهل الجاهلية يتبعونه في نزاعهم ا القبلي وهو قولهـم :

« انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فكان جواب النبي : اذا كان أخوك ظالماً فأردعه عن ظلمه ففي ذلك نصره .

في هذا يتبين أحد معالم الثورة الاجتماعية التي قام بها الاسلام تجاه القيم الظالمة التي كانت سائدة في زمانه . فقد اعتاد الناس في أيام الجاهلية انهم اذا استنجد بهم أحد من أبناء قبيلتهم في نزاع له مع قبيلة اخرى هبوا لنصرته من غير أن يسألوه عن السبب في نزاعه وهل هو محق فيه أم لا . وهذا هو ما عبر عنه الشعر الجاهلي في بيت له يمدح أبناء قبيلته حيث وصفهم قائلاً :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

ويجب أن لا ننسى ان هذا الذي اعتاد الناس عليه في أيام الجاهلية استفحل مرة أخرى في العراق في العهد العثماني . فقد يحصل نزاع بين اثنين ، ويستنجد كل منهما بأقاربه صارخاً فيهم : وينكم يا نشامى ! فالاقارب يرون أن من العار عليهم ان لا يستجيبوا لصرخة قريبهم ، وبذا قد تنشب معركة دامية يسقط فيها عدد من القتلى والجرحى .

ان هذا هو ما كان يحصل في الريف بين العشائر ، أو في المدن بين المحلات ، أو بين أهل المدن حين يجتمعون في موسم عام لهم . واني ما أزال أتذكر المعركة الدامية التي حدثت في كربلاء في موسم زيارة الاربعين في عام ١٩٢٩ . فقد نشبت المعركة بين أهل الكاظمية واهل النجف بسبب شجار حدث بين اثنين احدهما كاظمي والاخر نجفي . ورأيت أهل الكاظمية يفتخرون بما فعلوا ويلوحون بأيديهم حماسا وتحديا .

الاهتمام بالنسب

كانت الشعوب في أيام الجاهلية أكثر الامم اهتماما بالانساب وقد ظهر بينهم افراد مختصون بعلم الانساب . وهذا أمر ليس من الصعب تعليله اجتماعيا . فالعصبية القبلية والاهتمام بالنسب امران مترادفان لا ينفك احدهما عن الاخر . فقد كان الفرد لا تقاس قيمته بما لديه من صفات خاصة به فقط بل كانت قيمته تقاس ايضاً بنسبه أي بالقبيلة التي ينتمي

اليها وبمكانة أبائه فيها .

وجاء الاسلام فجعل قيمة الفرد مستمدة مما يفعل هو ولا يضره أو ينفعه ما فعل اباؤه أو فعلت قبيلته . ومن هنا جاء المبدأ القرآني القائل : ولا تزر وازرة وزر اخرى .

وقد ورد عن النبي في هذا الشأن حديث مأثور وهو قوله : ان الله أذَهَب عنكم نخوة الجاهلية وفخارها بالاباء .

لكي نأخذ صورة واضحة عن نظرة الاسلام الى الفرد باعتباره هو وليس باعتبار نسبه نذكر قصة زياد بن سيمة . فالمعروف عن هذا الرجل ان امه كانت مومسا ، وكان هو ولدا غير شرعي لها ، أي انه كان نغلا حسب الاصطلاح المستعمل في العراق . ولكن هذه الصفة فيه لم تمنعه من أن يتولى المناصب العالية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وفي عهد الخليفة علي بن ابي طالب ، فقد كان الناس يعاملون زيادا كما يعاملون غيره بغض النظر عن نسبه لانه غير مسؤول عما فعلته أمه بل هو مسؤول عما يفعله هو بالذات . ومن الظلم ان يحاسب انسان على ما فعله غيره .

لنفرض ان زيادا كان قد نشأ في مجتمع كثير الاهتمام بالنسب ، كما كان الحال عليه في أيام الجاهلية أو في العراق في العهد العثماني . ماذا سيكون مصيره ؟ أرجح الظن أنه يكون محتقرا طيلة حياته الا اذا كان شقيا قويا أو ذا نفوذ وسلطة فالناس عندئذ سيحترمونه ظاهرا ويضمرون له الاحتقار الشديد باطنا .

الخلاصة

خلاصة ما أريد قوله في هذا الصدد ان مبدأ الفردية هو المبدأ السائد في الحضارة الحديثة ، كما انه كان المبدأ الذي دعا اليه الاسلام عند ظهوره ، ومعناه أن قيمة الفرد تقاس بما يفعله هو وليس بما فعله أبوه . وهذا هو ما عبر عنه الشعر المتحضر حين قال :

ان الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

ان السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد : هل نحن سائرون نحو تحقيق هذا المبدأ الذي تقوم عليه الحضارة الحديثة والذي دعا اليه الاسلام قبل أربعة عشر قرنا ؟ !

أريد الجواب من القراء .

حول الظلم الاجتماعي .. مرة أخرى

كان الظلم الاجتماعي كما ذكرته سابقا ينتج عن بعض القيم والمعتقدات والمفاهيم السائدة في المجتمع والتي تجعل الناس يظلمون بعضهم بعضا بدون ادراك منهم انهم ظالمون ويقع المظلوم بينهم ضحية بدون أن يكون له ذنب يجعله مستحقا لما يعانيه منهم . وقد ذكرت سابقا ثلاثة من معالم الظلم الاجتماعي كانت شائعة في مجتمعنا في العهد العثماني ومازالت اثارها باقية فينا حتى الان . وهي كما يلي :

(١) الظلم الناشيء عن القيم العشائرية كعادة الثأر مثلا حيث يقتل انسان لا بسبب جريمة قام بها بنفسه بل بسبب جريمة قام بها أحد أفراد اسرته أو عشيرته .

(٢) كان بعض الناس يحتقرون الدميم أو المصاب بعاهة أو عوق في بدنه اعتقادا منهم أنه مستحق لذلك لما لديه من طبع لئيم أو أخلاق واطئة . فهم يسيئون معاملته لا لذنب جناه بل بسبب ما جناه عليه القدر .

(٣) ان الاهتمام المفرط بالانساب ادى الى الكثير من الظلم الاجتماعي . فالناس يحتقرون صاحب النسب الوضيع مع علمهم انه غير مسؤول عما فعله اباؤه أو أقرباؤه . وهم كذلك يحترمون صاحب النسب الرفيع مع علمهم انه لم يقم بأي عمل يستحق به الاحترام .

معالم أخرى :

ان هذه المعالم الثلاث التي ذكرتها هي قليل من كثير من معالم الظلم الاجتماعي الموجود في مجتمعنا . وهنا يجب أن أذكر أن الظلم الاجتماعي لا ينحصر وجوده في مجتمعنا وحده بل هو موجود في جميع مجتمعات العالم بشكل أو اخر . واني حين أذكر معالم هذا الظلم في مجتمعنا اقصد تنبيه الاذهان اليها عسى أن ينفع ذلك في تخفيف الظلم عن المظلومين ـ قل ان شاء الله !

ان من بين معالم الظلم الاجتماعي في مجتمعنا هو ما اعتاد الناس عليه من نظرة الاحتقار الى بعض الحرف الشعبية كالحياكة والبقالة وتعليم الاطفال وما أشبه . ومازلت أحفظ بيتين من الشعر كانا شائعين بين الناس في العشرينيات ، وهما كما يلي :

ان الرقاعة فصلت في ستة

في حائك ومنجم وسكافي

ومعلم الاطفال يقضي بينهم وكذلك الحلاق والنداف ومن يدرس الكتب القديمة يجدها مملوءة بمثل هذه الاقاويل في احتقار الحرف الشعبية . ومما يلفت النظر ان بعض الكتب الدينية المقصود بها ارشاد الناس لا تخلو من ذلك . فقد قرأت منذ عهد قريب في أحد هذه الكتب ثلاثة عبارات في هذا الموضوع انقلها للقارىء هنا بنصها وهي :

(١) ان الله تعالى سلب عن الحوكة عقولهم .

(٢) أن ولد الحائك لا ينجب الى سبعة ابطن .

(٣) ان عقل أربعين معلماً يساوي عقل حائك وعقل أربعين حائكاً يساوي عقل امرأة والمرأة لا عقل لها .

تعليل اجتماعي :

يمكن القول بوجه عام ان نظرة الاحتقار الى الحرف الشعبية لم تنشأ عن فراغ ، فهي في الغالب نشأت عن نظرة المترفين الى من دونهم من الفقراء والمساكين . فالحرف الشعبية لم يكن يحترفها عادة غير هؤلاء الذين اخنى عليهم الدهر . فهم محتقرون من قبل ابناء الطبقة المترفة ، ثم يأتي الكتاب والشعراء والمؤلفون بعد ذلك ليؤيدوا ذلك الاحتقار بأدلتهم النقلية والعقلية كما هو ديدنهم في مثل هذه الامور .

وهناك ناحية اخرى جديرة بالذكر في هذا الصدد ، هي أن احتقار الحرف الشعبية في مجتمعنا له سبب اخر بالاضافة الى سبب المترفين ، وهو القيم البدوية .

يجب ان لا ننسى ان البدو بحكم الظروف التي عاشوا فيها على توالي الاجيال قد اعتادوا على كسب الرزق بحد السيف ، وهم لذلك يحتقرون كل رجل يكسب رزقه بكد يمينه وعرق جبينه . فهذا الرجل في نظرهم لم تكتمل فيه شروط الرجولة وهو أشبه بالمرأة منه بالرجل . ومن هنا جاء احتقارهم لجميع الحرف اليدوية وخاصة الحياكة والبقالة والحدادة وما أشبه .

وقد انتقلت هذه القيم الى العراق في فترة الانحطاط الحضاري التي حلت به عقب سقوط الدولة العباسية على ايدي المغول ، وكان لها اثرها الواضح في الريف منه حيث كان الحائك والبقال والصانع أي الحداد والمعيدي الذي يربي الجاموس من أوطأ الناس في مكانتهم الاجتماعية فيه .

كان من الامثال الدارجة في الريف العراقي قولهم في وصف الرجل الضعيف بانه كالحائك عمره ما قتل فأرة . ويروي المرحوم الدكتور شاكر مصطفى سليم انه سأل احد الريفيين عن سبب احتقارهم للحائك فأجابه الريفي قائلاً : الحاكة مغموزون في نسبهم ،

ويكذبون كثيرا ، وهم ناقصو الذمة ، فقد سرقوا اقراط الحسين وشهدوا على مريم عندما ولدت عيسى ، وفعلوا أمورا مكروهة حفظها التاريخ .

واني أذكر اني ذهبت مع مجموعة من طلاب كلية الاداب في عام ١٩٥٨ الى منطقة وراء السدة الشرقية كانت تسكنها جماعة من الريفيين المهاجرين الى بغداد ، فشهدنا رجلا يحمل في يده كمية من الخضار وهو ينادي عليها ماشيا بين البيوت من أجل بيعها . فخاطبه رجل آخر منهم وشتمه قائلا له ما معناه : انك صرت بقالا فمن هو الذي سوف يتزوج بناتك فرد المشتوم على الشاتم بقوله ان البقال أفضل من الفراش . فرد المشتوم بذلك الى أن الشاتم فراش في احدى دوائر الحكومة . وقد رد هذا الفراش عليه قائلاً ما معناه ان الفراش حكومة اما البقال فهو حقير .

ضرر حضاري :

لا حاجة بي الى القول ان نظرة الاحتقار هذه الى الحرف الشعبية لا تزال تلعب دورها في أعماق الكثيرين منا حتى في المدن . ويمكن ان نعزو اليها هذا الميل العام الموجود لدى أبناء الجيل الجديد منا نحو اتخاذ مهنة الموظف الحكومي ، أو مهنة الاستاذ والمثقف والاديب ، بدلا من مهنة الصانع الماهر .

ان الحرف الشعبية صارت الان تعطي أصحابها دخلا هو اضعاف ما تعطيه مهنة الافندي ، ولكن الناس مازالو يفضلون ان يكون ابناؤهم افندية يشار اليهم بالبنان بدلا من أن يكونوا كسبة من أصحاب الحرف اليدوية .

ان مجتمعنا قد امتلأ الى حد التخمة بالافندية الذين يتحدثون في الطوبائيات والمثاليات والوعظيات ، أو في الشعر ونقد الشعر ونقد النقد ، بيما نحن في اشد الحاجة الى عمال ماهرين في مجال اصلاح السيارات أو غيرها . فالى متى ؟!!!

ان الدنيا تغيرت بسرعة هائلة ولكن قيمنا تسير في تغيرها ببطء شديد .

مأزق المرأة العراقية

س : لك آراء في شؤون المرأة العراقية الى أي مدىً تجد المجال مفتوحاً لأن تأخذ المرأة دورها في المجتمع العراقي ؟

ج : خلاصة رأيي في المرأة العراقية انها تعاني قسطا كبيرا من التناشز الاجتماعي . والواقع ان الرجل يعاني من هذا التناشز ايضا ، ولكنها تعاني منه القسط الاكبر بحكم ظروفها والقيم المحيطة بها .

يجب أن لا ننسى ان التناشز الاجتماعي ظاهرة عامة تظهر في كل مجتمع يمر بمرحلة تغير فان بعض الجوانب من المجتمع تتغير بسرعة بينما الجوانب الاخرى تتغير ببطء ، وهذا الفرق في سرعة التغير يؤدي الى ظهور مشاكل اجتماعية مختلفة تعاني منها كل فئات المجتمع على درجات متفاوتة .

الواقع ان المجتمع العراقي مر في الفترةِ التي أعقبت الحرب العالمية الاولى بمرحلة تغير سـريع قلما نجد لها مثيلا في المجتمعات الاخرى . وهذه الفترة مازالت مستمرة حتى يومنا هذا . واني لحسن حظي أو سوء حظي عايشت تلك الفترة وذقت من حسناتها وسيئاتها الشيء الكثير .

كتبت ذات يوم في احدى الصحف قبل سنوات مقالا بعنوان « من على ظهور الحمير الى الجمبو » حيث ذكرت فيه كيف اني سافرت في طفولتي مع أهلي من بلدة الى اخرى على ظهور الحمير ، ثم أتيح لي اخيرا ان أسافر بطائرة الجمبو الضخمة ، ومن يدري فربما اتيح لي قبل موتي ان أركب طائرة الكونكورد التي هي أسرع من الصوت .

كان القصد من مقالي ذاك ان أشرح كيف تحول المجتمع العراقي في خلال ثمانين عاما من مجتمع راكد منعزل يسافر الناس فيه على ظهور الدواب الى مجتمع مفتوح تسوده مظاهر الحضارة ووسائلها المختلفة .

وهنا يجب أن نذكر ان هذا التغير العجيب لم يجر على وتيرة أو درجة واحدة في جميع جوانب المجتمع . فوسائل السفر قد تغيرت تغيرا كبيرا جدا ، وكذلك تغيرت المساكن والمظاهر والمهن ووسائل الاتصال والاعلام ، ولكن هناك جانبا من المجتمع لم يتغير بمثل تلك الدرجة هو الذي أسميه التراثية وأعني به المعتقدات والقيم والتقاليد . وقد حصلت من جراء هذا التفاوت في التغير مشاكل اجتماعية أو أزمات غير قليلة .

من طبيعة التراثية التي ينشأ عليها الناس منذ طفولتهم انها تقاوم التغير . فالناس قد

اعتادوا عليها ووجدوا عليها اباءهم على نحو ما وصفه القران ، وهم لذلك يتمسكون بها ويتعصبون لها تعصباً أعمى .

واني لا أزال أتذكر الصعوبة التي عانيتها شخصيا في عام ١٩٣٢ عندما ابدلت ملابسي القديمة بالملابس الحديثة . فقد كانت الملابس في نظر الناس حينذاك تدل على التمسك بالدين وعدم تقليد الكفار . وقد سمعت من أفواه الناس عند تبديل ملابسي بعض عبارات التقريع والتوبيخ ، ووصفتني احدى العجائز باني من الذين باعوا دينهم بدنانيرهم .

مشكلة المرأة

وهنا نأتي الى مشكلة المرأة العراقية . أو مأزقها . ففي خلال الثمانين سنة الماضية تغير وضع المرأة تغيراً كبيراً جداً من حيث تعلمها وسفورها وخروجها من البيت ودخولها الوظائف الحكومية وبعض المهن الاخرى . هذا ولكن القيم والتقاليد المحيطة بالمرأة لم تتغير بمثل تلك الدرجة ، وربما صح القول ان بعض تلك القيم والتقاليد بقي على حالة لم يتغير .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في العراق في الماضي من حيث سلوك المرأة وسمعتها كانت من أكثر القيم تزمتا وتشددا في العالم كله ، وكانت حوادث غسل العار أكثر انتشاراً في العراق مما في غيره من أقطار العالم . وقد ظلت هذه القيم مؤثرة في المجتمع العراقي حتى الان وان كانت تسير في طريق التضاؤل تدريجيا بمرورالزمن .

ان المرأة العراقية واقعة الان في كماشة التناشز الاجتماعي ، فهي بعد أن تعلمت وخرجت من البيت صارت تطمح أن تكون كالمرأة الاوروبية في جمع معالم حياتها ، ولكن القيم الاجتماعية المحيطة بها تمنعها من ذلك . انها واقعة في مأزق بين تيارين متناقضين : تيار الحضارة الحديثة الذي يدفع بها الى الأمام من جهة وتيار القيم القديمة الذي يسحبها نحو الخلف من الجهة الاخرى . وما أكثر الضحايا من النساء اللواتي سقطن من جراء هذا الصراع بين التيارين .

شاهد المارة في شارع الرشيد قبل سنوات معدودة رجلاً يهوى بالخنجر على بنت له بغية قتلها وهي تستصرخ الناس قائلة بانها تزوجت على سنة الله ورسوله ، ولكن أباها يريد قتلها لانها تزوجت بغير اذنه خلافا للعرف العشائري وأصبحت بذلك عاراً على العشيرة يجب غسله .

أن عادة قتل المرأة من أجل غسل العار بدأت تضعف في العراق بمرور الزمن ، ولكن

الشعور بالعار مازال باقيا ، ومازال الناس ينظرون الى المرأة التي تخرج على القيم الموروثة نظرة احتقار شديد . وبهذا أصبح الرجل العراقي مضطراً أن يسلك تجاه المرأة سلوكاً مزدوجاً ، فهو يتخذ معها دور دون جوان تارة ودور الحاج عليوي تارة اخرى .

ان الرجل يشتهي ان يعامل المرأة على نحو ما يعامل الرجل الاوروبي المرأة ، فهو يتبسم لها ويحادثها ، وقد يحاول مغازلتها ، انما هو لا يكاد يراها قد استجابت لاغرائه حتى يضمر لها الاحتقار باعتبارها إمرأة غير شريفة وهو عندما يريد الزواج أخيرا ينسى تلك المرأة التي حاول اغراءها أو مغازلتها ويلجأ الى الخطبة على طريقة الاباء والاجداد حيث يبحث عن زوجة لا تعرف الغرام والهيام .

ظاهرة التحرش بالنساء :

ان ظاهرة التحرش بالنساء اصبحت واسعة الانتشار في مجتمعنا في المرحلة الراهنة . وقد حاول دراستها عدد غير قليل من الكتاب في الصحف ، كما عقدت مديرية الشرطة العامة في عام ١٩٨٩ ندوة للمناقشة فيها وحاولت ايجاد حل لها حضرها وزير الداخلية في حينه .

في رأيي أن هذه الظاهرة المقيتة هي احدى نتائج التناشز الاجتماعي الذي تعاني منه المرأة العراقية في الوقت الحاضر .

ان الرجل في الماضي لم يكن قادراً على التحرش بالمرأة الا في حالات محدودة منها ما يسمى الكسلات ففي الكسلات تتجمع النساء حول بعض القبور المقدسة ويأخذ بعض الرجال بالتمشي على مقربة منهن بغية التحرش بشكل غير مباشر . ولكن هذه لم تكن ظاهرة عامة بل هي كانت تقتصر على فئة معينة من الرجال وكان أكثر الناس ينظرون الى تلك الفئة بعين الاستصغار أو الاحتقار .

وكان الحجاب الشديد مسيطراً على المرأة في المدن ، ولهذا كان من الصعب على الرجل أن يتحرش بها وهي تمشي في الشارع . أما الان بعد ان انتشر التبرج والتزين بين نساء المدن فقد وجد الرجل فرصته التي كان ينتظرها منذ زمان طويل .

ان ظاهرة التحرش بالنساء غير موجودة ، أو هي قليلة جداً ، في المجتمعات المتقدمة التي اعتادت على الاختلاط بين الجنسين . فالرجل هناك لا يجد حاجة للتحرش بالمرأة لانه اعتاد ان يخالطها منذ صباه في المدرسة ، ويرافقها في السفرات ، ويتعاطى الغرام معها علنا دون أن يوبخه أحد أو يردعه .

اما في مجتمعنا فالرجل قد ورث من الماضي قيمه المتشددة وجوعه الجنسي ، وهو في

الوقت نفسه يرى المرأة تتغنج امامه في الشارع وهي في أجمل زينتها وتبرجها . فكيف نريد منه أن يضبط أعصابه ؟!!

ان الرجل العراقي ، كما أشرت اليه انفا ، يجمع في نفسه دور دون جوان ودور الحاج عليوى . فهو يحمل في أعماقه شخصية الحاج عليوى ولكنه محاط بظروف تجعله يندفع نحو المرأة مثل دون جوان .

س : قلت ان المرأة العراقية هي الآن في مأزق من جراء التناشز الاجتماعي الذي تمر به . فهي تغيرت كثيرا من حيث التعليم والمهنة والسفور وغيرها بينما التقاليد الاجتماعية المحيطة بها لم يحصل فيها مثل هذا التغير الكبير . فالرجاء ان تذكر لنا متى سوف ينتهي هذا المأزق الذي تعاني منه المرأة العراقية ؟!

ج : في رأيي أن هذا المأزق سوف يشتد في المستقبل القريب ولكنه لابد أن يتضاءل ثم ينتهي بمرور الزمن . ان التقاليد الاجتماعية التي تخص المرأة العراقية قد تغيرت الان عما كانت عليه في الماضي ، وهي تسير في طريق التغير أكثر فأكثر بمرور الايام . فان القيم الحضارية الحديثة لابد أن تنتصر في نهاية المطاف ، شئنا أم أبينا .

وهنا يجب أن لا ننسى ان هذا التغير الذي حصل في المرأة كان في أوضح صورة في بغداد وفي المدن الكبيرة الاخرى في العراق . أما في الريف وفي القرى والبلدان الصغيرة فان المرأة فيها مازالت تعيش في نفس المرحلة التي عاشتها المرأة البغدادية في الفترة الماضية ، وهي سوف تواجه نفس المأزق التي واجهته المرأة البغدادية قبلها .

س : هل في رأيك ان المرأة العراقية كانت في العهد العثماني ـ أي قبل مجيء الحضارة الحديثة الى العراق ـ لا تعاني من المأزق التي صارت تعاني منه المرأة العراقية الحديثة ؟

ج : ان وضع المرأة العراقية في العهد العثماني لم يكن على نمط واحد بل هو كان على أنماط ثلاثة تبعاً لتنوع الاوضاع الاجتماعية التي كان سكان العراق يعيشون فيها حينذاك .

كان سكان العراق في العهد العثماني ثلاث فئات هم البدو والريفيون وأهل المدن . وقد أجرى احد الباحثين تقديرات تقريبية لنسبة السكان في هذه الفئات الثلاث في منتصف القرن التاسع عشر فوجدها على النسب التالية :

(١) ٣٥ بالمئة من سكان العراق بدو خلص

(٢) ٤١ بالمئة من سكان العراق ريفيون

(٣) ٢٤ بالمئة من سكان العراق أهل مدن .

ويمكن القول ان المرأة في كل من هذه الفئات الثلاث كان لها وضعها الخاص ومشاكلها الخاصة . وقد يكفي لتوضيح ذلك ان ننظر في عادة قتل المرأة غسلا للعار وبمنع

انتشارها في كل من تلك الفئات .

ان قتل المرأة غسلا للعار قليل الحدوث في القبائل البدوية ، أو هو نادر فيها . فان ظروف الحياة البدوية تساعد المرأة على الحفاظ على عفتها وحسن سمعتها . واذا اكتشف البدو امرأة حبلى وهي غير متزوجة أخذها أقرباؤها الى مكان بعيد وقتلوها دون أن يسأل احد عن السبب . واذا حاول أحد من البدو نشر اشاعة سيئة حول سلوك امرأة طلبوا منه الدليل فاذا جاء بالدليل قتلوا المرأة والا فهو يجب أن يؤدي غرامة الحشم لمحاولته تدنيس شرفها .

وحين ننتقل من القبائل البدوية الى القبائل الريفية نجد فرقا كبيرا في هذا الشأن فالمرأة الـريفية ليست كالمرأة البدوية قابعة في بيتها تعني بشؤون البيت والاطفال ولا تعرف غير ذلك . ان الرجل الريفي اعتاد ان يستغل المرأة في كسب الرزق حيث يرسلها الى سوق البلدة المجاورة لبيع منتجاتها الريفية ، وهي لذلك كثيرا ، تكون عرضة للاغراء والزلق ، في السوق أو في طريقها اليه .

والمعروف عن القبائل الريفية في العراق أن الرجل فيها يسرع الى قتل المرأة فوراً لمجرد ريبة تثار حول سلوكها ، فهو لا يميل الى التحقيق والتدقيق في أمرها كما يفعل البدو . انه يقتلها حالا ليغسل بدمها عارها وعار عشيرته ، وهو قد يقطع أحد كفيها فيعلقه على باب بيته أو باب المضيف ليبرهن به على انه شريف . أما اذا تقاعس عن قتلها صار موضع الاهانة والاحـتقار بين الناس ، وقد لا يقـدمون له القهوة اذا جلس في المضيف ولا يردون له التحية فيه .

ان الريفيين ورثوا عادة غسل العار من البداوة وظلوا محافظين عليها بالرغم من تغير ظروف المرأة . والواقع ان انتشار هذه العادة في الريف العراقي هو أكبر من انتشارها في أية منطقة اخرى في العالم .

وحين ننتقل من الريف الى المدينة في العراق نجد فرقاً كبيراً اخر في وضع المرأة . فالمرأة الحضرية كانت في العهد العثماني تلبس الحجاب الكثيف عند خروجها من بيتها الى الشارع بحيث لا يظهر من وجهها وبدنها أي شيء . وهذا الحجاب غير موجود في الريف والبادية إذ ان المرأة فيهما تسفر عن وجهها وكفيها من غير زينة حسبما أمرت به الشريعة الاسلامية .

أما عادة غسل العار فهي كانت نادرة جداً بين أهل المدن ، ولا يقوم بها في الغالب الا من كان من أصل ريفي وظل محافظا على القيم الريفية . ومعنى هذا ان أهل المدن استبدلوا الحجاب الكثيف للمرأة بعادة غسل العار .

س : انك تقول عن عادة غسل العار انها لا توجد في أهل المدن الا من كان منهم من أصل ريفي فالرجاء توضيح ذلك .

ج : لابد لي في هذه المناسبة من ذكر حادثة الطاعون الجارف الذي اجتاح العراق ، وبغداد بشكل خاص في عام ١٨٣١ . فقد كان لهذا الطاعون تأثيره الاجتماعي البالغ في العراق ، ومازالت اثاره موجودة حتى الان .

كانت الاوبئة تجتاح العراق كل عشر سنوات تقريبا ، ولكن طاعون ١٨٣١ تفوق على جميع الاوبئة التي اجتاحت العراق بكثرة ضحاياه . ويكفي ان نذكر مثلا على ذلك بأن سكان بغداد كانوا قبل الطاعون نحو مئة وخمسين الفاً ثم صاروا بعد الطاعون خمسين الفاً أي أن بغداد فقدت ثلثي سكانها في ذلك الطاعون . وهناك سوق في بغداد يطلق عليه اسم سوق الجائف ، وسبب هذه التسمية ان أهل الدكاكين في ذلك السوق ماتوا كلهم اثناء عملهم فيه حينذاك ، وظلت جثثهم في مواضعها أياماً دون أن يدفنها أحد حتى جاف السوق بها .

مهما يكن الحال فان بغداد عندما فرغت من سكانها بتلك الصورة هاجر اليها كثير من أهل القرى والارياف ، وأسسوا في أطرافها محلات خاصة بهم . وهذه المحلات مازالت تعرف بأسماء المهاجرين الاولين اليها ، وهذا هو ما نراه في أطراف الكرخ حيث نجد محلات الجعيفر والسوامرة والتكارتة والمشاهدة والدوريين والفلاحات والكريمات . أما في جانب الرصافة فنجد محلات العزة والكروية والبيات وبني سعيد والبو شبل والقرغول والخالدية والهيتاويين والاكراد والعوينة والفناهرة والمعدان والبو مفرج والكبيسات .

ومما يلفت النظر ان هذه المحلات الطرفية ظلت محافظة على تقاليدها وقيمها الريفية بعد توطنها في أطراف بغداد . ولهذا كنا نشاهد المرأة فيها سافرة الوجه والكفين بخلاف المرأة في المحلات القديمة المجاورة ، كما كنا نجد عادة غسل العار أكثر انتشاراً فيها مما هي في المحلات القديمة .

ان هذا موضوع طويل ربما عدنا اليه في فرصة قادمة ـ قل إن شاء الله .

س : الملاحظ أن حجاب المرأة لم يظهر الا في المجتمعات الاسلامية ، فهل كان ذلك بأمر من الدين أم هو عادة اجتماعية نشأت من جراء ظروف خاصة .

ج : المعروف عن الدين الاسلامي انه ينهى عن التبرج ولكنه لا ينهى عن السفور . فقد كانت المرأة في عهد النبي وخلفائه الراشدين كالمرأة الريفية الان تسفر عن وجهها وكفيها من غير زينة . ولكن الحجاب ظهر بعد ذلك لأسباب لا صلة للدين بها .

ان التبرج الذي ينهي عنه الاسلام له ناحيتان ، أحدهما ان لا يظهر من بدن المرأة أي جزء باستثناء الوجه والكفين ، والثانية ان لا تتزين المرأة عند ظهورها امام الناس .

س : ظهرت منذ عهد قريب فتوى لاحد الفقهاء يقول فيها : إن الحجاب الشرعي

الذي أمــر به الاسـلام هو أن تستر المرأة جميع بدنها بما في ذلك الوجه والكفين فما قولك في هذا ؟

ج : ان هذه الفتوى لا يوافق عليها أكثر الفقهاء فيما أعلم . فلو نظرنا في الآية القرآنية الخاصة بموضوع السفور والحجاب نجدها كما يلي : قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون. (سورة النور اية ٣٠)

ان هذه الاية واضحة الدلالة على جواز ظهور وجه المرأة وكفيها . وهذا ما ذهب اليه الطبري عند تفسيره لهذه الاية . فالاية توجب على المرأة ان تضع خمارها على جيبها أي على صدرها . ومعنى ذلك انها كانت تسفر عن وجهها اذ هي لو كانت محجبة على طريقة نساء المدن في العهد العثماني لما احتاجت الى وضع الخمار على صدرها .

أعود فأقول : ان المرأة كانت في عهد النبي وخلفائه الراشدين سافرة الوجه والكفين على طريقة نساء الريف عندنا . وقد ظلت المرأة على ذلك زمنا غير قصير الى أن جاء زمن كثرت فيه الجواري وصار لزاماً على المرأة الحرة ان تميز نفسها عن الجارية بلباس الحجاب .

ويروي المؤرخون ان المحتسب في بغداد في عام ٥٠٢ أصدر أمراً يمنع به النساء من عبور النهر مع الرجال في الزوارق . وفي عام ٥٤٠ تكرر هذا المنع ، وأضيف اليه منع مشي رجل وامرأة معاً في طريق خال من المارة ولو كانا متزوجين . واعتاد الناس حينذاك عند اقامة حفلات العرس أن تصعد النساء الى سطح الدارلكي ينظرن الى الحفلة من فوق ، لعدم جواز اختلاطهن مع الرجال فيها .

إن هذا الذي حصل في بغداد في القرن السادس الهجري رأينا ما يشبهه فيها في النصف الاول من القرن العشرين الميلادي . فقد كان المألوف في عربات التراموي التي كانت تجري بين بغداد والكاظمية ان قسما منها كان خاصاً بالنساء ولا يجوز للرجل الجلوس فيه معهن . وهذا هو ما رأيته في القاهرة عند زيارتي لها في عام ١٩٤٦ ، حيث كانت عربات الترام التي كانت تجــري في شوارع القاهرة مقسومة الى قسمين أحدهما للنساء والاخر للرجال .

ومما أذكره مـن أيام طفولتي اني كنت مسافرا مع أهلي في سفينة شراعية في عام ١٩١٧ ، فقد كانت السفينة مقسومة الى قسمين وبينهما حاجز ، أحدهما للنساء والاخر للرجال . وكنت اتنقل بين القسمين بحرية باعتباري كنتُ طفلا لا خطر منه على النساء .

ومن الطريف ان اذكر في هذا الصدد ما حدث في بغداد في عام ١٩٠٤ . فقد وردت

الى والي بغداد عامذاك أوامر من اسطنبول تطلب منه تسجيل النساء في العراق كمثل تسجيل الرجال واعطاء كل واحدة منهن تذكرة عثمانية . ولم يكد الخبر ينتشر في محلات بغداد حتى خرجت مظاهرات صاخبة احتجاجاً على ذلك شارك فيها الكثير من الناس من مختلف المحلات . وكان المتظاهرون يحملون السيوف والقامات والخناجر والبنادق والمسدسات وتتقدمهم الطبول وهم يهزجون بالهوسات التي تشير الى انهم يعتبرون تسجيل النساء يمس بشرفهن ويحط من كرامتهن . واصطدم المتظاهرون مع الجندرمة ، ثم تمكنوا اخيراً من الوصول الى السراي ، ولم يخرجوا منه الا بعد أن أعلن الوالي لهم انه سوف يؤجل في أمر التسجيل . وحدث مثل هذا في الموصل .

س : انك قلت بان الحجاب نشأ أول مرة لغرض تمييز المرأة الحرة عن الجارية . وهذا في رأيي سبب غير كاف . فأرجو توضيح ذلك .

ج : ان هذا السبب كان ظاهريا أما في الاعماق فقد كان السبب تقليديا طبقيا . والواقع ان الحجاب بدأ منذ العهد الاموي ولكنه كان محصورا في الطبقة العالية ، وبمرور الزمن أصبحت الطبقات الاخرى تقلد تلك الطبقة تدريجا . ولما كثرت الجواري بعد ذلك أصبح الحجاب رمزاً للمرأة الحرة في جميع الطبقات .

يمكن القول بوجه عام ان كل عادة اجتماعية تتبناها الطبقة العالية في المجتمع تصبح بمرور الزمن موضة يحاول تقليدها الناس من الطبقات الاخرى . وهذا هو ما حصل في شأن الحجاب قديما ، ثم شأن السفور حديثا .

اني أدركت المدة التي بدأ بها السفور حديثا في العراق في الثلاثينيات من هذا القرن . فهو قد بدأت به امرأة من الطبقة العالية ، وصارت النساء تقلدها في ذلك شيئاً فشيئاً .

س : من هو أول من دعا الى تحرر المرأة وسفورها في العراق ؟

ج : يمكن القول ان أول من دعا الى تحرر المرأة وسفورها هو الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي . فقد كان هذا الرجل كاتبا ومتفلسفا بالاضافة الى كونه شاعرا . وفي عام ١٩١٠ نشرته له مجلة (المؤيد) المصرية مقالا بعنوان المرأة والدفاع عنها . وكانت تصدر في بغداد حينذاك مجلة اسمها (تنوير الافكار) وقد أعادت هذه المجلة نشر مقالة الزهاوي : فأدى ذلك الى هياج في بغداد ، وخرجت فيها مظاهرة تطالب بانزال العقوبة الرادعة على الكاتب الزنديق . وذهب احد رجال الدين الى والي بغداد ناظم باشا وأوضح له ما يترتب على مقالة الزهاوي من المفاسد المخلة بالشريعة الغراء) ووصف الزهاوي بانه مارق عن الدين. فأصدر الوالي أمره بعزل الزهاوي من وظيفة التدريس التي كان يشغلها في مدرسة الحقوق.

واضطر الزهاوي الى الاعتزال في بيته خوفا من اعتداء العوام عليه . ويروى ان عددا

من الاشقياء ذهبوا الى داره ليلا وطلبوا منه اخراج زوجته لتذهب معهم الى المقهى ، ولما استنكر الزهاوي ذلك منهم قالوا له : كيف اذن تطلب من بنات الناس ان يرفعن الحجاب ويختلطن بالرجال ؟ ثم هددوه انهم سوف يقتلونه اذا عاد الى كتابة مثل هذه الاقوال الفاسدة . فاقسم لهم بأنه لن يعود اليها أبداً !

س : المعروف ان ضجة كبيرة حدثت في بغداد حول السفور والحجاب في عام ١٩٢٤ ـ أي بعد ١٤ سنة من حادثة الزهاوي ـ فما هو سببها وكيف حدثت ؟

ج : لكي نعرف سبب هذه الضجة يجب أن نذكر ما حدث قبلها من ضجة مماثلة في مصر على أثر دعوة قاسم أمين التي دعا فيها الى سفور المرأة ، وكذلك يجب أن نذكر انه في عام ١٩٢٣ ـ أي قبل سنة واحدة من حدوث الضجة في بغداد ـ قامت هدى شعراوي في مصر بازاحة النقاب عن وجهها علانية أمام الناس . وكانت بذلك أول مسلمة حضرية تسفر عن وجهها . فأثارت بذلك ضجة كبيرة في مصر ، وغضب عليها زوجها شعراوي باشا وهجرها مدة غير قصيرة .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن أية ضجة اجتماعية أو فكرية تقع في مصر حينذاك لابد أن ينتقل اثرها الى العراق . فان صحف مصر ومجلاتها كانت تأتي الى العراق فتؤثر في النخبة المثقفة فيه تأثيرا غير قليل .

وفي ٥ تشرين الاول ١٩٢٤ اندلعت الشرارة التي الهبت النار في بغداد . ففي ذلك اليوم وصل الامير غازي بن الملك فيصل الى بغداد من الاردن .

وجرى له استقبال كبير ، وكانت دهشة الناس كبيرة حين وجدوا من جملة المستقبلين فرقة كشافة مؤلفة من فتيات سافرات ان هذه الفرقة كانت من مدرسة البارودية للبنات . ولكن مديرة المدرسة واسمها معزز برتو لم تكتف بذلك بل صارت تخرج فرقة الكشافة في عصر الاثنين من كل اسبوع لكي تسير في الشوارع وفيها الفتيات سافرات ومقصوصات الشعر أيضاً . فأثار ذلك ثائرة المحافظينَ على الرغمَ من صغر سن الفتيات ، اذ اعتبروه منافيا للشرع والاخلاق وحفظ الاعراض .

وحدث جدال شديد بين دعاة الحجاب ودعاة السفور على صفحات الصحف . ومما أذكره في هذا الصدد اني كنت حينذاك تلميذا في المدرسة الابتدائية في الكاظمية . وكان أحد معلمينا وهو عوني بكر صدقي من أشد دعاة السفور حماسا . وخطب أحد الوعاظ في جانب الكرخ يحرض الناس عليه . فعزم جماعة من المتحمسين من عوام الكرخ على قتله وصاروا يبحثون عنه . وعثروا أخيراً على رجل يشبهه فأطلق احدهم عليه الرصاص من مسدسه ولكنه لم يصبه .



دروس من الحياة

س : .. وانت تدخل العام الثمانين من عمرك لابد أنك قد توصلت الى نتيجة في فهم هذه الدنيا على وجه من الوجوه . فالرجاء منك أن تذكر لنا بايجاز هذه النتيجة التي توصلت اليها .

ج : ان النتيجة التي توصلت اليها قد أشار اليها النبي محمد (ص) في أحد أحاديثه وهو يقول : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا .

ان البشر جميعاً ، وانا واحد منهم ، مجبولون بطبيعتهم على الركض وراء الدنيا بلا حد فكل واحد منهم يركض وراء هدف يطمح اليه ، فمنهم من يركض وراء المال ، ومنهم من يركض وراء الشهوة ، ومنهم من يركض وراء الشهرة ، ومنهم من يركض وراء السلطة ، الخ .. وهم يظلون يركضون طيلة حياتهم ، ولا يكتفون بما يصلون اليه بل يطلبون المزيد منه خطوة بعد خطوة . فاذا وصلوا الى هدف اخذوا يسعون نحو هدف اخر الى ما لا نهاية له .

مشكلة البشر انهم يعلمون علم اليقين انهم سيموتون بعد ذلك فلا ينفعهم شيء مما كسبوه لان حساب الله في الاخرة غير حساب الناس في هذه الدنيا ، ولكنهم مع ذلك يظلون لاهثين في ركضهم غافلين عما ينتظرهم من موت أكيد . ان النبي (ص) وصفهم بانهم نيام . أو هم بلغة عصرنا أشبه بالذين يقعون تحت تأثير التنويم المغناطيسي ، اذ هم لا يعرفون من دنياهم الا ما يوحي به اليهم المنوم . وهم لا يدركون حقيقة انفسهم الا عند الموت على نحو ما ذكره النبي في حديثه ، وهم عند ذاك يعرفون انهم كانوا يعيشون في عالم من الاحلام والاوهام .

س : اذا كان البشر وانت واحد منهم يركضون طوال حياتهم وراء الاحلام والاوهام ، فلماذا لم تنتبه انت أو ينتبه غيرك الى ذلك قبل فوات الاون ؟

ج : يجب أن تعلم ان الله خلق البشر على هذه الطبيعة لكي يعمر بهم الارض .

يمكن تشبيه البشر في هذا بالنحل الذي يجمع العسل . فالنحلة تسعى طيلة حياتها في جمع العسل دون أن تنتفع منه الا قليلا . فهناك دافع غريزي يدفعها الى جمع العسل من غير ان يكون لها اختيار أو ارادة فيه . وهذا هو ما يفعله الانسان اذ هو يركض لاهثا نحو هدف يحسب انه سوف ينال السعادة به ثم يموت بعدئذ دون أن يجني من ركضه شيئاً . ولكنه في الوقت نفسه يساهم في تعمير الارض وبناء المجتمع والحضارة .

هناك أفراد أدركوا ما في الحياة من احلام وأوهام ، ولهذا نراهم يلجأون الى العزلة

والاعتكاف . ويجب أن لا ننسى أن هؤلاء الافراد شاذون وليس من الجائز الاقتداء بهم .

ان الاديان كلها ، ومنها الاسلام ، تدعو الانسان الى العمل الدائب في هذه الدنيا على شريطة أن يكون عمله في طلب الحلال لا الحرام . ان العمل في طلب الحلال يعتبره الاسلام بمثابة الجهاد في سبيل الله .

هناك فرق كبير بين الانسان الدائب الذي يتجنب الضرر بالناس ويحاول نفعهم ، واخر يلهث راكضاً وراء الدنيا ولا يبالي ان يعتدي على الناس من أجل ذلك .

س : اسمح ان أسألك سؤالا شخصيا . فانت كما رأيناك تركض وراء الدنيا كغيرك من البشر فهل كنت في ركضك من الذين يريدون نفع الناس ام الاضرار بهم ؟!

ج : ان هذا السؤال لا يخلو من احراج لي . فلو أني أردت وصف نفسي بأني من النوع الاول ، أي من النوع النافع للناس لكان ذلك من باب المديح للنفس وانت تعلم ان مدح النفس يضر الانسان أكثر مما ينفعه .

اما لو أردت ان أصف نفسي باني من النوع الثاني لاتخذ الخصوم ذلك ذريعة للتهجم المقذع علي ، وهم كثيرون كما تعلم . والويل لي من السنتهم اذا انطلقت والله الساتر على كل حال !

يمكن القول بوجه عام ان كل انسان ناقص ومعرض للخطأ فالكمال لله وحده كما قيل قديما . ولست بالانسان الشاذ في ذلك . فاني في ركضي وراء الدنيا لابد أن فعلت ما يضر الناس قليلا أو كثيرا ومن حيث أدري أو لا أدري .

ان الانسان حين يظلم غيره لا يدري انه ظالم . وربما ظن انه عادل وان غيره هو الظالم . وحين ندرس سيرة الظالمين المشهورين في التاريخ نجدهم لا يدرون انهم ظالمون ، ويحف بهم المتزلفون والمنافقون يزينون لهم أعمالهم .

من طبيعة العقل البشري انه في معظم الاحيان لا يستطيع ان يدرك الحقيقة كما هي في واقعها بل هو يراها بمنظار المصالح والعواطف والعقد المسيطرة عليه وهذا يكون في أشد صوره عندما ينظر الانسان الى نفسه فهو يقدرها أكثر مما هي في حقيقتها ولا محيص من ذلك !

وهنا أعود الى سؤالك الذي تسألني فيه عن تقديري لنفسي وهل أنا نفعت الناس أم اضررت بهم ؟ للجواب على هذا السؤال لابد لي من أن أقول : علم ذلك عند الله .

س : الذي نعرفه عنك انك مشغول منذ زمن طويل بتأليف كتاب حول طبيعة البشر وهو الكتاب الذي تعتبره كتاب العمر بالنسبة لك . متى سيصدر هذا الكتاب ؟ ولماذا تأخر صدروه حتى الان ؟

ج : قلت في مناسبة سابقة ، وأعيد القول الان ، بان موضوع الطبيعة البشرية ليس بالامر السهل ، فهو موضوع معقد طويل وليس في مقدوري وأنا في الايام الاخيرة من حياتي ان أفي هذا الموضوع حقه .

اختلفت الاراء في الطبيعة البشرية منذ قديم الزمان ، ومازالت مختلفة . وحين ندرس البحوث التي أجريت في هذا الموضوع نجدها كالبحر المتلاطم الذي لا حد له . واعترف لك اني كلما توغلت في دراسة هذا الموضوع شعرت بالعجز فيه ، ولست أدري متى يمكن الوصول الى قرار فيه .

قررت أخيراً أن أخرج كتابا فيه مع علمي انه كتاب ناقص . والسبب الذي دعاني الى اخراجه هو انه قد ينفع بعض القراء من بعض الوجوه .

من المؤسف ان أقول ان كثيرا من المفاهيم التي ورثناها من تراثنا الفكري القديم حول طبيعة البشر هي مغلوطة وتضربنا في حياتنا العملية . فهي مفاهيم عقلانية تحلق عاليا في عالم غير العالم الواقعي الذي يعيش فيه البشر . وهذا هو الذي جعل الكثير من مفكرينا يشغلون انفسهم فيما يجب أن يكون وليس فيما هو كائن فعلا .

ان الاسلوب الذي سار عليه الكثيرون من المفكرين قديما ، ومازال البعض منهم يسيرون عليه حتى الان ، هو اسلوب وعظي خطابي . فالمفكر لا يكاد يمسك بالقلم للكتابة حتى يتخذ موقف الواعظ الذي يطلب من الناس أن يذوبوا في المصلحة العامة وينسوا مصالحهم الخاصة . هذا مع العلم ان المفكر نفسه الذي دعى الى ذلك يسير في حياته العملية على النقيض مما يدعو اليه . فهو كغيره من البشر يجري على السنن التي جبل عليها بالرغم من المواعظ التي اعتاد عليها . انه يقول ما لا يفعل على نحو ما وصف القران به الشعراء . وقد يصح ان أقول ان كثيرا من المؤلفين والكتاب كانوا ومازالو كالشعراء في ذلك .

اني أقصد من كتابي الجديد ، في حالة تمكني من اخراجه الى الناس ، ان أنبه القراء وأحذرهم من مغبة المفاهيم القديمة حول طبيعة البشر . فالبشر يسيرون في حياتهم على نواميس لا تختلف كثيرا عن نواميس الطبيعة . ومن يريد اصلاح البشر أو حل مشاكلهم يجب أن يفهم تلك النواميس وان يحاول الانسجام معهـا في دعوته .

س : رأيناك منذ أكثر من أربعين سنة وانت تؤكد في كتاباتك أن مبدأ من جد وجد مغلوط . وهـو المبدأ الذي تعلمناه في المدارس واعتمدنا عليه في حياتنا كما اعتمدت انت عليه . والذي نرجوه منك الان أن تبين لنا وجه الخطأ في هذا المبـدأ .

ج : اني مثلك تعلمت مبدأ من جد وجد في المدارس وحفظت منه صوراً مختلفة كقولهم : كل من سار على الدرب وصل وكل من جال نال ومـن طلب العلا سهر الليالي

وهمم الرجال تزعزع الجبال والجد في الجد والحرمان في الكسل فانصب تصب عن قريب غاية الامـل . ثم تبين لي بعد خوض التجارب الكثيرة ، وبعد دراسة الطبيعة البشرية بمقدار جهدي . ان هذا المبدأ لا يصح الا ضمن حدود معينة فاذا هو اجتاز تلك الحدود اصبح عبئا على صاحبه وربما ادى به الى الفشل الذريع في الحياة .

أعرف أشخاصاً كثيرين كافحوا طوال حياتهم وسهروا الليالي وبذلوا الجهود فلم يصلوا الى النجاح المطلوب . وهم عندما أحسوا بفشلهم أخيرا عزوه الى سبب مصطنع اختلقوه لانفسهم وأخذوا يرفعون عقيرتهم بالشكوى من الزمان وباعلان الويل والثبور على الدنيا ومن فيها .

لا أنكر أن عامل الجد والمثابرة وقوة الارادة له دوره في تحقيق النجاح للانسان . لكننا يجب أن لا ننسى فبالوقت نفسه ان هذا العامل ليس سوى عامل واحد من عدة عوامل . ومعنى ذلك انه ليس العامل الوحيد للنجاح في الحياة .

ان من أهم عوامل النجاح للانسان هو امتلاكه للموهبة أو الصفة الطبيعية التي تلائم المجال الذي يعمل الانسان فيه . وبغير هذا فان الانسان لا يقدر على النجاح مهما حاول . خذ على سبيل المثال الطالب الذي يريد التفوق في دراسته المدرسية فليس من المجدي له أن يداب في الدراسة ليل نهار بل يجب أن تتوافر فيه بالاضافة الى ذلك موهبة الذكاء المناسب للحقل الذي يدرس فيه .

ان الطالب الضعيف في ذكائه لا يختلف من حيث فرصة النجاح له عن النحيل الذي يريد أن يكون مصارعاً . أو صاحب الصوت الرديء وهو يريد أن يكون مغنياً مشهوراً ، أو العيّ المتلعثم وهو يريد أن يكون خطيباً مصقعاً ، أو الرقيع وهو يريد أن يكون منكتا بارعا . ان كل واحد من هؤلاء يحتاج لكي ينجح في مجاله ان تتوفر فيه الموهبة المناسبة لذلك المجال . والا فان جهوده تذهب عبثا .

اني أتذكر فترة الثلاثينات عندما كان الشبان يتهافتون على دخول المدارس بغية أن يكونوا في المستقبل افندية يشار اليهم بالبنان . فنجح البعض منهم في مسعاهم بينما أخفق الاخرون . وكان أهم عامل للنجاح فيهم طبعا هو الذكاء . ولكن المشلكة في الناس حينذاك انهم لم يكونوا يدركون أهمية هذا العامل في النجاح ، أو هم كانوا يعتقدون أن الانسان قادر ان يكون ذكيا بإرادته وإجتهاده . فكانت الام توبخ ولدها الفاشل في المدرسة قائلة له : لماذا نجح ابن فلانة ولم تنجح أنت ؟ ! فهل ينقصك عنه عين أو خشم ؟! خائب يا حظي !!!

ان التلميذ الخائب من هذا الطراز قد يصاب بالعقدة النفسية أو الجنون . أو هو ينضم الى فئة المتذمرين الناقمين التي كانت تنمو باستمرار في تلك الايام وكان لها

نتائـــجها المعروفة .

س : اذا كان مبدأ من جد وجد واضح الخطأ في الحياة كما تقول فما هو السبب الذي جعله واسع الانتشار بين الناس حتى صار يلقن به التلاميذ في المدارس ؟

ج : في رأيي ان هناك سببين رئيسيين لانتشار هذا المبدأ بين الناس هما كما يلي :

(١) ان هذا المبدأ ينسجم مع المنهج الوعظي الخطابي الذي سيطر على عقول اكثر المفكرين قديما ومازال مسيطرا على عقول البعض منهم حتى الان .

(٢) ان هذا المبدأ أصبح اداة لدى الناجحين المغرورين لكي يتباهوا بانفسهم به .

كان أكثر المفكرين قديما ـ كما أشرت اليه في الحوار السابق ـ يشغلون اذهانهم فيما يجب أن يكون عليه الانسان وليس فيما هو عليه فعلاً .

فهم يتخذون تجاه مشاكل الانسان وقضاياه موقف الخطيب الواعظ وليس موقف الدارس الموضوعي . ولهذا رأيناهم يطلبون من الانسان أن يبذل كل جهده في سبيل الهدف الذي يسعى اليه غافلين عن الشروط الواقعية التي يجب ان تتوافر في الانسان لكي ينجح في جهده .

ان العلم الحديث اخذ ينظر في مشاكل الانسان وقضاياه بمنظار اخر . فهو يدرس طاقات الانسان وحدود قدراته والنواميس التي تتحكم في طبيعته قبل ان ينصحه باتخاذ طريق معين في الحياة .

ان من الخطأ كل الخطأ ان نأمر الانسان بإتباع طريق معين قبل أن نعرف مبلغ قدرته على اتباع ذلك الطريق . ورد في أحد الامثال القديمة قولهم : اذا أردت ان تطاع فمر بما يستطاع . وهذا المثل هو أقرب الى منطق العلم الحديث منه الى منطق الوعظ القديم .

وهنا نأتي الى السبب الثاني في انتشار مبدأ من جد وجد وهو اتخاذ الناجحين المغرورين له وسيلة في أيديهم يفتخرون بها على الناس .

أعرف واحداً من هؤلاء المغرورين مات منذ عهد قريب . فهو قد نجح في حياته من جراء عوامل لابد له فيها ، اذ هو كان وسيماً رشيقا بالاضافة الى امتلاكه درجة عالية من الذكاء . وكان أبوه قادراً على ادخاله المدرسة وعلى الاستمرار في مراحلها المتتابعة بينما كان أولاد الفقراء من أقرانه غير قادرين على ذلك . ثم ساعدته وسامته ورشاقته بعدئذ على أن يتولى وظيفة ذات مكانة مرموقة . فشمخ هو بانفه وأخذ يتباهى بنفسه قائلا : ها أنا ذا انظروني كيف صنعت نفسي ؟!! .

كان المفروض في هذا الرجل ان يحمد ربه على الصفات والظروف التي مكنته من النجاح في حياته . ولكنه صار يحمد نفسه بدلاً من أن يحمد ربه .

يمكن أن نعد هذا الرجل نموذجاً للناجحين المغرورين الذين اتخذوا مبدأ من جد وجد وسيلة للتفاخر والتباهي . فهم يغفلون عن العوامل الحقيقية التي ساعدتهم على النجاح ويركزون نظرهم على أنفسهم وما بذلوه من جهد .

س : قلتَ في مقالة سابقة ان مبدأ من جد وجد يؤدي الى ظهور بعض معالم الظلم الاجتماعي في الناس . فالرجاء أن تشرح ذلك .

ج : ان هذا موضوع طويل وقد يكفي هنا أن أقول ان هذا المبدأ يجعل الناس يقدرون الناجح في حياته باعتبار انه نجح عن طريق الجد والدأب وقوة الارادة ، وهو كذلك يجعل الناس يحتقرون الفاشل باعتبار انه فشل بسبب كسله وضعف ارادته أو سوء تصرفه . وهذا ظلم من الناس بدون معرفة منهم انه ظلم .

ان الفاشلين في الحياة كثيرون يملأون الدنيا ، وهناك أسباب عديدة لفشلهم وهم ليس لهم يد في تلك الاسباب الا قليلا . ولعلنا نستطيع أن نشرح تلك الاسباب في فرصة قادمة ان شاء الله .

حول حرف التنجيم في المجتمع

س : ما رأيك في هؤلاء الذين يحترفون التنجيم وقراءة الكف وغيرها هل هم مشعوذون فعلاً أم أن لديهم قدرات خارقة من تلك القدرات التي درسها علم الخارقية كما تسميه ؟

ج : في رأيي ان الكثير من هؤلاء مشعوذون دجالون ولكن هذا لا يعني انهم كلهم من هذا النوع ، ويرجح في ظني أن البعض منهم لابد أن تكون لديهم قدرات خارقة على وجه من الوجوه .

س : كيف نستطيع أن نميز بين المشعوذ والصادق منهم ؟

ج : ان هذه المشكلة قد حلها علماء الخارقية في العالم المتحضر ، فهم عندما يسمعون بخبر شخص يملك قدرة خارقة لا يسرعون الى تكذيبه أو الحكم عليه بالدجل بل هم يرسلون اليه من يفحصه فحصاً علميا موضوعيا لا تحيز فيه ، ثم يحكمون له أو عليه حسبما تقرره نتيجة الفحص .

س : ما قولك فيما فعلته جريدة (الجمهورية) في فحص الرجل الذي يسمى سيد محمد من قضاء الصويرة والذي اشتهر أمره بين الناس في تلك الانحاء ؟

ج : ان ما فعلته جريدة (الجمهورية) عمل تشكر عليه ، لانها قامت بفحص للرجل يمكن أن نقول عنه فحص موضوعي واقعي ولكني مع ذلك أعتب على الجريدة لانها أرسلت لفحص الرجل من هم ليسوا مختصين بهذا العمل .

فقد كان الواجب عليها أن تستعين في ذلك بمركز البحوث النفسية ، وهو المركز المختص بمثل هذه الامور .

س : الذي أعرفه عنك انك عضو في هذا المركز وأسمح ان أقول ان هذا المركز قد جوبه ببعض الانتقادات والاعتراضات ، اذ هو لم يقم بعمله بالاسلوب أو الطريقة التي جرت عليها الجميعات الباراسيكولوجية في اقطار العالم انه يهتم بعقد الاجتماعات والندوات والقاء الخطابات أكثر مما يهتم بالبحث عن أصحاب القدرات الخارقة وفضحهم .

ج : ان ما تقوله صحيح الى حد ما فمركز البحوث النفسية عندنا يشغل نفسه في بعض الاحيان بأمور ليست فيها فائدة عملية بل هي أقرب الى الاعلام منها الى العمل الجدي . وهذا امر اعتقد أنه سيزول قريباً جداً وهو زائل فعلا . وسوف يبدأ المركز بالتوجه في نشاطه لدراسة ما يحصل في مجتمعنا من ظواهر خارقية لها أثرها في حياتنا الفردية والاجتماعية .

س : ما رأيك في ما فعلته شرطة الكرخ في القاء القبض على (٤٢) من الذين يتعاطون التنجيم والشعوذة باعتبارهم من الذين تنطبق عليهم المادة (٤٥٦) من قانون العقوبات وهذه المادة تعد هذه الممارسات من أعمال النصب والاحتيال ؟

ج : اني لا أميل الى تأييد ما فعلته مديرية شرطة الكرخ .. وفي رأيي ان ما فعلته لا يخلو من شيء من الظلم الاجتماعي .. فان هؤلاء الذين القت القبض عليهم قد يكونون محتالين ونصابين فعلا ... ولكننا يجب أن ننظر اليهم نظرة اجتماعية وليست قانونية .

ان هؤلاء المحترفين هم نتاج محيط اجتماعي .. فالعوام من الناس هم في حاجة الى مثل هذه الحرف التي يحترفونها ... وهذا هو ما نلاحظه في المجتمعات المتحضرة نلاحظ اناسا يتعاطون مثل هذه الحرف ، ويقصدهم الناس بغية التنفيس عن همومهم . اننا حين نمنع هذه الحرف علناً ونعاقب عليها سوف تتحول الى سوق سوداء ويأخذ الناس بالالتجاء اليه سراً ، فمن طبيعة الناس بوجه عام ، انهم اذا منعوا عن شيء علنا لجأوا اليه سرا وربما زادو فيه عما كانوا عليه من قبل حسب المبدأ القائل (كل ممنوع مرغوب) .

س : ان رأيك هذا لو أخذنا به علميا يؤدي الى كثرة المنجمين و (الفوالين) والمشعوذين بين الناس ، وهذا يعرقل علينا طريق الحضارة الذي نسير الان فيه ، فما قولك في هذا؟

ج : يجب أن تعلم ان الحضارة لا تأتي بالقهر والمنع والاجبار . فهي تيار اجتماعي يسير فيه تلقائيا من غير اكراه واجبار ، واذا حصل اكراه واجبار في المسيرة الحضارية ادى ذلك الى مردود عكسي .

انظر الى ما فعل مصطفى كمال الذي لقب نفسه بـ (أتاتورك) أي أبو الاتراك .. فهو قد حاول أن يجبر الناس على التحضر بالقوة ، بحيث فرض السفور على النساء والقبعة على الرجال واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، ومنع الحج ، وفعل غير ذلك كثيرا ... وكانت نتيجة اعماله ان تركيا تأخرت الى الوراء في عهده بدلا من أن تتقدم الى الامام من الناحية الحضارية . *

هذا الصدد ان الملك فيصل الاول جاءه أحد أصحابه يطلب منه أن يسير في تحضير العراق على طريقة مصطفى كمال ، فكان جوابه ان التحضر ينبعث من الداخل ولا يفرض من الخارج .

* يجب الانتباه إلى أن قاعدة الجبر هي التي تؤدي إلى التأخر لا تنطبق على الامور الشرعية ، وبخاصة العقوبات التي يجب الاخذ بها بشدة وعدم التهاون فيها ، وعندما ضرب مثلاً على ذلك أتاتورك ، فإنه بالأمور التي حاول ان يجبر الشعب [illegible] كلها كان سوف يؤدي إلى التخلف أيضاً ، لانها كانت مسائل نهى عنها الاسلام وأجبر الناس على عدم الالتزام منها .

حول العقل

س : ان من يقرأ مؤلفاتك ومقالاتك يلاحظ انك تستصغر شأن العقل البشري ولا تعطيه المكانة اللائقة به ، وفي عام ١٩٥٥ صدر لك كتاب بعنوان « مهزلة العقل البشري » وهذا رأي في العقل لا نوافقك عليه ولا يوافقك عليه الكثيرون . فكيف تدافع عن نفسك في ذلك ؟

ج : الواقع ان العقل موهبة كبرى وهبها الله جل وعلا للانسان ، وهو من اهم المزايا التي يتميز بها الانسان عن الحيوان . وهذا امر يجب ان نعترف به ولكننا في الوقت نفسه يجب ان نعترف ان عظمة العقل ليست مطلقة فهي لها حدود تقف عندها . وقد اخطأ الفلاسفة القدماء عندما وثقوا بالعقل واحتكموا اليه في كل الامور بلا حدود .

ان أفضل وصف وُصف به العقل هو الذي جاء به الفيلسوف الحديث وليم جيمس ، إذ قال ما فحواه ان العقل ليس سوى عضو خلقه الله جل وعلا في الانسان لمساعدته في تنازع البقاء على نحو ما خلق الخرطوم في الفيل والمخلب في الأسد والسيقان في الغزال والسم في العقرب الخ ..

ومعنى هذا ان العقل ليست وظيفته التوصل الى الحقيقة على نحو ما كان القدماء يتصورونه ، بل ان وظيفته التوصل الى الوسيلة التي تمكن الانسان من النجاح في الحياة او تمكنه من التغلب على خصمه او خصم الجماعة التي ينتمي اليها ، ان الحياة الاجتماعية هي ميدان صراع دائم يحاول كل فريق فيها التغلب على خصمه ، وهو لذلك يستخدم عقله لاكتشاف الوسيلة التي تمكنه من ذلك .

أنظر الى الفلاسفة القدماء حين كانوا يتجادلون ، فهم يزعمون انهم يريدون التوصل الى الحقيقة بجدلهم ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا يطلبون الحقيقة بمقدار ما كانوا يطلبون التغلب بعضهم على بعض . فكل واحد منهم يريد التفوق في جدله ، وهو يحاول تفنيد كل دليل عقلي يأتي به الخصم بدليل أقوى منه . وهم لا يختلفون في ذلك عن أصحاب الدعاوي في ساحات المحاكم او أصحاب الدكاكين في الأسواق او العوام حين يتصاولون بالأيدي والهراوات .

ان طلب الحقيقة حجة يتظاهر بها الانسان لتبرير سعيه المتواصل نحو الغلبة . وهو لذلك لا يحب الحقيقة الا إذا كانت في جانبه ، وهو لا يكاد يراها قد صارت في جانب

خصمه حتى يتنكر لها ويأتي بالعديد من الأدلة العقلية والنقلية لتفنيدها وإظهار بطلانها .

ان الانسان الذي يعترف بالحقيقة بالرغم من مخالفتها لمصلحته انما هو انسان شاذ نادر . وفي هذا مصداق لما ورد في القرآن الكريم : « وأكثركم للحق كارهون » .

س : ان هذا الذي تقوله يشبه ما قاله السوفسطائيون قديماً ، فهل انت سوفسطائي ؟

ج : أريد ان انتهز هذه الفرصة لكي أتحدث قليلاً عن السوفسطائية . فالسوفسطائية في الواقع كانت حركة فكرية ظهرت في بلاد الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان هدفها مقاومة الفلسفة العقلانية التي راجت في تلك البلاد حينذاك .

برز في مجال الفلسفة العقلانية مفكرون عظام من أمثال سقراط وافلاطون وارسطو ، وكان الجو الفكري مساعداً لهم فانتصروا على السوفسطائيين انتصاراً ساحقاً . واتيح للفلسفة العقلانية بعدئذٍ ان تنتشر في أوساط المفكرين في كثير من بلاد العالم ، فأدى ذلك الى تشويه سمعة السوفسطائية حتى أصبحت شتيمة يشتم بها المفكر ، وما زالت هذه الشتيمة شائعة ، فإذا أريد ذم أحد من المفكرين وصف بأنه « سوفسطائي » .

فحوى رأي السوفسطائية ان الحقيقة نسبية وان مقياسها الانسان في رغباته وميوله ، أما الفلسفة العقلانية فرأيها على النقيض من ذلك إذ هي تعتبر الحقيقة مطلقة وان الانسان قادر على التوصل اليها بمنطق العقل . ومن الممكن القول ان كلا من هذين الرأيين قد تطرف في موقفه تجاه الحقيقة والانسان . وبعبارة اخرى ان كلا منهما مصيب ومخطيء في آن واحد .

ان العقل البشري عظيم مبدع وهو الذي استطاع ان يبدع هذه الحضارة العجيبة التي نشهدها اليوم ، ولكنه في الوقت نفسه ليس مطلقاً في عظمته وابداعه ، بل له حدود يقف عندها – كما أشرت اليه آنفاً . ونحن ، إذ نريد ان نستثمر موهبة العقل التي خلقها الله جل وعلا فينا يجب ان نعرف حدودها فلا نثق بها كل الثقة كما لا نستهين بها كل الاستهانة . ان موهبة العقل هي كغيرها من المواهب البشرية الأخرى لها جوانب ايجابية وجوانب سلبية ، ومن الواجب علينا ان نهتم بالجوانب الايجابية منها لكي ننتفع بها في حياتنا بينما نتحرى عن الجوانب السلبية لكي نتقي شرها .

وأنك ، إذ تسألني هل انا سوفسطائي ؟ أجيبك بأني سوفسطائي وعقلاني في الوقت نفسه . وخير الأمور اوسطها كما ورد في الحديث النبوي الشريف .

س : نرجو منك ان تعطينا توضيحاً واقعياً عن الجوانب السلبية للعقل إذا كانت فيه مثل هذه الجوانب حسب قولك ؟

ج : الحياة الاجتماعية مليئة بهذه الجوانب دون ان نعرفها ، ونحن نتضرر منها فلا ندري ، وكذلك تضرر منها القدماء قبلنا على توالي العصور . أذكر الآن واحداً من هذه الجوانب على ان نرجيء ذكر الجوانب الأخرى في حلقات قادمة .

أن من أهم الأدواء التي ابتلى بها البشر ، لا سيما العقلانيون منهم ، هو داء الجدل . فالمعروف عن الجدل بين اثنين انه لا ينتهي الى إتفاق إلا نادراً فكل منهما يعتقد ان رأيه هو الأصوب وان دليله هو الأقوى . وعند انتهاء الجدل يظن كل منهما انه هو الغالب فيه .

ان هذه ظاهرة اجتماعية يعرفها الناس منذ قديم الزمان ولكنهم مع ذلك يظلون يتجادلون ويتجادلون الى ما لا نهاية له . ونرى الواحد منهم عند جدله يحاول الإتيان بكل دليل يمكنه على خصمه ، حتى لو كان الدليل تافهاً او باطلاً وهو إذا شعر بالعجز عن ذلك لجأ الى الشتيمة الشخصية وأخذ يذكر خصمه بالسوء لكي يتجنب المغلوبية في جدله على كل حال .

ان الانسان عند جدله يزعم انه يسعى وراء الحق والحقيقة ، بينما في الواقع يسعى نحو التغلب على خصمه . فهو يشعر ان تغلب خصمه عليه سوف يؤدي الى هبوط مكانته الاجتماعية في نظر الحاضرين ، وهذا امر لا يستطيع تحمله .

يقول ديل كارنيجي : « اكسب الجدل بأن تتجنبه » ، وهو يقصد من ذلك ان الانسان ينبغي ان يتجنب التورط في الجدل على كل حال . وهو يروي كلمة لاحد المفكرين الكبار في هذا الصدد هي : « إذا جادلت وتحديت فأما ان تنتصر او يتغلب عليك خصمك . فاذا ما أسعفك الفوز فانه يكون فوزاً أجوف . انه يجعلك تخسر حسن علاقاتك مع الذي تجادله ، وقلما تكسب الاثنين معاً أي الفوز وحسن العلاقة . أما إذا غلبك خصمك فانت خاسر على كل حال » .

معنى هذه الكلمة أنك في الجدل أمام خيارين ، أما ان تنتصر فيه على خصمك فيؤدي ذلك الى خسارة علاقتك الحسنة به ، او تخسر الجدل فتهبط مكانتك الاجتماعية امام الحاضرين .

يروي كارنيجي قصة حدثت له في أحد المجالس ، وهي قصة ذات مغزى في هذا الشأن ، وخلاصتها ان رجلاً ثرثاراً يحب الإكثار من الحديث كان من جملة الحاضرين في المجلس ، وقد ذكر عبارة مقتبسة من رواية لشكسبير ولكنه قال عنها انها من الكتاب المقدس . فاعترض عليه كارنيجي قائلاً له ان الجملة من كتاب شكسبير وليست من الكتاب المقدس ولكن الرجل أكد دعواه وألح في جداله . وكان بين الحاضرين رجلٌ دارس

كتاب شكسبير ، فاقترح كارنيجي الاحتكام اليه . ولكن الدارس اشار الى كارنيجي من طرف خفي طالباً منه السكوت ثم أعلن على الحاضرين بأنْ العبارة هي من الكتاب المقدس .

وعند انتهاء الجلسة وخروج الحاضرين سأل كارنيجي الرجل الدارس عن سبب ما فعل في الجلسة ، فأجاب الرجل قائلاً : « ما الذي يجديك حين تجرح كرامته ! نعم ان العبارة من رواية هاملت لشكسبير ، ولكن إياك ان تبلغ الزاوية الحرجة في مجادلة أحد » .

ويقول كارنيـــجي أن هذا الدرس أفادني كثيراً فيــما بعــد ، فصار مبدأي في الجدل « اكسب الجدل بأن تتجنبه » .

ان هذه القصة التي رواها كارنيجي تقع امثالها في مجالسنا كثيراً . فلا يكاد احد الحاضرين يلمح خطأه في كلام غيره حتى يسرع الى تصحيح الخطأ علناً ، ثم ينشب الجدل بينهما كما يثور التشاحن والتحاقد ...

والمشكلة في بعض الناس انهم ليسوا مثل كارنيجي متأكدين من صحة رأيهم ، بل هم يسرعون الى تخطئة غيرهم بالرغم من ضحالة ثقافتهم وقلة معرفتهم ، وهم لذلك في جدال دائم لا ينتهي .

أعرف واحداً من هؤلاء ، وصرت أراقبه مدة طويلة بوصفه نموذجاً يمكن استخلاص العبرة منه في الحياة . وكانت خلاصة مراقبتي له اني وجدت التصحيحات التي يصحح بها أخطاء غيره هي نفسها مخطئة بمعدل سبعين بالمئة تقريباً . فهو في أكثر الأحيان يحسب غيره مخطئاً بينما هو المخطيء في الواقع .

ان السبب الذي جعل هذا الشخص يتورط في أخطائه هو أنه بالرغم من قلة معرفته متعصب للمنطق العقلاني . فهو اذا ارتأى رأياً اعتماداً على معرفته المحدودة ظن أنه وصل به الى الحقيقة المطلقة التي لا شك فيها .

وهو لا يكاد يسمع رأياً مخالفاً لرأيه حتى يهب ثائراً مجادلاً . انه لا يدري ان رأيه ربما كان هو المخطيء بدلاً من رأي غيره .

س : نحن نعرف ان الجدل بين العلماء هو من أهم الوسائل للتوصل الى الحقائق العلمية و لكنك تقول ان الجدل يضر أكثر مما ينفع ، فكيف نوفق بين هذين القولين ؟

ج : هناك فرق كبير بين الجدل العلمي والجدل العقلاني فالجدل العلمي يقوم على أساس المنطق الاستقرائي بينما الجدل العقلاني يقوم على أساس المنطق الاستنتاجي .

أن العلم الحديث لم يصل الى ما وصل اليه عن طريق المنطق الاستنتاجي . بل هو

اكتشف طريقاً جديداً هو منطق الاستقراء ولو ان المفكرين كانوا قد بقوا قابعين في قوقعتهم العقلانية القديمة لظلوا يتجادلون ويتجادلون دون ان يصلوا الى نتيجة مجدية .

س : في السطور الماضية تحدثت لنا حول احد الجوانب السلبية في العقل البشري وهو لانهائية الجدل ، والرجاء منك ان تتحدث لنا عن جانب آخر فيه .

ج : لكي نعرف بوضوح محدودية العقل البشري نذهب للتفرج في قاعات المحاكم . ففي قاعة المحكمة يقف اثنان متنازعان في قضية لهما ، فكل واحد منهما يعتقد ان الحق معه وأن الباطل مع خصمه ، وهو يبذل كل جهده للإتيان بالأدلة التي تؤيد جانبه ، وتفند الأدلة التي يأتي بها خصمه ، فإذا حكم القاضي أخيراً في مصلحته صار في نظره من أفضل القضاة عدلاً ونزاهة ، اما اذا حـــكم القاضي بخلاف ذلك فانه ينقلب حالاً الى حاكم ظالم او مرتش .

ان نظام المحاكم هو في الواقع من أعظم الوسائل التي ابتكرها البشر لحل التنازع بينهم . فقد أدرك البشر بفطرتهم منذ قديم الزمان أن وجود المحاكم ضروري للمجتمع البشري ولولاها لأكل الناس بعضهم بعضاً . والملاحظ ان جميع الشعوب ، حتى البدائية منها ، لا تخلو من شيء من النظام القضائي على وجه من الوجوه ، ففي القبيلة البدائية نجد شيخ القبيلة يحكم بين المتنازعين من أفراد قبيلته ، أو هو يحيل النزاع الى أحد العارفين بالسنن الموروثة ليحكم بينهم .

لنفرض اننا اخذنا برأي الفلاسفة القدامى في العقل فألغينا النظام القضائي من المجتمع وطلبنا من الناس ان يحتكموا الى عقولهم عندما ينشب النزاع بينهم ، فماذا سوف تكون النتيجة يا ترى ؟ !

ان النتيجة لا يمكن ان تكون خالية من الاقتتال بين الناس والفوضى وكل فريق منهم يزعم ان خصمه هو الذي اعتدى عليه .

للإمام علي بن ابي طالب كلمة جديرة بالذكر هنا هي قوله « ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم » ومعنى هذه الكلمة ان وجود الحاكم وان كان ظالماً غاشماً هو أفضل للناس من عدم وجوده . فان الناس عند عدم وجود الحاكم يظلم بعضهم بعضاً أكثر من ظلم الحاكم لهم .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الامام علياً إنما قال تلك الكلمة في مواجهة رأي الخوارج . فقد كان رأي الخوارج يتمثل في كلمتهم المشهورة : « لا حكم الا لله » وكانوا يقصدون بها ان الناس يجب ان يحتكموا في نزاعهم الى كلام الله الذي جاء في القرآن بدلاً

من الاحتكام الى حكام من البشر . وكان جواب الامام لهم : « ان القرآن حمّال أوجه » أي ان كل فئة من الناس تفسر القرآن حسبما يلائم هواها او مصلحتها .

ان الذي يحصل بين الناس عند تفسيرهم للقرآن هو نفسه الذي يحصل بينهم في قاعات المحاكم ، فهناك قوانين مكتوبة سنتها الدولة لفض المنازعات بين الناس ، ولكن الناس يختلفون في تفسير تلك القوانين حسبما توحي به مصالحهم المتناقضة . ولا بد ، اذن ، من وجود قاض يقضي بين الناس في منازعاتهم ، وبغير ذلك فان المنازعات بينهم لا تنتهي عند حد ، وكثيراً ما تؤدي الى سفك الدماء .

وهنا يجب ان لا ننسى ان وجود القاضي لا يكفي وحده لحل التنازع بين الناس ، ولا بد ان يكون معه جهاز حكومي يعمل على تنفيذ حكم القاضي بالقوة على المتنازعين .

ان وجود المحاكم من غير وجود أجهزة قادرة على تنفيذ قراراتها يجعلها غير مجدية . وهذا هو ما رأيناه واضحاً في النزاع الدولي . ففي العالم ، اليوم ، مؤسسات للنظر في منازعات الدول ، كمجلس الامن وغيره ، ولكن هذه المؤسسات لم تتمكن من منع الحروب بين الدول ، وذلك لعدم وجود جهاز دولي قادر على تنفيذ القرارات الصادرة منها بالقوة .

س: أريد ان انتهز هذه الفرصة لأسألك عن السبب الذي جعل البشر عاجزين ، حتى الآن ، عن ابتكار وسيلة عملية لمنع الحروب بين الدول مع العلم انهم تمكنوا من ابتداع هذه الحضارة المدهشة التي نعيش فيها ؟

ج : أحب ان أنقل هنا فقرة كنت قد ذكرتها في كتاب لي صدر في عام ١٩٧١ ، وهذا نصها :

« ان العقل البشري استطاع أن يبتكر أعجب الأسلحة وأشدها فتكاً ، ولكنه لا يزال في منازعاته يفكر على نمط ما كان عليه الاسلاف الغابرون . وهنا يكمن الخطر الأكبر ! فطبيعة التنازع في الانسان لم تتغير انما تغيرت الاسلحة ، التي يستعملها الانسان في تنازعه . فلقد تحول السيف والرمح والسهم في يد الانسان الى طائرات وصواريخ وقنابل نووية . ونحن نخشى ان يبتكر العقل البشري أسلحة أفظع من هذه ثم يظهر في احدى الدول زعيم من طراز هتلر فينسف الكرة الأرضية نسفاً ! اننا لا يجوز ان نثق بالانسان حين نراه ينادي بالحق او العدل او غيرهما من المثل العليا ، فهو انما ينادي بتلك المثل حين تكون نافعة له ، وهو ينساها حين تكون نافعة لخصمه . فلو ترك البشر من غير قوة قاهرة تفرض السلم عليهم فرضاً لظلوا يتحاربون وهم يعتقدون أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل » .

لو درسنا التاريخ الاجتماعي للبشر من حيث تطور منازعاتهم وكيف حاولوا حلها لرأينا انهم مروا بمراحل ثلاث هي كما يأتي :

١ – المرحلة القبلية التي سبقت ظهور الدولة .

٢ – مرحلة ظهور الدولة في طورها الاستبدادي القديم .

٣ – مرحلة ظهور الديمقراطية الحديثة .

ان الدولة ظهرت لاول مرة في التاريخ قبل ستة آلاف سنة تقريباً . ومن الممكن القول ان ظهورها خطوة تقدمية كبرى في تاريخ البشر ، فقد كان البشر يعيشون قبل ظهور الدولة في طور النظام القبلي الذي يتميز بالغزو والنهب ولا يساعد على نشوء الحضارة ونموها . وجاءت الدولة اخيراً فقضت على النزاع القبلي وساعدت على نمو الحضارة ، غير أنها كانت ، في الوقت نفسه ، استبدادية ظالمة تتيح لفئة صغيرة من الناس ان تتنعم وتجري وراء ملذاتها بلا حدود على حساب الاكثرية الكادحة منهم .

وبعبارة اخرى ان ظهور الدولة في التاريخ البشري له جانبان حسن وسيء . فالدولة قضت على المنازعات القبيلة من جانب غير انها من الجانب الآخر خلقت النظام الطبقي والاستغلال .

ان الاستبداد والاستغلال والتمايز الطبقي لم يكن لها وجود ظاهر في المرحلة القبيلة السابقة ، لأن رئيس القبيلة يستمد سلطته من التفاف أفراد القبيلة حوله وليس من وجود قوة لديه يفرض بها ارادته عليهم . ان الرئيس القبلي هو أقرب الى الديمقراطية من الحاكم في الدولة .

ولكن الحاكم مع ذلك له دوره في تطوير المجتمع وتمدينه . وفي هذا يظهر مصداق كلمة الإمام علي : « ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم » .

ظلت الدولة القديمة تحكم الناس طوال القرون القديمة والوسطى ، وفي أثناء ذلك كان الحاكم يستغل جهود الكادحين في ملذاته الخاصة من جهة ، غير انه من الجهة الأخرى كان يمنعهم من الإعتداء بعضهم على بعض عن طريق المحاكم وأجهزة الشرطة وغيرها .

وجاءت أخيراً مرحلة الديمقراطية الحديثة ، حيث اجتمع فيها منع الاستغلال الحكومي وضبط الأمن العام في آن واحد . ولا حاجة بنا الى القول ان ظهور الديمقراطية الحديثة لايقل في أهميته الاجتماعية عن ظهور الدولة . فان الدولة قضت على التقاتل القبلي ، بينما الديمقراطية قضت على التقاتل السياسي .

ان الحاكم الديمقراطي الحديث لا يستطيع ان يشتري آلاف الجواري من أموال الأمة على نحو ما كان يفعل الحاكم القديم . وذلك لوجود حزب معارض يراقبه ويبحث عن زلاته لكي يعلنها على الناس مما يؤدي الى سقوط الحاكم عند اجراء الانتخاب . فمن طبيعة الانسان انه لا يرتدع من تلقاء نفسه عن الاستغلال او التمادي في التلذذ ، ولا بد له من رادع يهدده بالعقوبة الرادعة من خارج نفسه ، ان العقل البشري قادر ان يختلق الحجج التي يتذرع بها الانسان لتبرير أي عمل يقوم به مهما كان سيئاً .

ان الحاكم القديم كان له معارضون يبحثون عن زلاته ولكن هؤلاء المعارضين لم يكونوا قادرين على إسقاط الحاكم الا عن طريق الثورة المسلحة ، وهي الثورة ، التي تؤدي ، في كثير من الأحيان ، الى الفوضى وسفك الدماء . أما الحاكم الحديث فان المعارضين له قادرون على إسقاطه بسهولة عن طريق اوراق التصويت . ومعنى هذا ان اوراق التصويت قد حلت في هذا العصر محل السيوف في العصور القديمة .

من الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الديمقراطية الحديثة على الرغم مما فيها من مزايا لم تستطع ان تقضي على الحروب . فان الدول الديمقراطية الحديثة ما زالت تتحارب على نحو ما كانت تفعل الدول الاستبدادية القديمة .

إن البشر ، اليوم ، في حاجة ملحة الى قيام مؤسسة عالمية قادرة على فض المنازعات الدولية بالقوة ، على نحو ما تفعل المحاكم المحلية تجاه المنازعات الشخصية . فهل سوف يتحقق ذلك ، في يوم من الأيام في المستقبل القريب او البعيد .

س : انك ذكرت سابقاً عن جانبين من الجوانب السلبية في العقل البشري . والرجاء منك الآن التحدث عن جانب آخر من تلك الجوانب لكي نكون على بصيرة من أمرنا ؟

ج : أعـتاد الناس قديماً ، وما زالوا ، على مقاومة كل دعوة إصلاحية جديدة تظهر فيهم ، وهذه ظاهرة عامة نلاحظ اثرها في كل زمان ومكان ، وقد أشار القرآن اليها في عدد غير قليل من آياته حيث ذكر ان أكثر الناس يقاومون دعوة نبي يظهر فيهم لمجرد انها تخالف ما وجدوا عليها آباءهم .

من طبيعة الانسان انه عندما ينشأ منذ طفولته على معتقدات وقيم معينة في بيئته المحلية يتصور انها أفضل المعتقدات والقيم في العالم ، وهو لذلك يسخط على أية دعوة جديدة تدعو الى مخالفتها او إصلاحها .

ان المعتقدات والقيم التي ينشأ عليها الانسان قد تكون في بعض الأحيان سخيفة جداً

او ضارة بالفرد والمجتمع . ولكن عقل الانسان يعجز في الغالب عن إدراك هذا السخف او الضرر فيها . فهو يركز نظره على معائب المعتقدات والقيم الموجودة في الطوائف الأخرى ، أما معائب طائفته فهو يغض النظر عنها او يحاول تبريرها بمختلف الأدلة « النقلية » و « العقلية » .

ان هذا ناموس بشري عام يخضع له أكثر الناس ، وهو يجب ان يعرفه كل من يريد ان يقوم بأية حركة إصلاحية او تجديدية ، صغيرة او كبيرة ، انه يجب ان يتوقع ظهور الخصوم تجاه حركته كما يتوقع تأييد أكثر الناس لهم .

ان الذي يسعى نحو الاصلاح الاجتماعي وهو يحسب ان الناس كلهم سيؤيدونه حباً بالإصلاح لا بد ان يبوء بالفشل الذريع .

س : قرأنا شيئاً من مذكراتك التي نشرتها مجلة « التضامن » في لندن ، وقد ذكرت فيها ما جرى من ضجة في العراق في عام ١٩٢٩ على أثر ظهور دعوة اصلاحية قام بها عالم ديني هو السيد محسن الأمين العاملي ، وكيف ان أكثر الناس قاوموها ولم يؤيدها الا القليل منهم . فالرجاء ان تذكر لنا مزيداً من التفاصيل عنها وكيف كان موقفك أنتَ منها ؟

ج : إني كنت حينذاك في السادسة عشرة من عمري ، وكنت صانع عطار في محلة الانباريين في الكاظمية ، وكنت أشاهد الناس حولي في هرج ومرج ، فالمؤيدون للدعوة قليلون ، والمقاومون لها كثيرون ، والواقع أني كنت من المؤيدين للدعوة في قلبي ولكنني كنت أخشى من غضب الناس فلا أبوح بما في قلبي إلا لمن أثق به .

كنت حريصاً على جمع كل ما صدر في تلك الضجة من كتب ومنشورات وفتاوي . وما زلت محتفظاً بها في مكتبتي وأحاول المطالعة فيها بين حين وآخر بغية التفرج على مهزلة العقل البشري .

اتيح لي في الاربعينات ان أزور السيد محسن في مقره في دمشق غير مرة ، وقد حدثني هو عن امور حدثت في تلك الضجة لم أكن أعرفها من قبل . ثم اطلعت بعدئذٍ على المذكرات التي كتبها السيد محسن عن سيرة حياته فكانت هذه المذكرات بمثابة درس عظيم لي عن هذه الدنيا التي نعيش فيها .

ان السيد محسن كان من المصلحين الكبار في عصره وقد أشرت الى ذلك في بعض كتبي واعتبرته في نزعته الاصلاحية موازياً للشيخ محمد عبده . فكلاهما كانا يدعوان الى تنقية الاسلام مما لحق به على توالي الأيام من إنحرافات أبعدته عن روحه الأصلية .

ان السيد محسن كان يدعو الى إصلاح المواكب والطقوس التي اعتاد العوام على القيام بها في شهر محرم احتفالاً بذكرى مقتل الحسين ، فهي طقوس أساءت الى سمعة الإسلام علاوة على مخالفتها لتعاليمه . وكان السيد محسن يملك من الجرأة ما مكنه من اعلان دعوته الإصلاحية دون خشية من العوام .

والواقع ان مقاومة الدعوة التي قام بها هذا الرجل لم تقتصر على العوام وحدهم . بل هي شملت كثيراً من المتعلمين ورجال الدين . وهذا هو ما حصل في جميع الدعوات الاصلاحية في جميع الأزمان . فالعوام انما يقاومون الدعوة الجديدة تحت تأثير المعتقدات التي نشأوا عليها ، اما المتعلمون فهم يقاومونها من أجل نيل المكانة العالية بين العوام .

ومن الجدير بالذكر في هذا الشأن ان كثيراً من المتعلمين هم عوام في أعماق عقولهم ، فهم يحفظون بعض المعلومات الدينية او العلمية ويتحذلقون بها أمام الناس ، ولكنهم في حقيقة أمرهم لا يختلفون عن العوام من حيث تمسكهم بكل ما نشأوا عليه من معتقدات وقيم ولسان حالهم يقول : « انا وجدنا أباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون » .

س : إذا كان أكثر الناس يقاومون الدعوات الجديدة وأقلهم يؤيدونها فهل هناك مقياس يمكن ان نقيس به عقلية أي واحد منا لنعرف هل سيكون من الأقلية التي تؤيد الدعوات الجديدة أو الأكثرية التي تقاومها ؟

ج : أن أكثر الناس حين يذكرون الدعوات النبوية او الإصلاحية التي ظهرت في الماضي يظنون انهم لو كانوا يعيشون في زمن تلك الدعوات لأسرعوا حالاً الى تأييدها والى بذل أرواحهم وأموالهم في سبيلها . انهم لا يدرون انهم لو كانوا يعيشون في زمن تلك الدعوات فعلاً لصاروا من خصومها والمضطهدين لها . فهم من حيث طبيعتهم البشرية لا يختلفون عن الذين كانوا يعيشون في زمن الدعوة . فالبشر هم البشر في كل زمان ومكان . ولو كان أي واحد منا يعيش في نفس الظروف التي عاش فيها الغابرون لصار مثلهم في تفكيره وسلوكه .

خذْ مثلاً أهل مكة الذين كانوا يعيشون في زمن الدعوة المحمدية ، فهم قد نشأوا منذ طفولتهم على عبادة الأوثان ، وشهدوا آباءهم يقدسون الأوثان فقدسوها معهم كغيرهم من أبناء بيئتهم ، ولما ظهر النبي محمد (ص) بدعوته وأخذ يشتم الاوثان ويدعو الى ترك عبادتها شعروا بالبغض له ولدعوته وفعلوا به ما فعلوه كما هو معروف .

من الحقائق التاريخية المعروفة انه لم يدخل في دين محمد (ص) طيلة السنوات التسع الاولى مـــن بداية دعـــوته سوى اربعين . وهنا يواجه السؤال أي واحد منا : هل سيكون

من بين اولئك الأربعين لو كان يعيش في زمن الدعوة المحمدية او يكون مثل غيره من جماهير الناس الذين كذبوا النبي وقذفوه بالأحجار ؟؟

ان كل واحد منا يتصور نفسه انه سيكون من بين الأربعين حتماً . وهو انما يتصور ذلك لأنه نشأ في بيئة تقدس النبي محمداً (ص) ولو انه كان قد نشأ في بيئة تقدس الأوثان لكان سلوكه وتفكيره من نمط آخر .

كنت أتحدث ذات يوم مع احد المتعلمين المتحذلقين وجرت بيني وبينه مناقشة حول المقاومة الشديدة التي ثارت ضد الدعوة المحمدية عند ظهورها ، فأخذ هو يبدي دهشته من تلك المقاومة وانتقد عقول القائمين بها قائلاً : « كيف يمكن لعقل اي انسان ان يعبد وثناً يصنعه بيده ويترك عبادة الله الواحد القهار ؟ ! »

اني أعرف هذا الرجل معرفة شخصية وأعرف انه من المتعصبين لجميع المعتقدات والطقوس التي نشأ عليها . واستطيع ان أقول ان بعض المعتقدات والطقوس التي يتعصب لها لا تقل في سخفها عن عبادة الأوثان ولكنه بالرغم من ذلك يعتبرها من أفضل المعتقدات والطقوس في العالم ، وهو مستعد ان يأتي بالعديد من الأدلة « النقلية » و« العقلية » لتأييد صحتها وانا واثق ان هذا الرجل لو كان يعيش في زمان الدعوة المحمدية لكان من خصومها .

أن خير مقياس نستطيع ان نقيس به اي إنسان لنعرف هل هو من المقاومين للدعوات الجديدة او من المؤيدين لها هو ان نناقشه في المعتقدات التي نشأ عليها ، فإذا رأيناه يتعصب لها كلها بغض النظر عما فيها من سخف او مضرة جزمنا بأنه سيكون من المقاومين للدعوة الجديدة على وجه من الوجوه .

إني عندما أتذكر الأيام التي ظهرت فيها الحركة الإصلاحية التي قام بها السيد محسن الأمين أشعر كأن التاريخ يمر أمامي ، وان البشر في حاضرهم لا يختلفون عن البشر الماضين ، وأتذكر قول الشاعر

الناس كالناس والأيام واحدة   والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

س : ان اختلاف وجهات النظر امر معروف بين الناس منذ قديم الزمان ، ولكنك تعده من مظاهر محدودية العقل البشري ، او من الجوانب السلبية فيه ، فكيف تفسر ذلك ؟

ج : من طبيعة الناس في كل زمان ومكان انهم لا يمكن ان يتفقوا كلهم على رأي واحد ، وهـــم لا بد ان يخـتلفوا في آرائهم ووجهات نظرهم . ومن هنا جاء المثل القديم وهو : « رضا الناس غاية لا تدرك » . فلم يظهر في تاريخ البشر شخص او شيء رضي الناس

عنه جميعاً ، ولكن الفرق بين شخص وآخر في ذلك هو في نسبة عدد الراضين عنه الى عدد الساخطين عليه .

ان الناس بوجه عام لا يمكن ان يجروا في تفكيرهم على نسق واحد . فكل واحد منهم حين يفكر لا بد ان يكون تفكيره متأثراً ببعض العوامل اللاشعورية من حيث يدري او لا يدري ، كالمعتقدات والقيم التي نشأ عليها في بيئته المحلية ، والعاطفة المسيطرة عليه ، والمصلحة التي يسعى نحوها ، وسعة المعرفة التي يملكها ، ودرجة الذكاء الموروثة فيه ، والتجارب المنسية التي مرت به في حياته ، والعقد النفسية ، وما أشبه .

ان هذه العوامل موجودة في كل انسان وهي تؤثر في تفكيره ، غير انها تختلف في تأثيرها من شخص لآخر ، فكلما كان الشخص أكثر ذكاءاً ومعرفة وتحرراً ، وأقل تقوقعاً وانعزالاً ، وأضعف في تعصبه وعقده النفسية ، كانت العوامل اللاشعورية أضعف تأثيراً فيه ، ولكنها على أي حال موجودة ، لا يمكن ان يخلوا منها اي انسان خلواً تاماً .

مشكلة الانسان بوجه عام انه لا يدري بتأثير تلك العوامل فيه الا نادراً . فإذا جادلته قال انه حر مطلق في تفكيره وانه لا يطلب سوى الحق والحقيقة .. ومن الممكن القول انه صادق فيما يقول لأنه لا يعرف شيئاً عن العوامل المؤثرة في تفكيره ، اذ هي عوامل لا شعورية – كما أشرت اليه آنفاً .

ان الانسان حين يشهد حادثة من الحوادث لا يلتقط عقله منها الا نقاطاً معينة هي تلك النقاط التي تحددها عوامله اللاشعورية ثم يكمل الصورة من خياله ، خذ مثلاً حادثة شجار عنيف وقع في الشارع وشاهده جمهور من الناس . فلو سألنا المشاهدين بعد انتهاء الحادثة عما شاهدوه منها لكانت اجوبتهم مختلفة قليلاً او كثيراً ، ولا يمكن ان تكون على صورة واحدة .

ان كل واحد منهم حين كان ينظر الى الحادثة كان تحت تأثير بعض العوامل اللاشعورية التي تجعله يتحيز نحو احد المتشاجرين ضد الآخر ، وهذا التحيز لا بد ان يؤثر في تكوين الصورة التي يأخذها عن المشاجرة على وجه من الوجوه .

لنفرض ان أحد المتشاجرين كان عدواً للمشاهد او منتمياً الى جماعة معادية ، أو كان رث الثياب قذراً دميماً ، او تفوه في أثناء المشاجرة بكلمات لا يستحسنها المشاهد ، او كان في مشاجرته يطالب بأمر مخالف لمصلحة المشاهد او عاطفته .. فانه يكون في نظر المشاهد هو المعتدي كما يكون خصمه المعتدى عليه .

ان هذا التحيّر العقلي نراه واضحاً في شهادات الشهود في المحاكم . والمعروف عن القضاة انهم يرتابون في صحة الشهادات التي تكون متطابقة حول حادثة من الحوادث ، وهم قد يعزون هذا التطابق الى تدبير مبيّت من صاحب القضية .

ويمكن ان نقول مثل هذا عن الروايات التي يسجلها المؤرخون حول الحوادث التاريخية فهي مختلفة ولا بد ان تكون مختلفة . ويعجبني في هذا الصدد المؤرخ العربي المشهور ابن جرير الطبري . فهذا المؤرخ حرص على تسجيل الروايات التاريخية كما وردت على لسان رواتها دون تغيير او تبديل ، وهو بذلك قد أتاح للباحثين المحايدين الذين يأتون بعده ان يأخذوا عن أحداث التاريخ صوراً قريبة من الواقع .

س : إذا كان الرواة يختلفون في رواياتهم التاريخية كما تقول فكيف يمكن للباحث او المؤرخ المحايد ان يتوصل الى الصورة الحقيقية للأحداث التاريخية اذن ؟

ج : أود في هذه المناسبة ان أذكر بيتين من الشعر للرصافي حول روايات التاريخ ، وهما كما يلي :

وما كتب التاريخ في كل ما روت	لقــرائها الا حديث مـلفق
نــظرنا لأمــــر الحـاضرين فرابنا	فكيف بأمر الغابرين نصدّق

ان الرصافي هنا يشير الى إختلافات الروايات عن الأحداث التي عاصرناها ، وهي تحتوي على كثير من الخطأ والمبالغة ، فكيف نصدق اذن بالروايات التي تنقل لنا أحداثاً وقعت في القرون الغابرة .

ان قول الرصافي هذا لا يخلو من شيء من الحقيقة ولكنه لا يمثل الحقيقة كلها ، فان اختلاف الروايات التاريخية قد تساعد الباحث المحايد على تحري الحقيقة الوسطى التي تكمن وراءها .

خذ مثلاً أحداث الحرب العالمية الثانية ، فنحن قد عاصرناها ورأينا كيف كانت الدول المتحاربة حينذاك تصورها حسب أهوائها . ولكننا بعد مرور الزمن وانكشاف الوثائق وظهور المذكرات بدأنا ندرك ما كان يختفي وراء الدعايات المتناقضة من اعماق خفية .

يمكن تشبيه كل حادثة من حوادث التاريخ بالهرم ذي الأوجه المختلفة ، فكل فريق من الناس ينظر الى الهرم من الجانب الذي يوافق هواه ويترك الجوانب الأخرى . ثم يأتي الباحث والمؤرخ المحايد بعدئذٍ فيستعرض الجوانب المختلفة بمقدار جهده ليستخرج منها الصورة الوسطى التي تمثل الهرم كله .

س : انك تصف المؤرخ او الباحث بأنه محايد وتنسى انه بشر كغيره من البشر يخضع للعوامل اللاشعورية الّتي ذكرتها . فكيف يستطيع ان يكون محايداً اذن ؟ !

ج : المسألة هنا نسبية وليست مطلقة . فالبشر ليسوا كلهم متحيزين في نظرتهم الى الأمور على درجة واحدة . وقد أشرت الى ذلك من قبل .

فمنهم من هو متحيز ومتعصب الى الدرجة التي لا يستطيع ان يرى من الدنيا إلا ما توحي به أهواؤه ومعتقداته التي نشأ عليها ، ومنهم من هو على النقيض من ذلك إذ هو قادر ان ينظر في الدنيا نظراً مرناً متحرراً الى حد كبير . وبين هذا وذاك درجات شتى .

أن الباحث الموضوعي الخالي من التحيز خلواً تاماً غير موجود في البشر . ولكننا مع ذلك نستطيع ان نجد بين الباحثين من وصلوا في موضوعيتهم الى درجة عالية .

ان الباحث في ذلك كالقاضي ، فليس في هذه الدنيا قاض عادل عدلاً مطلقاً ، ولكن القضاة مع ذلك يتفاوتون في درجة قربهم او بعدهم عن العدل المطلق قليلاً او كثيراً .

س : أرجو إعطاءنا نموذجاً لما ينبغي ان يكون عليه البحث الموضوعي في حادثة مهمة من حوادث تاريخنا المعاصر .

ج : ان خـير نموذج يمكن ان نأتي به في هذ الشأن هو حركة أيار ١٩٤١ المعروفة باسم « حركة رشيد عالي الكيلاني » . فهذه الحركة وصفها مؤيدوها على النقيض مما وصفها خصومها .

فالمؤيدون بالغوا في ذكر محاسنها بينما الخصوم بالغوا في ذكر مساوئها وهذا ليس بالأمر الغريب في البشر ، وفيه مصداق لما ورد في احد أمثالنا العامية وهو : « حب واحكي واكره واحكي » ، أو ما قاله الإمام الشافعي في بيت له من الشعر مشهور وهو :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا

وهنا يأتي دور الباحث الموضوعي إذ هو يدرس جميع الأقوال التي قيلت في تلك الحركة سلباً وايجاباً ، ويزن كل قول فيها وزناً لا تحيز فيه بمقدار جهده ، من أجل التوصل الى الحقيقة الوسطى فيها .

س : إسمح لي ان أعترض عليك في شأن حركة أيار ١٩٤١ فأنك تفترض في الباحث الموضوعي ان يدرس ما قاله الخصوم فيها كمثل ما يدرس ما قاله المؤيدون ، وهذا امر لا نقبله منك لأن هذه الحركة من الحركات الوطنية التي نفتخر بها ولا يجوز ان نعير اهتماماً لما قاله الخصوم عنها وهم في الغالب من الاستعماريين وأعداء الوطن فما قولك في هذا ؟

ج : ان هذا موضوع طويل متشعب لا يسع المجال التفصيل فيه . وقد يكفي هذه المناسبة ان أقول ان حركة أيار وحركات التاريخ جميعاً لا يمكن ان تخلو من بعض الجوانب السلبية قليلاً أو كثيراً .

أما التركيز على الجوانب الايجابية منها فقط فهو يؤدي الى وضع صورة عنها لا تخلو من غلو او خطأ .

ان المقصود من دراسة التاريخ هو لكي نستمد منه الدروس التي تساعدنا على فهم واقعنا وعلى تجنب الأخطاء التي وقع فيها الماضون .

إني أحترم رأي الذين يكتبون التاريخ من أجل إثارة الحماس والفخار في شعوبهم . ولكنني مع ذلك لا أتفق معهم في التمادي في ذلك بلا حدود فالحماس والبحث الموضوعي كل منهما له دوره في الحياة ، فلا خير في أمة لا حماس فيها كما لا خير في أمة يسيطر الحماس على تفكيرها كله !

وخير الأمور أوسطها .

حول الأنوية

س : الملاحظ ان مصطلح « الأنوية » الذي تؤكد عليه في كتاباتك لم يتطرق اليه احد قبلك في اللغة العربية . فهو مصطلح جديد علينا . فاذا كانت الانوية حسب قولك تمثل أحد المحاور الثلاثة التي تدور حولها الطبيعة البشرية فما هو السبب الذي جعلها غير معروفة لدينا سابقاً ؟

ج : ان الأنوية مصطلح جديد ليس في اللغة العربية وحدها بل هو جديد أيضاً في جميع اللغات تقريباً ، وقد بدأ الباحثون النفسيون والاجتماعيون يولونها شيئاً من الاهتمام منذ بداية هذا القرن ، ثم أخذ الاهتمام بها يزداد تدريجياً بمرور الأيام ، غير ان الكتاب العرب لم يولونها اي اهتمام لأنهم كانوا مشغولين بأمور أخرى مع الأسف الشديد !

ان المواضيع التي تهتم بها مجلاتنا وصحفنا وكتبنا تدور في معظمها حول الأدب والشعر . ونحن لا نريد ان نبخس الأدب والشعر حقهما ولكننا نرى أنهما يأخذان من اهتمام كتابنا ومؤلفينا نصيباً أكبر مما ينبغي لهما .

اننا نسير الآن في طريق الحضارة الحديثة ، ويجب ان نعلم ان هذه الحضارة تقوم على أساس من التفكير الموضوعي الذي لا تتدخل العاطفة فيه .. وارجو ان لا يغضب الشعراء والأدباء مني اذا قلت ان الأدب بوجه عام ، والشعر بوجه خاص يقوم على أساس من العاطفة والحماس . فإذا أحب الشاعر شخصاً او شيئا صعد به الى عنان السماء وجعله مليئاً بالمناقب خالياً من المثالب ، أما اذا أبغضه فعل به على النقيض من ذلك ..

لا حاجة بنا الى القول ان الاتجاه العلمي الحديث الذي تقوم عليه الحضارة الآن يسير على منهج آخر هو منهج الحياد والموضوعية في النظر الى الأمور . فكل أمر في هذه الدنيا لا بد ان تكون فيه جوانب ايجابية وسلبية معاً . فالكمال لله وحده كما قيل قديماً . ومن واجب الباحث العلمي اذا درس أمراً من الأمور ان يتحرى فيه جميع الجوانب الايجابية والسلبية بمقدار جهده لكي يستطيع ان يفهمه فهماً حقيقياً . أما إذا كان كالشاعر يركز نظره على الجوانب الايجابية فقط او الجوانب السلبية فقط فإنه يعطينا صوراً مشوهة عن الدنيا وبذا يجعلنا نعيش في عالم من الأوهام بعيد عن واقع الحياة .

س : نعود الى موضوع الأنوية ، فما هو معناها العلمي ولماذا هي أحد المحاور الثلاثة

التي تدور حولها الطبيعة البشرية ؟

ج : يقصد بالأنوية شعور الانسان بذاته - أي بأناه - تجاه الآخرين من بني نوعه ، وهو الشعور الذي يجعل الانسان يسعى دائماً نحو رفع مكانته في نظر الناس وكسب تقديرهم واعجابهم .

ان شعور الانسان بذاته ليس قائماً في فراغ بل هو مرتبط بالشعور بالغير . فليس في مقدور الانسان ان يشعر بذاته ما لم يتصور شخصاً او أشخاصاً ينظرون اليه ويقيمونه .

ان لفظة « الأنوية » هي كلفظة « الأنانية » نسبة الى الأنا ، ولكن بينهما فرقاً كبيراً في المعنى ، فالانسان بوجه عام أنوي وليس انانياً . فالمعنى المتداول بين الناس عن الأنانية هو انها تجعل الانسان يهتم بمصلحته الخاصة فقط ولا يهتم بمصلحة الآخرين ، وهذه صفة لا تظهر الا في بعض الأفراد الشاذين غير الأسوياء . أما الأسوياء من الناس فهم الذين تكون مصالحهم ومصالح الآخرين مترابطة ، فالواحد منهم يميل عادة الى خدمة الناس ومراعاة مصالحهم بغية كسب تقديرهم ونيل المكانة العالية فيهم وإذا ظهر منهم شخص يركز كل اهتمامه على نفسه فقط ولا يبالي بالآخرين أصبح منبوذاً من الناس ولا بد ان يكون مصيره في الحياة الفشل الذريع .

ان الأنوية هي من المزايا التي يتميز الإنسان بها عن الحيوان ، فالحيوان ليس لديه شعور بالأنا وهو لذلك لا يهتم بمن حوله من أبناء نوعه من حيث احترامهم له او احتقارهم . فتراه يتغوط او يتناكح او يهرب من الخطر دون ان يبالي بهم او بمبلغ تقديرهم له سلبياً او ايجابياً .

ان الحيوان لا يهتم الا بسد حاجاته البدنية فقط كالغذاء والدفء وتجنب الألم والخطر ، فاذا اكتفى بذلك اضطجع مطمئناً لا يبالي بشيء غيره . اما الانسان فهو لا يكاد يسد حاجاته البدنية حتى يبدأ بالتطلع نحو رفع مكانته في نظر الآخرين من افراد مجتمعه . وهذا التطلع في الانسان لا يقف عند حد معين : فالانسان لا يكاد يصل الى المكانة العالية التي كان يطمح اليها حتى يبدأ بالسعي نحو مكانة أعلى منها . وهو يظل هكذا راكضاً لاهثاً طيلة حياته حتى يدركه الموت أخيراً فيستريح به ويريح .

يمكن اعتبار الانوية من أهم العوامل التي جعلت الانسان حيواناً اجتماعياً . فالانسان ليس لديه غريزة موروثة تجعله اجتماعياً بطبيعته . وقد أخطأ المفكرون القدامى حين عزوا الطبيعة الاجتماعية في الإنسان الى غريزة موروثة فيه . فلو نشأ اي فرد بشري بين الحيوانات منذ ولادته لصار مثلها في سلوكه ، وقد عثر الباحثون على أفراد من هذا النمط كما هو مدون في المصادر العلمية .

ان الغريزة الاجتماعية لا تظهر الا في بعض الحشرات كالنحل والنمل والأرضة . فالنحلة مثلاً حين تقوم بأعمالها الاجتماعية كبناء الخلية او جمع العسل انما تتحرك كالآلة المهيأة بدافع الغريزة الموروثة فيها دون وعي منها او ارادة . فاذا ظهر مانع في طريق عملها شعرت هي بالتوتر وصارت تكافح من اجل إتمام عملها بكل جهدها .

اما الانسان فهو يختلف عن النحلة في ذلك ، اذ هو يندفع في نشاطه الاجتماعي تحت تأثير شعوره بالأنا في الغالب فهو يقوم بالعمل الذي يكسب تقدير الآخرين له او يجنبه احتقارهم . وهذا هو الذي جعل البشر يختلفون في سلوكهم وتفكيرهم من مجتمع لآخر تبعاً لما ينشأون عليه من قيم اجتماعية مختلفة .

كان العرب في الجاهلية يصفون صاحب المكانة العالية بأنه يشار اليه بالبنان ، ويقصدون بذلك انه ذائع الصيت والشهرة بحيث يشير الناس اليه بأيديهم عند مروره بهم ، ان هذا في الواقع هو ما يطمح اليه كل انسان في جميع المجتمعات البشرية ، ولكن الرمز يختلف من مجتمع الى آخر حسب مستواه الحضاري . ففي المجتمعات المتقدمة لا يكتفي الانسان بان يشير الناس اليه عند مروره بهم ، بل هو يطلب الجاه والسمعة بوسائل اخرى هي الوسائل التي وفرتها الحضارة الحديثة كالصحافة والإذاعة والتلفزة وغيرها .

وهناك مثل عربي اخر له صلة بهذا الموضوع وهو المثل الذي انتشر بين البدو بعد دخولهم في الاسلام ، وهو قولهم : « النار ولا العار » .. ومعنى هذا المثل ان البدوي يفضل دخول النار في الأخرة على نيل العار في الدنيا . فالعار لا يستطيع البدوي احتماله في حياته لأنه يهبط بمكانته الاجتماعية الى الدرجة القصوى . ومن الممكن القول ان البشر جميعاً هم كالبدو في ذلك وان كانوا على درجة أقل فيه . وهذا هو السبب الذي جعل أكثر الناس يتبعون القيم الاجتماعية السائدة في محيطهم المحلي اكثر مما يتبعون المواعظ الدينية التي تلقي عليهم من على رؤوس المنابر . فالقيم الاجتماعية هي التي تمنح الإنسان المكانة العالية التي يطمح اليها بينما المواعظ الدينية لا تجدي في ذلك الا قليلاً . وهذا هو ما رأيناه واضحاً في العراق في العهد العثماني اذ كان الناس يقدرون « الشقي » الذي يحترف السطو على البيوت وقطع الطرق والاعتداء والقتل ما دام هو في محلته شهماً مغواراً يحمي الجار . فهذه القيم تخالف تعاليم الدين ولكن الناس كانوا بالرغم من ذلك يعجبون بمن يتصف بها ويشيرون اليه بالبنان .

من الجدير بالذكر ان المفكرين القدماء لم يكونوا يعيرون موضوع الانوية أي اهتمام او هم كانوا لا يعترفون بوجودها في الانسان . ولهذا كانت معظم كتاباتهم وخطاباتهم تصب

في قالب المواعظ المثالية دون اهتمام بالقيم الاجتماعية السائدة بين الناس ، فهم كانوا يعيشون في عالم آخر غير العالم الواقعي الذي يعيش فيه الناس ، وظلوا يصبون مواعظهم على رؤوس الناس على توالي الأجيال دون جدوى .

س : ما هـــي الخلاصة التي نستخلصها من هذا الكلام ونستفيد منها في حياتنا العملية ؟

ج : ان كـــثيراً من كتابنا ومؤلفينا ووعاظنا يغفلون عن اهمية الانوية في طبيعة الانسان . فهم يخاطبون الانسان او يجادلونه عن طريق الأدلة العقلية ظناً منهم ان الانسان حيوان عاقل . وهذا هو ما يفعله بعض الاعلاميين أيضاً حيث نراهم يحاولون التأثير على الناس عن طريق الاناشيد والخطابات الرنانة والمقالات المتحذلقة ، وهم يكررونها مرة بعد مرة ظناً منهم انها ستغير تفكير الناس وسلوكهم حسبما يشتهون .

ان الذي يريد التأثير في الناس يجب ان يدرس أعماق نفوسهم ويعرف كيف يدغدغها . وهذا أمر ذكرته مراراً في مناسبات سابقة ، وسوف أعيد ذكره ، عسى ان يكون له شيء من الأثر قليل او كثير – قل ان شاء الله .

س : ما العلاقة بين الأنوية والقيم الإجتماعية ؟

ج : لكي نفهم طبيعة الانوية من حيث علاقتها بالقيم الاجتماعية يجدر بنا ان نعرف شيئاً عن النظرية التي جاء بها العالم الاجتماعي المعروف شارلس كولي في هذا الشأن . فهذا العالم توفي في عام ١٩٢٩ وما زالت نظريته تحظى باهتمام كبير في الأوساط العلمية . وأحاول فيما يلي ذكر موجز عنها عسى ان تكون ذات نفع للقارىء في حياته العملية :

فحوى نظرية كولي ان الشعور بالأنا يشبه نظرة الانسان الى نفسه في المرآة ، ولكن المرآة هنا تتمثل في المجتمع الذي يعيش فيه الانسان . فالانسان لا يشعر بذاته الا من خلال معاملة الناس له ونظرتهم اليه باحترام او احتقار . ومعنى ذلك ان الانسان ينظر الى نفسه من خلال ما يبدو له من تقدير الناس له ايجابياً او سلبياً .

يقول كولي ان الشعور بالأنا يتكون من ثلاثة عناصر ، او هو بالأحرى يتكون من ثلاث مراحل تتتابع على الانسان في لحظة واحدة . فالانسان اولاً يتخيل صورته في نظر الآخرين ، وهو ثانياً يتخيل انطباع الآخرين عنه حسناً أو قبيحاً ، وهو ثالثاً يشعر بالزهو او الهوان تبعاً لما يتخيل من انطباع الآخرين عنه .

وبعبارة اخرى : ان الشعور بالأنا ليس قائماً في الفراغ بل هو مرتبط بوجود الغير ارتباطاً عضوياً ، أي ان الأنا والغير متلازمان ومترابطان ولا وجود لأحدهما بغير وجود

الآخر . فأنت تشعر بذاتك حين تتصور شخصا أو أشخاصاً يحملون انطباعاً عنك ، ولذا فانك تقوم بالعمل الذي تظن انه يكسبك اعجاب الغير ، كما تتجنب العمل الذي تظن انه يجلب سخط الغير او احتقاره . وهذا هو الاساس الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية بوجه عام .

ان الإنسان حين يتصور انطباع الآخرين عنه قد يكون تصوره مشوهاً او مغلوطاً على نحو ما تكون صورة الإنسان في المرآة الملتوية . فهو قد يأخذ صورة عن نفسه عالية جداً . كما هو الحال في الشخص الزهوي ، او منخفضة جداً كما هو الحال في المصاب بعقدة النقص . وهو على كل حال يكون في سلوكه مع الناس متأثراً بما يتصوره من انطباعهم عنه عالياً أو منخفضاً .

وهنا نأتي الى العلاقة بين الأنوية والقيم الاجتماعية فالإنسان حين يطلب رفعة الأنا ويتجنب ما يؤدي الى انخفاضها لا يفعل ذلك بشكل مطلق بل هو يفعله حسبما توحي به القيم السائدة في مجتمعه المحلي .

اننا حين نقارن بين المجتمعات على مختلف مستوياتها الحضارية نجد الأنوية تلعب الدور الأول فيها جميعاً ولكن المجتمعات تختلف من حيث القيم السائدة في كل منها ، وهي القيم التي يجري تقييم الفرد بها احتراماً او احتقاراً .

خذ على سبيل المثال القيم السائدة في المجتمع البدوي فهذه القيم تتطلب من الرجل ان يكون كريماً مضيافاً ذا نخوة وشهامة في داخل قبيلته كما يكون شجاعاً جريئاً قادراً على الغزو والغلبة في خارج قبيلته . فإذا تفوّق الرجل البدوي في هاتين الخصلتين نال المكانة العالية في مجتمعه وذاع صيته وكثر اعجاب الناس به.

ان الطفل الذي ينشأ في مثل هذا المجتمع لا بد ان يقع تحت تأثير القيم السائدة فيه . فهو يرى الناس حوله يطنبون في مدح الرجل الذي تفوق في هاتين الخصلتين ، ويقومون له احتراماً ، ويوسعون له صدر المجلس ، ويفضلونه في الزواج على غيره ، وما أشبه . وهذا يجعل الطفل يتمنى من صميم قلبه ان يكون في كبره رجلاً من هذا الطراز ، وهو يحاول تقليده في سلوكه بمقدار جهده ، وليس عليه من لوم في ذلك . فنحن جميعاً نفعل فعله لو كنا نعيش في مثل ظروفه وتحت تأثير نفس القيم التي نشأ هو عليها .

إني أتذكر تلك الايام التي كان الناس في مجتمعنا يقدرون « الشقي » الذي يسطو على البيوت ويقطع الطريق ما دام في محلته شهماً مغواراً يحمي الجار – على نحو ما ذكرته في كلامي السابق ، فقد كان الشقي حينذاك له مشيته الخاصة به ومقامه المرموق ، وهو

يوصف عادة بأنه « سبع » و « زلمة » و « رجّال ليل » ، بينما كان الرجل المستضعف يوصف بأنه « مخنّث » و« مكفّخ » وتختزي منه اسرته ومحلته .

خلاصة القول ان الانسان في كثير من الأحيان لا ارادة له او اختيار في تعيين الهدف الذي يسعى اليه في حياته ، فالهدف انما تعينه القيم الاجتماعية السائدة في مجتمعه . وترى الانسان راكضاً لاهثاً وراء ذلك الهدف كأنه الفراشة التي تلقي بنفسها الى اللهب دون ارادة منها . فهو مسيّر ويحسب انه مخيّر .

س : اسمح لي ان أوجه اليك سؤالاً شخصياً قد يكون محرجاً لك . فانت تقول انك نشأت في مجتمع يقدر « الشقاوة » ، وكان المتوقع حسب قولك ان تكون في كبرك شقياً او تتمنى ان تكون شقياً ، لكننا رأيناك في ظاهرك بعيداً كل البعد عن الشقاوة وقيمها ، فهل معنى هذا ان قيم الشقاوة كامنة في أعماق نفسك ؟

ج : يجب ان لا تنسى ان المجتمع الذي نشأت فيه لم يكن الشقي وحده صاحب المكانة العالية فيه . فقد كان هناك بالاضافة الى الشقي أشخاص آخرون لهم مقامهم المرموق ، أذكر فيما يلي بعض النماذج الرئيسية منهم :

١ – رجال الدين وهم كانوا ينالون احترام الناس وتقديرهم باعتبارهم يمثلون الدين وتعاليمه ، وكثيراً ما كان الناس يلجأون اليهم لحل مشاكلهم الدينية والعائلية والاجتماعية وغيرها .

٢ – الأفندية وهم الذين كانوا يتولون الوظائف الحكومية ، وكانوا يتعالون على الناس ولهم نواديهم ومجالسهم الخاصة بهم ، وهم في الغالب قد تلقوا تعليمهم في المدارس الحديثة وكانوا يتحدثون ببعض المواضيع الحديثة التي لا يفهمها سواد الناس او يعتبرونها فوق مستواهم .

٣ – الوجهاء الذين يطلق عليهم لقب « أهل الجيب » ، وهم الذين إعتادوا على مصاحبة الأفندية والتزلف لهم . وكان الافندية يعينونهم اعضاء في المجالس البلدية او الإدارية او غيرها ، وهم كانوا كالافندية يتعالون على الناس ويشمخون بأنوفهم عليهم .

٤ – الوجهاء الاغنياء الذين كانوا يعتمدون على ثرواتهم في اقامة الولائم وتصدر المواكب والاجتماعات العامة وينالون بذلك تقدير الناس .

٥ – الشعراء وهم الذين اعتادوا على نظم القصائد في مدح الكبراء او في المناسبات العامة حيث ينالون بقصائدهم اعجاب الناس واستعادتهم لبعض الابيات منها على طريقة « احسنت أعد ! » .

إني عندما نشأت في هذا المجتمع كنت اتمنى ان اكون في كبري واحداً من هؤلاء المرموقين ولكني كنت أعلم ان ظروفي لا تسمح لي بذلك الا في نطاق محدود جداً ، وقد تركز أملي في بعض الأحيان على أن أكون شاعراً ، ونظمت بعض القصائد غير اني لم أوفق بها ، ثم ساقني القدر أخيراً الى ان أكون افندياً ، وهذا امر لم يكن بإرادة او اختيار مني بل ان الظروف التي أحاطت بي والمصادفات التي مرت بي هي التي دفعتني الى هذا المصير ، ان الإنسان في كثير من الاحيان كالريشة في مهب الرياح – والله هو المعين على كل حال ! .

س : أرجو ان تحدثنا عن تلك الظروف والمصادفات التي جعلتك أفندياً أخيراً ؟

ج : ان هذا موضوع طويل لا يسع المجال التفصيل فيه وكنت قد تطرقت اليه في مقالات نشرتها لي بعض الصحف والمجلات سابقاً ، وقد يكفي هنا ان أذكر عبارة ذكرتها سابقاً هي : « لولا وجود أنور باشا في تركيا في الحرب العالمية الأولى لكنت انا الآن عطاراً في احد أزقة الكاظمية او كاتب عرائض فيها على أحسن تقدير » .

قد تسألني عن العلاقة بين انور باشا في اسطنبول وعلي الوردي في الكاظمية ، فقد كان انور باشا في اثناء الحرب العالمية الأولى أقوى شخصية في الدولة العثمانية بينما كان علي الوردي طفلاً صغيراً يلعب مع أقرانه في الأزقة يحيط به الفقر والبؤس .. فكيف يمكن ان تنشأ أية علاقة بين هذين الشخصين ؟

للجواب عن هذا السؤال أقول ان أنور باشا كانت له اليد الطولى في ادخال الدولة العثمانية في الحرب كما شرحته في الجزء الرابع من كتابي « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث » ومن الممكن القول انه لولا وجود هذا الرجل في الدولة العثمانية لما دخلت تلك الدولة في الحرب ولبقي العراق جزءاً منها بعد انتهاء الحرب فترة من الزمن طويلة او قصيرة .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد اني وأمثالي من أبناء الفقراء لم يكن في مقدورهم في العهد العثماني ان يدخلوا المدارس الحديثة وان يكونوا افندية بعد تخرجهم فيها . فقد كان الافندية في ذلك العهد يمثلون طبقة شبه مغلقة لا يتاح الانتماء اليها الا لمن كان من ابناء الأفندية او أبناء الوجهاء المقربين منهم . ولو اني كنت قد ولدت قبل عشر سنوات من الوقت الذي ولدت فيه فعلاً لما اتيح لي ان أدخل في مدرسة حديثة او خطر ببالي ان اكون أفندياً في يوم من الأيام ، واني أعرف عدداً كبيراً من الأشخاص ولدوا قبلي بعشر سنوات او أكثر فاتخذوا مهن آبائهم او مهناً قريبة منها . ولكن القدر شاء لي ان أنشأ في عهد جديد يختلف عن العهد العثماني ، فصرت أفندياً مرموقاً « يشار اليه بالبنان » .

س : لو أنك أنت قد ولدت قبل عشر سنوات من مولدك الفعلي ، فهل كان من

المحتمل ان تكون شقياً « يشار اليه بالبنان » ؟

ج : إنّ الشقاوة تحتاج الى صفات يجب ان تتوافر في الرجل لكي يستطيع ان يكون شقياً مرموقاً ، كالشجاعة والقوة البدنية والحذق في استعمال السلاح والقسوة ، واعترف لك أني لا أملك من هذه الصفات شيئاً ، ولو اني كنت اريد ان أكون شقياً بالرغم من ذلك لصرت مثل المرحوم خلف بن امين الذي لم يكن لديه من مؤهلات الشقاوة شيئاً ولكنه مع ذلك اراد ان يكون شقياً مشهوراً ، وبذا صار موضع سخرية الناس بدلاً من تقديرهم . اني أحمد الله ألف مرة لأنه جعلني أفندياً ولم يجعلني شقياً !

س : أرجو ان تذكر لنا بعض الأخطاء التي يقترفها متعلمونا في موضوع العقل ؟

ج : من الممكن القول ان للعقل مفهومين او معنيين أحدهما عملي والآخر نظري . والملاحظ من متعلمينا انهم يخلطون بين هذين في كتاباتهم ومجادلاتهم فيضعون المفهوم الآخر غافلين عن أن الفرق الكبير في مفهومه العملي وهو الذي يساعد في تفهمنا للحياة وكيف معالجة مشاكلها أما العقل في مفهومه النظري فله قدرة على إدراك الحقيقة المطلقة .

ولا يحبذون في حياتهم اليومية ان يستعملوا العقل في مفهومه العملي ، فهم إذا رأوا أنه يقوم بعمل ٍ ضار بمصلحته او هو يقوم بعمل مرفوض من قبل الناس اخذوا يؤبخونه « أين ذهب عقلك ؟ ! هل انت مجنون ، فهم يقصدون بالعقل كل ما ينفع الإنسان وما يجنبه الضرر على وجه وهذا يقرب من النظرية الحديثة التي جاء بها (وليم جيمس) في العقل حين قال ان العقل عضو خلقه الله في الانسان لكي يساعده في تنازع البقاء على نحو ما خلق الخرطوم في الفيل والمخالب في الأسد والسيقان في الغزال والسم في العقرب الخ ..

ومن الجدير بالذكر ان هذه النظرية الحديثة انما جاء بها (وليم جيمس) لكي ينقد بها النظرية القديمة في العقل ، فقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون ان العقل جهاز خلقه الله في الإنسان لادراك الحقيقة المطلقة . وكان ذلك خطأً منهم ، إذ هم ظلوا يتجادلون حول الحقيقة المطلقة طيلة قرون عديدة دون ان يتوصلوا اليها ، وكان كل فريق منهم يتصور ان الحق معه وان الباطل مع خصمه ، فإذا كان العقل قادراً على إدراك الحقيقة المطلقة كما يزعمون فلماذا ظل جدلهم مستمراً دون ان يقدر أي فريق منهم على إقناع الآخرين بصحة رأيه .

أن الفلاسفة القدماء حين كانوا يتجادلون بأدلتهم العقلية لا يختلفون عن العوام حين يتشاجرون بالخناجر او بالهراوات . فالدليل العقلي في الواقع ليس سوى سلاح يستخدمه الانسان في نزاعه مع الآخرين ، فهو يريد به الغلبة على خصمه في الواقع بينما هو يتخيل انه يكافح من أجل الحق والحقيقة .

ان الحقيقة في عالم البشر نسبية . أما الحقيقة المطلقة الموجودة في العالم الأكبر فالعقل البشري عاجز عن إدراكها . وهذا هو ما توصل اليه العلم الحديث وترك المجادلات العقيمة التي أشغلت أذهان الناس قديماً دون جدوى .

س : شرحت لنا مصطلح العقل من حيث مفهومه العملي ، والآن نريد ان تشرح مصطلح الجنون باعتباره مضاداً للعقل في هذا المفهوم .

ج : لتوضيح معنى الجنون أذكر لك قصة واقعية ورد ذكرها في أحد المراجع العلمية ، وهذا موجزها : ذهب رجل الى أحد الأطباء النفسيين يشكو اليه من الأوهام التي تراود عقله ، وكان يبدي تخوّفه من الاصابة بالجنون من جرائها . فسأله الطبيب : « هل انت تعلن اوهامك على الناس او أنت تكتمها في داخل نفسك ؟ » فأجابه الرجل أنه لا يعلن اوهامه على الناس خشية ان ينال إستنكارهم واستهزاءهم . وعند هذا قال له الطبيب : « أنك ما دمت تخشى من استنكار الناس واستهزائهم فأنت غير مجنون . لأن كل انسان عاقل لديه اوهام في داخل نفسه ولكنه لا يظهرها للناس ، اما المجنون فهو لا يبالي باستهزاء الناس واستنكارهم بل هو يعلن لهم كل ما يخالج ذهنه من افكار مهما كانت سخيفة وهو يحسب نفسه كأنه العاقل الوحيد بين الناس ، وان الناس كلهم مجانين ما عداه » .

ان هذه الكلمة التي قالها الطبيب تخطر ببالي كلما اتيح لي ان أزور احد مستشفيات المجانين للدراسة . فاني حين أتجول بين المجانين أجد الكثيرين منهم يحلّقون في عالم الأوهام عالياً ولا يبالون بمن حولهم من الناس . فالواحد منهم قد يعلن انه نبي او أمام او مخترع او بطل عظيم او ثري يملك الملايين او غير ذلك ، فهو مشغول بنفسه ولا يهتم بمن حوله .

من الممكن القول ان كثيراً من العقلاء هم في داخل انفسهم لا يختلفون عن المجانين اختلافاً جوهرياً . فهم يتصورون أنفسهم عظماء ولكنهم لا يعلنون ذلك للناس الا ضمن حدود معينة ، إذ هم يخشون من استنكار الناس واستهزائهم .

س : تقول ان العقل البشري عاجز عن إدراك الحقيقة المطلقة الموجودة في الكون ، أو في العالم الأكبر كما تسميه ، فما هو السبب في ذلك ؟

ج : ان العقل – كما أشرت اليه سابقاً – لا يفهم شيئاً جديداً إلا في ضوء مفاهيمه السابقة ، ولكن الكون مخلوق على أسس تختلف عن مفاهيم العقل ومألوفاته .

إكتشف العلم مثلاً ان الذرة التي يتألف منها الكون مؤلفة من أمواج كهرطيسية ، أي كهربائية ومغناطيسية معاً . ولكن العقل البشري لم يستطع ان يفهم ماهية الكهرباء

والمغناطيس ، كما لم يستطع ان يفهم ماهية الوسط الذي يحدث فيه التموج الكهرطيسي .

ان هذا الكهرباء الذي نستعمله الآن في مختلف شؤوننا اليومية لا يستطيع عقلنا ان يفهم ماهيته على حقيقتها . فما هو هذا الشيء الذي يسير في الأسلاك ونسميه « الكهرباء » . فنحن أطلقنا عليه اسماً ولكن هذه التسمية لا تجدينا شيئاً في فهم حقيقته . ان الكهرباء في ذلك كالروح ، فنحن أطلقنا على الروح هذا الاسم ولكننا لا نعرف حقيقتها . ويمكن ان نقول مثل هذا عن جميع ألغاز الكون وأسراره .

كان القرن الماضي يُسمّى قرن الغرور العلمي . فقد كان العلماء فيه مغرورين بما توصلوا اليه من معلومات قليلة عن الكون ، فظنوا انهم فهموا جميع أسرار الكون . أن تلك المعلومات كانت ضحلة محدودة بالنسبة للمعلومات التي اكتشفت بعدئذٍ في القرن العشرين ، وان كثيراً من الآراء التي وثق بصحتها علماء القرن الماضي أصبحت مغلوطة في نظر علماء القرن الحالي . وهذا هو ما سوف يحدث مرة بعد مرة على توالي القرون القادمة . ولا ندري ماذا سوف تكون النتيجة في نهاية المطاف !

قال بوخنر ، وهو من علماء القرن التاسع عشر ، ان الكون ليس فيه سوى المادة والحركة . وقد تلقى علماء ذلك القرن هذا القول بالقبول وتداولوه كأنه يمثل الحقيقة المطلقة التي لا شك فيها . وقد تبين فيما بعد ان هذا القول لا يختلف في فحواه عن قول القروي الساذج الذي يعتقد جازماً بأن الأرض مسطحة وأن الشمس تدور فوقها من المشرق الى المغرب .

كان بوخنر معتقداً ان المادة هي هذا الشيء الذي نلمسه بأيدينا وليس فيها اي سر او امر غريب . ولهذا جعلها بوخنر الأساس الذي يقوم عليه الكون كله . انه لم يكن يدري ان المادة مليئة بالألغاز التي يصعب او يستحيل على العقل البشري فهمها .

والواقع ان الألغاز لا تنحصر في المادة وحدها ، فهناك الغاز أشدّ غموضاً منها موجودة في الحجيرة الحية ، وفي المخ البشري ، وفي عالم الفلك الذي لا نعرف مداه ، وفي غير ذلك . وكلما تمكن العلم من حل لغز واحد من تلك الألغاز ظهرت أمامه عدة ألغازٍ تحتاج الى حل . وهذا هو الذي جعل بعض العلماء يذهبون الى القول بأن العلم كلما تقدّم في بحثه إزداد جهلاً .

س : أرجو ان تذكر لنا خطأ آخر يقع فيه متعلمونا في موضوع العقل ؟

ج : إنّ متعلمينا يخلطون بين المنطق العقلاني القديم والمنطق العلمي الحديث فلا

يميزون بينهما .

و أقصد بالمنطق العقلاني ذلك المنطق الذي يقوم عليه المنهج الاستنتاجي ، وهو الذي يسمى في بعض الأحيان « المنطق الارسطي » نسبة الى الفيلسوف الاغريقي المشهور ارسطو طاليس .

لا أنكر ان هذا المنطق كان له دوره العظيم في تطوير الفكر البشري قديماً ، ولكن دوره هذا انتهى في العصر الحديث وحل محله المنطق العلمي الذي يقوم عليه المنهج الاستقرائي .

يجب ان لا ننسى ان العلم الحديث لم يصل الى هذه المرحلة المتقدمة التي وصل اليها الا عن طريق المنهج الاستقرائي ، ولو انه كان باقياً على المنهج الاستنتاجي القديم لظل المفكرون يتجادلون ويتجادلون دون ان يصلوا في مجادلاتهم الى نتيجة مجدية .

كان الفيلسوف الانكليزي فرنسيس بيكون اول من دعا الى تبني المنطق العلمي ومنهج الاستقراء في العصر الحديث . ومن المناسب ان أنقل هنا قصة صغيرة ذكرها هذا الفيلسوف في أحد كتبه ليوضح بها بعض معايب المنطق العقلاني القديم .

فحوى القصة ان رجلاً كان ينكر تأثير النذور التي اعتاد الناس على تقديمها الى المعابد المقدسة ، فجاء اليه بعض الذين يؤمنون بتلك النذور وأرادوا إقناعه بخطأ رأيه فيها ، وذهبوا به الى معبد مقدس اشتهر بين الناس بأن الناذرين له ينجون من الغرق . وكانت قد علقت على جدران المعبد عشرات اللوحات التي وضعها البحارة الذين أنجاهم الله من الغرق استجابة لدعائهم ونذورهم ، وسألوه :

هل سيظل منكراً لفائدة الدعاء والنذور بعد مشاهدته لهذه اللوحات المعلقة ؟!

فكان جـــوابه لهم : « ولكن أين لوحات الذين غرقوا في البحر بالرغم مما دعوا ونذروا ؟! » .

ان الفيلسوف بيكون يعطينا في هذه القصة نموذجاً لخطأ التفكير العقلاني فنحن لا يصح ان نستنتج قاعدة عامة من تجارب معدودة ، ولا بد لكي تكون القاعدة صحيحة ان تكون شاملة لجميع التجارب . فهناك كثيرون نذروا ثم غرقوا ، ولهذ وجب علينا ان نحصي عدد جميع الذين نذروا ثم ننظر في عدد الذين نجوا منهم ، لنحدد النسبة بين العددين . فهذه النسبة هي التي تعطينا صورة حقيقية لتأثير النذور في الواقع ، اما الاعتماد على عدد الناجين فقط بغض النظر عن الغرقى فهو يعطينا صورة مغلوطة في أكثر الأحيان .

ان بيكون كان يدعو الى اقامة البحث العلمي على أساس المنهج الاستقرائي بدلاً من

المنهج الاستنتاجي القديم . وهو بذلك وضح اللبنة الأولى في هذا البناء العلمي الشامخ الذي غير وجه العالم في العصر الحديث .

ان الباحث حسب المنهج الاستقرائي يجب ان يستوعب بمقدار جهده جميع المفردات او الجزئيات التي تخص موضوعاً معيناً لكي يستخرج منها النتيجة المطلوبة . وهو يجب ان يعلم في الوقت نفسه ان صحة النتيجة التي يتوصل اليها منوطة بالمفردات التي درسها . ومعنى ذلك ان النتيجة ليست نهائية بل هي قد تتغير في وقت لاحق عند ظهور مفردات جديدة مخالفة في مضمونها المفردات المدروسة سابقاً .

س : أرجو ان توضح لنا مصدر الخطأ في المنطق العقلاني القديم ، او المنهج الاستنتاجي كما يسمى أحياناً ، وهو المنطق الذي ما يزال مسيطراً على عقول الكثير من متعلمينا كما تقول ؟

ج : لكي نفهم مصدر الخطأ في المنهج الاستنتاجي دعنا ننظر في القياس المنطقي الذي هو محور ذلك المنهج ، وهو القياس الذي جاء به ارسطو في القرن الخامس قبل الميلاد ، وما زال معمولاً به لدى الكثير من متعلمينا وموضع احترامهم .

ان القياس المنطقي يتكون من ثلاثة أجزاء هي :

١ – المقدمة الكبرى ٢ – المقدمة الصغرى ٣ – النتيجة .وفيما يلي أذكر نموذجاً لهذا القياس كما جاء به ارسطو نفسه وهو :

١ – كل انسان فان – (مقدمة كبرى) .

٢ – سقراط انسان – (مقدمة صغرى) .

٣ – اذن سقراط فان – (نتيجة) .

اعتاد العقلانيون منذ ايام ارسطو حتى يومنا هذا على إستخدام هذا القياس في مجادلاتهم من حيث يشعرون او لا يشعرون . فهم إذا أرادوا تأييد رأي من الآراء جاءوا بكلية عقلية تلائمه فيجعلونها مقدمة لكي يستنتجوا منها النتيجة التي يريدونها .

من الجدير بالذكر أن معظم الكليات العقلية العامة التي يستند عليها العقلانيون في تفكيرهم ومجادلاتهم ليست حقائق مطلقة كما يتصورونها ، بل هي مألوفات تراثية تعارف الناس على الوثوق بصحتها اعتماداً على ظروفهم ومعلوماتهم المحدودة .

خذ مثلاً كون الأرض مسطحة . فهذه فكرة آمن الناس بصحتها على مدى قرون

كثيرة وعدوها من الحقائق المطلقة التي لا يجوز الشك فيها او الجدال حولها . فهي بديهية في نظرهم وهم يرونها عيانا . ثم تبين أخيراً انها فكرة غير صحيحة وان الأرض كروية لا تختلف في شكلها عن النجوم التي نراها في السماء . ومن الممكن القول ان أكثر الأفكار او الكليات العقلية العامة التي وثق القدماء بصحتها هي من هذا الطراز .

أذكر في هذه المناسبة قصة واقعية حدثت في مضيف احد شيوخ العشائر في الفرات الأوسط في الثلاثينات من هذا القرن . وخلاصة القصة ان أحد الحاضرين في المضيف أخذ يحدثهم عن الثلاجة وكيف انها تعمل بالكهرباء فتبرد الماء وتصنع الثلج . وكان هو قد شاهدها في بغداد ولم يكن الآخرون قد سمعوا عنها شيئاً من قبل فانبرى شخص منهم وكان من المتعلمين العقلانيين ، وصار يكذب الخبر وقال عنه انه غير معقول ، واستند في رأيه على قياس منطقي على النحو التالي :

١ – الشيء الحار لا ينتج البرودة – (مقدمة كبرى) .

٢ – الكهرباء شيء حار – (مقدمة صغرى) .

٣ – الكهرباء إذن لا يمكن ان تنتج البرودة – (نتيجة) .

ونشب الجدال بين صاحب الخبر والمتعلم العقلاني ، أحدهما يؤكد على وجود شيء شاهده بعينه ، والآخر ينفي وجود الشيء استناداً الى القياس المنطقي .

ان هذا الجدل الذي حدث في المضيف العشائري لا يختلف في مضمونه عن الكثير من المجادلات التي تجري بين متعلمينا . ومن الممكن القول ان بعض متعلمينا حفظوا الأفكار والمعلومات الحديثة بينما هم في منهج تفكيرهم لايزالون يسيرون على طريقة القدماء .

ان من يتابع مقالات بعض كتابنا ومؤلفينا يجدها في الغالب تنحو منحى المنطق الأرسطي .

فالواحد منهم يفتتح مقاله بقوله « مما لا شك فيه » أو « مما اتفق عليه العقلاء » أو « مما لا يتجادل فيه اثنان » ، أو ما أشبه .

ومعنى هذا انهم يأتون بكلية عقلية عامة حسب رأيهم لكي يجعلوها مقدمة للنتيجة التي يدعون اليها .

س : الرجاء ان تذكر لنا مصدر الخطأ في المنطق العقلاني أي الأرسطي ، وهو المنطق الذي ما زال محترماً ومتّبعاً في بعض معاهدنا العلمية ؟

ج : ارجو ان يعلم القراء أن الرأي الذي ذكرته عن المنطق العقلاني هو الرأي المتفق عليه الآن علمياً .

ومن المناسب ان أنقل هنا كلمة في وصف المنطق جاء بها الدكتوران احمد امين وزكي نجيب محمود في كتابهما « قصة الفلسفة الحديثة » . وهذا نصها :

« كانت الفلسفة طوال القرون الوسطى تقوم على أساس خطأ لا يمكن ان تؤدي الى علم جديد ، فقد اتخذت القياس المنطقي سبيلاً لتأكيد المذاهب والآراء .. والقياس المنطقي وسيلة عقيمة في كثير من وجوهه لانك مضطر ان تسلم بمقدماته تسليماً لا يجوز فيه الشك ، فمهما امعنت في البحث والاستنتاج فأنت محصور في حدود المقدمات التي سلمت بها بادىء بدء ..» .

قلت سابقاً ان المنطق الارسطي يعتمد على مقدمات حيث تستخرج منها النتيجة التي يطلبها ، وهو يعتبر تلك المقدمات كليات عقلية عامة لا يجوز الشك في صحتها ، ولهذا صار هذا المنطق سلاحاً يستخدمه كل من يريد ان يبرهن على صحة رأي او معتقد يدعو اليه ، فهو يبحث عن كلية عقلية عامة تلائم مقصده ويتخذها مقدمة لقياسه المنطقي .

وهذا هو ما يفعله خصمه أيضاً إذ هو يبحث عن كلية عقلية اخرى تلائم مقصده لكي يتخذها سلاحاً ضد خصمه .

ومن الجدير بالذكر ان الكليات العقلية كثيرة ومتنوعة إذ هي كما أشرت اليه سابقاً ليست سوى مألوفات او مفاهيم تراثية اعتاد عليها الناس واعتقدوا بصحتها اعتماداً على ظروفهم ومعلوماتهم المحدودة ، وهي كثيراً ما تكون متناقضة ، وبذا يتحول الجدال بها الى صراع لا نهاية له وكل فريق يدعي انه المحق فيه .

ان المتجادلين العقلانيين يتصارعون بسلاح الأدلة العقلية ، او الأقيسة المنطقية ، مثلما يتصارع المتحاربون بأسلحتهم المادية . فكل فريق منهم يريد التغلب على خصمه بسلاحه . ولكن هناك فرقاً بين صراع الأسلحة المادية وصراع الأدلة العقلية . فالأول منهما ينتهي عادة عند حد معين وذلك عندما ينهزم الخصم من ساحة المعركة او يسقط قتيلاً ، أما صراع الأدلة العقلية فهو لا ينتهي عند حد معين ، لأن الجدال مهما طال بين فريقين ظل كل منهما معتقداً بأن الحق معه وان الباطل مع خصمه .

ان هذا هو ما لاحظناه بوضوح في المجادلات الطائفية التي امتلأ بها تاريخ الاسلام والأديان الأخرى . ولا اكتم القارىء اني أملك في مكتبتي عدداً غير قليل من الكتب الخاصة

بتلك المجادلات ، وأني أحاول في بعض الأحيان المطالعة فيها بغية التفرج على طبيعة العقل البشري وكيف يستخدم البشر الأدلة العقلية في معاركهم الجدلية .

اني حين أقرأ كتاباً من هذه الكتب أجد مؤلفه شديد الحماس في الدفاع عن المعتقدات الطائفية التي نشأ عليها وفي تفنيد المعتقدات المخالفة لها ، وأنا واثق ان المؤلف لو كان قد نشأ في طائفة اخرى غير الطائفة التي نشأ فيها لكانت حماسته وأدلته في الاتجاه المعاكس .

ومن الجدير بالذكر هنا ان المؤلف الطائفي لا يكتفي في جداله بالأدلة العقلية وحدها بل هو يضيف اليها الأدلة النقلية أي النصوص الدينية التي وردت في القرآن والأحاديث النبوية . فهذه النصوص عند المؤلفين الطائفيين هي بمثابة الكليات العقلية العامة التي تستخرج النتائج المطلوبة منها . ولهذا نجد كل فريق منهم يبحث عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تلائم مقصده ، أما الآيات والأحاديث غير الملائمة فهو يحاول بكل جهده تفسيرها او تأويلها بالأدلة العقلية لكي يجعلها ملائمة على وجه من الوجوه .

ومما لفت نظري في بعض الآيات القرآنية ان كل فريق من المتجادلين الطائفيين يفسرها على النقيض من تفسير الفريق الآخر لها ، وفي هذا مصداق للكلمة المأثورة عن الأمام علي بن ابي طالب وهي قوله : « القرآن حمال اوجه » ، ومعناها ان كل فريق من الناس يفسر القرآن تبعاً لمقاصده .

أرجو من القارىء ان لا يلوم هؤلاء المؤلفين على ما فعلوه ، فنحن نفعل مثلهم لو كنا في مثل ظروفهم ، فإذا كان في ذلك لوم فهو يقع على المنطق الذي اتبعوه في مجادلاتهم ، وهو المنطق الذي سيطر على عقول المفكرين قديماً وما زال مسيطراً على عقول البعض منهم حتى يومنا هذا .

س : ما رأيك في الجدل الذي ينشب الآن بين الأحزاب في البلاد الديمقراطية ، او بين الباحثين في المناقشات العلمية ، او بين المحامين في قاعات المحاكم ، او غيرها .. فهل هو يختلف عن الجدل المنطقي القديم ، وكيف ؟

ج : هناك فرقان رئيسيان بين الجدل القديم والجدل الحديث : أولهما إن الجدل الحديث لا يستند على الكليات العقلية العامة التي كان المفكرون القدماء يستندون عليها في مجادلاتهم والثاني ان الجدل الحديث له حد يقف عنده ، او هو بعبارة اخرى له مرجع يلجأ المتجادلون اليه لحسم الجدال بينهم .

خذ على سبيل المثال الجدال الذي ينشب بين الأحزاب الديمقراطية ، فالأحزاب حين

تتجادل لا تفتتح مجادلاتها بعبارة (مما لا شك فيه) أو (مما اتفق عليه العقلاء) أو ما أشبه . بل هي تستند في مجادلاتها على أمور متفق عليها من حيث مصلحة الشعب وتوفير الحاجات الضرورية له ، أضف الى ذلك أن المجادلات الديمقراطية تنتهي عادة عند التصويت العام ، فالتصويت هو الذي يحسم الجدل الذي ينشب بين الأحزاب ، إذ ان الحزب الذي يحصل على أكثر الأصوات يتسلم مقاليد الحكم ، أما الأحزاب التي تفشل في التصويت فهي تبقى في صفوف المعارضة وتنتظر دورها في التصويت القادم .

ويمكن ان نقول مثل هذا عن جدل المحامين في قاعات المحاكم . فالمحامي يستند في جداله على النصوص القانونية بدلاً من الكليات العقلية العامة . وهو قد يحاول تفسيرها او تأويلها لكي تنسجم مع مقصده منها على نحو ما كان يفعله المتجادلون القدماء ، ولكن هناك حداً يقف عنده الجدل بين المحامين هو الحكم الذي يصدره القضاة بمختلف مراتبهم . ولولا هذا الحكم لظل الجدل بين المحامين متواصلاً بلا نهاية .

وحين نأتي الى المناقشات العلمية نجد انها تشبه في ظاهرها المجادلات العقلانية القديمة غير انها في حقيقتها تختلف عن تلك المجادلات اختلافاً كبيراً . ان كل باحث علمي حين يأتي بفرضية جديدة في مجال اختصاصه يحاول البرهنة على صحتها بمقدار جهده غير انه لا يستند في ذلك على الكليات العقلية العامة من طراز (مما لا شك فيه) او (مما اتفق عليه العقلاء) ، بل هو يستند على التجارب العلمية او الاحصاءات او الدراسات الاستقرائية التي قام بها .

وعند هذا قد يظهر له معارضون ينتقدون فرضيته ، وهم لا بد ان يستندوا في انتقادهم على نفس الطرق العلمية التي استند هو عليها وبذا ينشب الجدل بينهم ... ان الفرضية التي يأتي بها احد الباحثين قد تتحول بمرور الزمن الى نظرية علمية مقبولة ، وذلك بعد ان يتفق أكثر الباحثين عليها . ولكنها مع ذلك تبقى عرضة للتغيير او التحوير او الإلغاء . فان من خصائص العلم الحديث انه في تغير دائم . فما تثبت صحته اليوم قد يثبت بطلانه غداً .

حول الدوافع القهرية

س : يصاب بعض الأفراد من البشر بدوافع قهرية لا إرادة لهم فيها وليس في مقدورهم السيطرة عليها . فالرجاء ان تحدثنا عن هذه الدوافع .

ج : لكي نفـــهم طـــبيعة الدوافع القهرية أذكر نموذجاً منها وهو ما يسمى في العربية بـ « الوسوسة » .

ان داء الوسوسة هـــو الذي يســميه العـــوام « الوســواس » ويسمون المصاب به « وسواسي » . وهو يطلق عليه في اللغة الانكليزية Perfectionism ويعني عقدة الاستكمال . فالمشكلة في المصاب بهذا الداء أنه يطلب الكمال في كل عمل يقوم به ولهذا نراه يعاود القيام به مرة بعد مرة وهو يحسب انه لم يصل الى الكمال فيه ، وبذا تضيع جهوده عبثاً ويقضي وقته فيما لا ينفع .

ورد في أحد أمثال العوام قولهم « الوسواسي نجس » ، وهم يقصدون ان الشخص الذي يوسوس في أمر الطهارة والنجاسة يظل نجساً مهما كرر تطهير نفسه . فهو يعيد تطهير نفسه مرة بعد مرة وهو في كل مرة يظن انه ما زال نجساً .

ان الموسوسين – أي الأشخاص المصابين بداء الوسوسة – أصناف شتى . فمنهم من يوسوس في أمر الطهارة والنجاسة كما أشرت اليه أنفاً ، ومنه من يوسوس في الوضوء ، او الصلاة ، او الصوم ، او النظافة ، او الخوف من العدوى ، او في القراءة والكتابة والحساب ، أو في ترتيب الأشياء وتصنيفها ، او في غير ذلك .

ورد في المقال االذي نشرته جريدة « الجمهورية » قصة امرأة مصابة بالوسوسة في غسل الملابس ، وهي قصة جديرة بالنقل هنا . فقد روت كاتبة المقال عن لسان تلك المرأة ما تعانيه في وسوستها حيث قالت ما نصه :

« أعاني بالتحديد من وسواس نظافة الملابس وأقوم بغسلها اكثر من ثلاث او ست مرات ، ومع ذلك يراودني في كل مرة شعور بأنها ما زالت وسخة . واحياناً ألجأ الى يدي لأغسل الملابس بها وأترك الغسالة معطلة عن العمل لمدة طويلة ! وأحياناً يحاول أبنائي إقناعي بنظافة وبريق الملابس لكنني أبداً أظل أغسل حتى تتجرح يداي ويخرج الدم منهما .

ولم أحاول ان ألجأ الى طبيب نفساني رغم الحاح أحد أبنائي لكنني أرفض ان يقال ان هذا التصرف مرض كما انني أخشى كلام الناس بالقول بأني مجنونة » .

ان هذه القصة تشبه قصة رواها السيد محسن الأمين في مذكراته ، فهو قد شاهد رجلاً موسوساً وهو يتوضأ في مقبرة ووصف لنا حالته على النحو التالي :

« خرجت يوماً والفصل شتاء لأتوضأ لصلاة الصبح فشاهدت موسوساً في الطهارة يصب الماء على يديه ورجليه ، ينتقل من قبر الى قبر ويعيد صب الماء ، وقد صار جلد يديه ورجليه كأنما صبغ بالنيل لشدة البرد . فتوضأت وذهبت الى المنزل وصليت وعدت لأنظر ما انتهى اليه أمـره فوجدته على حالته الأولى يصب الماء وينتقل من قبر الى قبر ، فعجبت من ذلك ، ولم يزل كذلك حتى طلعت الشمس وفاتته الصلاة .. وهو رجل عاقل متدين ليس فيه ما يعاب الا هذا الوسواس الذي اتبع فيه امر الشيطان » .

إني أعرف كثيراً من الموسوسين في البيئة المحلية التي نشأت فيها . ولا أكتم القاريء اني كنت في بداية شبابي واحداً منهم ولكني استطعت ان اتخلص منه بصعوبة ، ولا تزال بقية منه تراودني حيناً بعد حين .

ومن الطرائف التي أذكرها في هذا الصدد ان رجلاً كان مصاباً بالوسوسة في الصلاة ، وكنت أراه حين يصلي يحاول النطق بكل حرف في صلاته على الوجه الأكمل ، وكانت مشكلته الكبرى هي في نطق حرف « الضاد » الذي يرد في كلمة « الضالين » في سورة الفاتحة . فقد اعتاد الناس في العراق على عدم التفريق في النطق بين « الضاد » و « الظاء » وهم لا يعيرون ذلك أي اهتمام في صلاتهم . اما صاحبنا فكان يعيره كل إهتمام ، وقد بذل جهداً كبيراً للتعرف على كيفية النطق بالضاد من حيث تحريك اللسان به . وقد شاهدته ذات مرة وهو يصلي فيعيد النطق بالضاد في كلمة « الضالين » مرة بعد مرة ، وهو في كل مرة يتصور انه لم ينطق بها على الوجه الأكمل .

فكان يردد قائلاً « ولا الض ، ولا الض ، ولا الض » حتى صار موضوع سخرية الذين كانوا بالقرب منه يسمعونه .

وأعرف أشخاصاً آخرين مصابين بالوسوسة عند إضمار النية في بدء الصلاة ، أو عند غسل الجنابة في الماء الجاري . فكان الواحد منهم ينوي ثم ينوي ثم ينوي وهو يظن أن النطق بالنية في كل مرة لم يكن على ما يرام فيعيده مع نفسه مرة اخرى الى ان يصيبه الكلل .

س : يبدو من النماذج التي ذكرتها ان داء الوسوسة كان كثير الأنتشار في البيئة المحلية التي نشأت انت فيها ، فما السبب في ذلك حسب رأيك ؟

ج : يرجح في ظني ان داء الوسوسة كان واسع الانتشار في البيئة المحلية التي نشأت أنا فيها وفي جميع البيئات التي كانت تشبهها في وضعها الثقافي والاجتماعي . ومن الممكن ان

نعزو السبب في ذلك الى كثرة التفاصيل المذكورة في الكتب الفقهية في أمور الطهارة والنجاسة والوضوء والصلاة وما أشبه . فهي تفاصيل تجعل الكثير من الناس يحاولون الالتزام بها بدافع الحرص على القيام بالشعائر الدينية كما ينبغي . واذا كان الفرد منهم لديه استعداد وراثي للوسوسة فانه لا بد ان يصاب بها قليلاً او كثيراً .

المعروف عن النبي محمد (ص) انه جاء بتعاليم قليلة في امور الطهارة والنجاسة والوضوء والصلاة ، ولكن الفقهاء عقدوا تلك التعاليم وشعبوها بمرور الزمن حتى وصلت الى هذه الدرجة العجيبة التي عهدناها . وقد حاول بعض المصلحين من الفقهاء تقليص تلك التعاليم وتشذيبها لكي تلائم العصر الذي نعيش فيه . ولكن جهودهم لم تؤثر الا في القليل من الناس . وبقيت المجلدات الفقهية الضخمة هي السائدة في الأوساط الدينية مما أدى الى انتشار داء الوسوسة في الكثير من أفرادها .

دعني أضرب لك مثلاً واقعياً بسيطاً على ما فعله بعض فقهائنا من تعقيد في أمور الطهارة والنجاسة . فالمعروف عن المسلمين الأولين أنهم كانوا يستنجون بالاحجار عند التغوط في بعض الاحيان . وهذا أمر اجازته الشريعة الاسلامية كما هو ثابت في الأخبار الموثوقة ، ولكن بعض فقهائنا بالرغم من ذلك لا يجيزون الاستنجاء بالورق وهي الطريقة السائدة الآن في البلاد المتقدمة . وقد أدى ذلك الى كثير من العنت والأذى لدى الموسوسين من المسلمين الذين يسافرون الى الخارج . فترى الواحد منهم إذا دخل مرحاضاً اجنبياً عمد الى الاستنجاء بالماء فيه مما يؤدي الى تقذير المرحاض والى إثارة التذمر والتقزز لدى أصحاب المسكن الذي يقيم فيه .

س : هل كان داء الوسوسة معروفاً لدى القدماء وكيف كانت نظرتهم اليه ؟

ج : ليس لي إطلاع كاف على تاريخ هذا الداء ، ولكن الذي أعرفه بوجه عام ان البشر هم البشر في كل زمان ومكان ، فما يعانون منه الآن لا بد انهم كانوا يعانون منه قديماً ، ولكن الفرق بين القدماء والحديثين في ذلك هو ان القدماء كانوا يعزون الأدواء التي يعانون منها الى قوى غيبية كالجن او الشياطين او ما أشبه ، اما الحديثون فقد أخذوا يخضعون جميع الظواهر البشرية والكونية للدراسة الموضوعية والإستقرائية ، وهم ما زالوا في أول الطريق في ذلك ، ولا ندري ماذا سوف تكشف الدراسات عنه في نهاية المطاف .

من الجدير بالذكر في هذا الصدد ان بعض المؤلفين المسلمين تطرقوا قديماً الى موضوع الوسوسة وحاولوا دراستها بمقدار جهدهم ، كان منهم مؤلف معروف هو ابن قدامة المقدسي الذي عاش في القرن السادس الهجري . فهو قد ألف كتاباً في الوسوسة عنوانه « ذم الـــوسوسة » . وفيما يلي أنقل نبذة من مقدمة هذا الكتاب لكي يطلع بها القارىء على رأي

المسلمين القدماء في الوسوسة . وهذا نصها :

« فان الله سبحانه وتعالى جعل الشيطان عدواً للإنسان يعقد له الصراط المستقيم ويأتيه من كل جهة وسبيل .. ثم ان طائفة من الموسوسين قد تحققت منهم طاعة الشيطان حتى إتصفوا بوسوسته ، ونسبوا الى قبول قوله وطاعته ، ورغبوا عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ان أحدهم يرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم او صلى كصلاته ان وضوءه باطل وصلاته غير صحيحة .. ثم انه بلغ من استيلاء ابليس عليهم انهم أجابوه الى ما يشبه الجنون .. وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلاً يشاهده ببصره وينكره ، أو يقول شيئاً بلسانه وتسمعه اذناه ويعلمه بقلبه ، بل يعلمه غيره منه ويتيقنه إذا رأى ذلك او سمعه منه ، وذلك انه يصدق الشيطان في انكار يقين نفسه وجحده لما رأه ببصره وسمعه بأذنه . ومن انتهت طاعته لابليس الى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته ، ثم انه يقبل قوله في تعذيب نفسه ويطيعه في الاضرار بجسده ، تارة بالغوص في الماء البارد ، وتارة بكثرة استعماله .. وربما فتح عينيه وغسل داخلها حتى يضر ببصره ، وربما أفضى الى كشف عورته للناس ، وربما صار الى حالة يسخر منه الصبيان ويستهزىء به من يراه ، وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة ، وربما فاته الوقت ويشغله بوسوسته في النية حتى تفوته التكبيرة الأولى .. » .

يتضح من هذه النبذة التي نقلناها آنفاً ان المقدسي يرى ان الموسوس انما هو يطيع الشيطان في وسوسته . وهذا الرأي هو الذي كان سائداً لدى المفكرين المسلمين قديماً ، وهم لذلك كانوا يعتقدون ان الموسوس مصيره جهنم في الآخرة من جراء طاعته لأمر الشيطان بدلاً من طاعة الله .

يمكن القول ان هذا الرأي لا ينسجم مع منطق العلم الحديث . فالموسوس لا يقوم بأفعاله بإرادة منه او اختيار انما هو مدفوع فيها بدافع قهري لا سلطة له عليه . ولا حاجة بنا الى القول ان الله لا يحاسب الإنسان على فعل يقوم به بلا ارادة منه .

س : ذكرت عن نفسك انك كنت في بداية شبابك مصاباً بالوسوسة ولكنك استطعت ان تتخلص منها بعدئذٍ . وهذا يعني ان المصاب بالوسوسة قادر على التخلص منها بإرادته . فما رأيك ؟

ج : يجب ان لا تنسى ان هناك ظروفاً ساعدتني على التخلص منها ، فقد اتيح لي ان أسافر الى الخارج كما اتيح لي ان أطلع على ما ورد في المصادر العلمية عن الوسوسة وان أستشير الأطباء النفسيين عنه . اضف الى ذلك اني في أواسط عمري شعرت بشيء من النفور من القيود الفقهية المتزمتة واتجهت نحو التحرر الصوفي على وجه من الوجوه .

أعرف بعض أقراني من الذين نشأوا في مثل بيئتي المحلية وابتلوا بالوسوسة ثم استفحلت فيهم بمرور الزمن . فهم لم تتح لهم الظروف التي اتيحت لي ، أو هم بالأحرى عاشوا تحت وطأة القيود الفقهية المتزمتة ، وصاروا يقضون معظم وقتهم فيما لا جدوى فيه .

ان القضية اذن ليست حصيلة الارادة وحدها بل هي أيضاً حصيلة الظروف التي تحيط بالانسان وتقرر مصيره . وهذا أمر لا ينحصر في الوسوسة فقط بل هو يشمل كذلك شخصية الانسان بوجه عام . فان كثيراً من الاشخاص الذين يصيبون انفسهم او مجتمعهم بالضرر الفادح لا ارادة لهم في ذلك ، بل هم مدفوعون فيه بدافع قهري لا سلطة لهم عليه . وهذا امر سنحاول التطرق اليه او الحديث فيه في فرصة قادمة .

س : المعروف عن الموسوس ان الوسوسة فيه تشله او تعرقل عمله في أي انتاج مبدع . فهل هذا صحيح ؟ وكيف ؟

ج : أن الانتاج المبدع في أي مجال في الحياة لا يتم الا إذا كانت لدى صاحبه موهبة ملائمة تساعده على الإبداع . فأن من العبث للإنسان ان يسعى نحو إنتاج مبدع دون ان تكون لديه موهبة ملائمة في المجال الذي يسعى فيه .

وهنا يجب ان نذكر ان الموهبة في الانسان هي في الغالب تلقائية لا شعورية . فالذي يريد ان يستثمر موهبته في مجال معين يجب ان ينسجم معها ويستجيب لالهامها اللاشعوري بدون تردد . فإذا كان صاحب الموهبة موسوساً صعب عليه ان يجاريها وينسجم معها ، لأنه في كل خطوة يخطوها في عمله يتصور انه لم يقم بها على الوجه الأكمل ، وهو يعيدها مرة بعد مرة فتضيع بذلك عليه ثمرات موهبته .

ان الحكمة التي يجب ان يضعها كل ذي موهبة امام بصره دائماً هي : « ان الإنسان ناقص بطبيعته وهو لا يستطيع ان يصل الى الكمال في أي عمل يقوم به مهما حاول » . ان صاحب الموهبة يجب ان يعلم انه قد يخطىء عند الاستجابة لالهام موهبته ولكنه يجب ان يعلم في الوقت نفسه ان الابداع الذي تأتي به الموهبة هو أكبر جداً من الخطأ التي يطرأ عليه أحياناً .

ان كل عمل إبداعي عظيم لا يمكن ان يخلو من خطأ او جانب سلبي فيه . فالتغاضي عن الخطأ هو أفضل لصاحب الموهبة من الحرص على تجنب الخطأ . ولكن مشكلة الموسوس انه لا يفهم هذه الحكمة العملية او هو بالأحرى لا يستطيع ان يفهمها ، ولهذا نجده يفقد الهام موهبته من جراء انشغاله بالتدقيق وطلب الكمال والحرص على تجنب الخطأ .

س : إنّ قولك هذا قد يؤدي الى الضرر بالانسان من ناحية اخرى ، فالإنسان اذا لم

يكن لديه حرص على تجنب الخطأ قد يؤدي ذلك به الى ان يكون مهملاً لا اباليًا وتتحول حياته الى نوع من الفوضى والبعثرة ، وقد تضيع موهبته عليه اذا كان لديه موهبة .

ج : ان رأيك هذا صحيح ، فان الحرص على تجنب الخطأ له أهمية في حياة الانسان كمثل اهمية الاستجابة لإلهام الموهبة . ولكن الذي أريد لفت النظر اليه هو ان كل واحد من هذين الامرين له مجاله الخاص به ولا يجوز الخلط بينهما .

ان الانسان حين يقوم بعمله الابداعي يجب ان ينهمك فيه وان ينسجم مع تلقائية موهبته بدون مبالاة بالخطأ ان يقع فيه - كما أشرت اليه آنفاً . ولكنه بعد الفراغ من عمله يجب ان يعاود النظر فيه وان يدقق فيه بمقدار جهده .

قد يصح ان أقول ان درجة خفيفة من الوسوسة قد تكون نافعة للإنسان عند القيام بإنجازاته الإبداعية . ولكن مشكلة الإنسان أنه إذا إبتلي بالوسوسة فهو لا يستطيع ان يسيطر عليها او يضعها ضمن الحد الذي تكون فيه نافعة غير ضارة . وهذا هو الذي جعل الكثيرين من الناس أما مفرطين في الوسوسة او مفرطين في الاهمال واللامبالاة .

ورد في الحديث النبوي : « خير الأمور أوسطها » . وهذه حكمة كبرى ، ولكن الكثيرين من الناس لا يستطيعون اتباعها ، إذ هم يتطرفون في أفعالهم ، او أفكارهم ومعـتقداتهم ، نحو هذا الجانب او ذاك ، ناسين ان من الأفضل لهم ان يسلكوا الجادة الوسطى .

س : ما هي النصيحة التي يمكن ان تقدمها الى المبتلين بداء الوسوسة عسى ان تنفعهم في معالجة دائهم قليلاً او كثيراً ؟

ج : ان أية نصيحة أقدمها للموسوسين لا تنفع فيهم اذا كان الداء قد استفحل فيهم وأزمن . ولكن النصيحة قد تنفع فيمن يكون الداء فيهم خفيفاً ولهم ارادة قوية يستطيعون بها مقاومة الداء .

إني ما زلت أتذكر كلمة قالها لي أحد الأطباء النفسيين منذ نصف قرن تقريباً عندما إستشرته في الوسوسة التي كانت تنتابني احياناً . وهـي الكلمة التي لا تزال ترن في أذني وهي تصـلح في مجال الوسوسة كما تصلح في جميع مجالات الحياة ومشاكلها ، وهي قوله : « إجرأ على الخطأ » . وكان الطبيب يقصد من هذه الكلمة ان الانسان يجب ان لا يطلب الكمال في العمل الذي يقوم به ، فالانسان ناقص بطبيعته ، كما أشرت اليه أنفاً ، وهو لا يستطيع ان يتخلص من الخطأ في أي عمل يقوم به مهما حاول .

اني حين أقرأ الآن كتبي التي صدرت سابقاً أجدها مليئة بالأخطاء . فاني قد كتبتها

في ظروف معينة وتحت تأثير معلومات كنت اعتقد بصحتها في حينها . ثم تغيرت الظروف او تغيرت المعلومات ، وأدركت ان ما كتبته بالأمس قد لا يصلح اليوم ، كما ان ما أكتبه اليوم قد لا يصلح غداً .

أحمد الله لأني كتبت كتبي بعد تخلصي من داء الوسوسة . ولو اني لم أتخلص من هذا الداء لما أتيح لي أن أكتب تلك الكتب ولما أُتيح للقراء ان يقرأوها .

قد يقول قائل من الذين يمقتون كتبي وهم كثيرون ان عدم صدور تلك الكتب كان أفضل للناس من صدورها . وهذا رأي لا أحب ان إناقش قائله فيه . وكل ما أريد قوله في هذا الشأن هو ان أي عمل بشري لا يمكن ان يخلو من الخطأ على وجه من الوجوه . وسبحان الذي لا يخطيء .

س : نرجو ان تحدثنا عن دافع قهري آخر .

ج : ان من بين الدوافع القهرية التي يبتلي بها بعض الناس ما يمكن تسميته « دافع الشكاسة » ، وهو داء لا يقل ضرره بالإنسان عن داء الوسوسة ، وذلك بالاضافة الى ان له ضرراً اجتماعياً يؤدي الى إثارة الشحناء والبغضاء بين الناس .

ان دافع الشكاسة يوصف في الانكليزية بأنه « المقدرة المنحوسة على خلق الاعداء » فصاحبه دائم البحث عن عيوب غيره من الناس وهو شديد الانتقاد لتلك العيوب ولا يبالي ان يعلن انتقاده لها امام أصحابها ، وهو بذلك يخلق له خصوماً يبغضونه دون ان يجني من ذلك أية منفعة له او لمجتمعه .

ان المبتلي بداء الشكاسة قد يكون من أكثر الناس عيوباً ، او هو على الأقل مثل غيره في عيوبه ، ولكن المشكلة فيه انه يغفل عن عيوبه او هو ينكر وجودها فيه او يحاول تبريرها ، اما عيوب الآخرين فهو يبالغ فيها ولا يحب تبريرها .

ان الذي يريد ان يعيش مع الناس وينجح في التعامل معهم يجب ان يضع امام بصره دائماً الحكمة القائلة إن الكمال لله وحده وان كل انسان مهما كان عظيماً لا يمكن ان يخلو من بعض العيوب او الجوانب السلبية في تكوين شخصيته .

هذا ولكن الشخص الشكس ، اي المصاب بداء الشكاسة ، لا يفهم هذه الحكمة او هو لا يستطيع ان يفهمها . فهو يفترض في كل فرد من الناس ان يكون كاملاً لا نقص فيه ، وهو يعامل الناس ويحاسبهم حسب هذا المعيار المثالي الذي لا وجود له في الواقع ، فيضر نفسه ويضر غيره من حيث لا يدري .

ورد في أحد الأمثال اليابانية قولهم : « إذا كان بيتك من زجاج فلا ترم الناس

بالحجارة » . ومن الممكن القول ان هذا المثل يصدق على كل انسان ، فكل انسان بيته من زجاج او هو بعبارة اخرى له عيوب يمكن ان يهاجمه الناس منها . ولهذا كان من مصلحة الانسان ان يتسامح مع الآخرين ويغض النظر عن عيوبهم لكي يغضوا هم النظر عن عيوبه .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان المحاسن والمساوىء في البشر نسبية في كثير من الأحيان . فما يعده بعض الناس من المحاسن قد يعده آخرون من المساوىء ، ورب عمل هو في نظر صاحبه من المفاخر بينما هو في نظر خصومه من المخازي . ومن هنا جاء المثل العربي القائل : « رضا الناس غاية لا تدرك » .

س : قرأت في أحد كتبك قولاً ذكرت فيه ان كل انسان يقدر نفسه أكثر مما هي في حقيقتها وانه يركز نظره على عيوب غيره بينما ينسى عيوبه ومؤدى قولك هذا ان كل انسان لا بد ان يكون فيه شيء من الشكاسة قليلاً او كثيراً فما جوابك على هذا ؟

ج : ان قولك هذا صحيح فكل انسان مصاب بشيء من الشكاسة قليلاً او كثيراً ولكن الذي اريد لفت النظر اليه في هذا الشأن هو ان الشخص السوي قادر ان يسيطر على دافع الشكاسة فيه وان يعامل الناس حسبما يقضي به مبدأ المجاملة والتسامح اما الشخص الشكس فان دافع الشكاسة فيه قوي بحيث لا يقدر هو على السيطرة عليه ، ولهذا فهو يقضي حياته في سلسلة من المخاصمات والمماحكات لا نهاية لها ، فيكثر خصومه ويقل اصحابه بمرور الأيام ، وحين يدركه الموت اخيراً لا نجد من يترحم عليه الا قليلاً .

حين ندرس شخصية كل انسان نجدها لا تخلو من نوازع الشر والاعتداء والانانية والظلم . ولكن الفرق بين السوي وغير السوي من الناس هو فرق بالدرجة .

فالشخص السوي هو الذي يقدر على كبت نوازعه السيئة او ترويضها ، اما غير السوي فهو عاجز عن ذلك وتراه يندفع مع تلك النوازع وهو يحسب ان الحق معه وحده .

ان الشخص الشكس لا يختلف من هذه الناحية عن المجنون ، فقد اتضح الآن علمياً ان كل انسان يحمل بذرة الجنون في اعماق نفسه ، او هو بعبارة أخرى يحمل في أعماق نفسه بعض النوازع والدوافع التي يستهجنها الناس ، ولكن العاقل من الناس هو الذي يستطيع ان يسيطر على تلك النوازع والدوافع . اما الذي يسميه الناس مجنوناً فهو الذي لا يقدر على ذلك ، وتراه يندفع من نوازعه ودوافعه اللاشعورية دون إكتراث بما يقول الناس عنه او يستهجنونه منه .

س : تقول ان الشخص السوي هو الذي يتعامل مع الناس بروح المجاملة والتسامح وغض النظر عن عيوبهم ، ويبدو لي ان قولك هذا لا ينسجم مع ما ورد في الاسلام من تعاليم

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالمفروض في المسلم حسبما نعرفه ان ينهي عن المنكر حين يراه في الناس ولا يبالي ان يرضوا عنه او يسخطوا منه ، فما رأيك في هذا ؟

ج : يجب ان لا تنسى ان مبدأ المجاملة والتسامح يختلف كل الاختلاف عن مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فكل له مجاله الخاص به . ولكي نفهم ذلك أنقل لك قصة صغيرة وردت في صحيح البخاري مروية عن ام المؤمنين عائشة .

فحوى القصة ان النبي (ص) كان جالساً في بيت عائشة فاستأذن عليه رجل ، ولما لمحه النبي قبل اقترابه منه اخذ يذمه لأنه كان منافقاً غير ان الرجل عندما اقترب من النبي هش النبي له وانبسط له ، ولما خرج الرجل من البيت سألت عائشة النبي عن هذا الفرق بين ما قاله عن الرجل في اول الأمر وما عامله به بعدئذٍ ، فأجابها النبي قائلاً : « يا عائشة متى عهدتني فاحشاً ان شر الناس عند الله منزلة من تركه الناس اتقاء شره » .

ويروي البخاري حديثاً آخر نسبة الى أبي الدرداء وهو من أصحاب النبي إذ قال : « أنا لنكشر – أي نضحك ونبتسم – في وجوه أقوام وأن قلوبنا لتلعنهم » .

وورد في القرآن وصفاً للنبي في تعامله مع اصحابه هو قوله : « فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر .. »

ان هذا الذي ورد في صحيح البخاري وفي القرآن يعطينا درساً اجتماعياً ثميناً .. فالانسان يجب ان يجامل الناس ويلاطفهم بغض النظر عما يكنه لهم من عواطف مضادة . فالبشر خلقوا من طبيعة معينة لا يمكن تغييرها ، والذي لا يداري تلك الطبيعة فيهم لا بد ان ينتهي امره الى الفشل الذريع .

ان المجاملات بين الناس تعد من أهم الركائز التي يقوم عليها المجتمع البشري ، ولهذا نجدها سائدة في جميع المجتمعات حتى البدائية منها .

فليس في مقدور الناس ان يعيشوا في مجتمع ، وان يتعاونوا في انجازاته ، ما لم يكبتوا عواطفهم السلبية بعضهم تجاه بعض . ولو انهم اعلنوا عن تلك العواطف وتكاشفوا فيها لانحلت الروابط الاجتماعية بينهم وانهار كيان المجتمع فيهم ، وفي هذا مصداق للحديث النبوي القائل : « لو تكاشفتم لما تدافنتم » .

وهنا نأتي الى المنكر الذي امر الاسلام بالنهي عنه ، فهو في رأيي لا يدخل في مجال المجاملات الاجتماعية بل ان له مجالاً آخر . فهناك افراد او جماعات من الناس يقومون بأعمال ضارة بالمجتمع كأن يظلموا الناس او يعتدوا عليهم او يسلبوا أموالهم او ينتهكوا حرماتهم .

وعند هذا يصبح من واجب المسلم ان يشجب تلك الأعمال او يقاومها بمقدار جهده . وقد ورد عن النبي قوله « انه عن المنكر بيدك فإن لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الإيمان » .

ان هذا على كل حال موضوع معقد وليس هو من موضوع اختصاصي . بل هو من اختصاص علماء الدين .

س : نرجو ان تحدثنا عن نموذج آخر من الدوافع القهرية .

ج : ان الحسد يمكن اعتباره من الدوافع القهرية في الإنسان . وهنا يجب ان نذكر أن الحسد طبيعة بشرية عامة يكاد لا يخلو منها احد ، انما هي تختلف في شدتها بين الافراد تبعاً لاختلاف العوامل النفسية والاجتماعية الداخلة في تكوين شخصية كل واحد منهم .

ان الشخص السوي هو الذي يكون الحسد فيه ضعيفاً بحيث يستطيع السيطرة عليه فلا يدعه يعبث به في تعامله مع الناس ، اما الشخص غير السوي فهو على العكس من ذلك إذ يلعب الحسد دوراً كبيراً في حياته ، فهو لا يكاد يرى احداً من أقرانه قد تفوق عليه في مجال كان هو يطمح ان يتفوق فيه حتى يضمر الحقد الشديد له ويحاول الكيد له وتشويه سمعته بكل جهده .

ورد في أحد الأمثال الدارجة عندنا قولهم « لا تحب العين من هو أرجح منها » .

وقــد ورد في الأمثال العربية القديمة ما يشبه ذلك نحو « عدو المرء من يعمل عمله » و « كل ذي نعمة محسود » ومن الممكن ان نجد أمثالاً بهذا المعنى في جميع الشعوب وهذا يدل على ان الشعوب أدركت بفطرتها طبيعة الحسد في الإنسان وما يلعبه من دور كبير في حياته الاجتماعية .

يمكن القول بوجه عام ان الحسد صنو الانوية او مرادف لها : فما دام الانسان يسعى دائماً نحو رفعة الأنا في نظر الآخرين فليس من الهين عليه ان يرى قريناً له قد نال المكانة العالية التي كان هو يطمح اليها .

وهذا هو الذي جعل الحسد على أشده في المجتمع الصغير المنعزل كالقبيلة او القرية النائية . فان الأطفال حين ينشأون في مثل هذا المجتمع يلعبون معاً ويعرف بعضهم بعضاً ، فإذا كبروا ووجدوا واحداً منهم قد نال المكانة العالية دونهم فإنهم لا بد ان يشعروا بالحسد نحوه قليلاً أو كثيراً .

وهذا بخلاف ما يحدث في المجتمع الواسع المنفتح ، ففي هذا المجتمع كثيراً ما يتفرق أقران الطفولة والصبا فيذهب كل واحد منهم مذهباً في الحياة يختلف عن مذهب الآخر .

ومن طبيعة الانسان انه لا يشعر بالحسد تجاه شخص لا يعرفه وان كان متفوقاً عليه في المجال الذي يعمل فيه .

س : قلتَ من قبل ان الانوية تنشأ في الانسان منذ طفولته ، فهل معنى هذا ان الحسد ينشأ في الإنسان منذ طفولته كذلك ؟

ج : يصح ان أقول ان الحسد والأنوية ينشأن في الإنسان معاً وفي وقت واحد .

نستطيع ان نكتشف نشأة الانوية في الطفل حين نراه يبتهج وينتش عندما نمدحه ، وكذلك نستطيع ان نكتشف نشأة الحسد فيه حين نراه يمتعض ويكفهر عندما نمدح طفلاً آخر امامه . فهو يحب ان ينال المديح وحده وان لا يشاركه فيه احد من اخوته او أقرانه .

ان الفرق بين الحسد لدى الطفل والحسد لدى الشخص البالغ ، هو ان الطفل يندفع مع حسده بلا رياء او تصنع ، فهو يعلن بغضه لمحسوده ، او يهاجمه ويؤذيه او يختطف اللعبة من يده ، ولا يحاول تبرير ذلك بالحجج ، والأعذار على نحو ما يفعل البالغون .

مشكلة البالغين انهم حين يندفعون مع حسدهم ينكرون ذلك في أنفسهم ويبررون فعلهم بمختلف الأعذار والحجج ، فالحسود حين يؤذيك او يشوه سمعتك يدعي انه انما فعل ذلك سعياً وراء الحق والحقيقة ، او من اجل المصلحة العامة ، او تقرباً الى الله ، بإعتبارك شخصاً طالحاً تجب محاربته .

ان الدراسات التي اجريت على المدارس الابتدائية في شتى انحاء العالم دلت على ان التلميذ المتفوق في دراسته ينال من حسد أقرانه وأذاهم الشيء الكثير ، وإذا كان هذا التلميذ المتفوق مستضعفاً في شخصه ، او من اسرة مستضعفة ، فان اعتداء اقرانه عليه لا يقف عند حد ، وهذا امر يجب ان يهتم به مدراء المدارس والمعلمون فيحموا التلميذ المتفوق من إعتداء اقرانه حرصاً على مصلحته ومصلحة المجتمع .

س : اذا كان الحسد طبيعة بشرية عامة او هو صنو الأنوية كما تقول ، فكيف يمكن للمتفوق او الناجح في حياته ان يتخلص من أذى حاسديه ؟

ج : أعرف شخصاً نجح في حياته نجاحاً كبيراً ورأيته ذات يوم يشكو من كيد بعض الناس له وبغضهم له دون ان يكون له معهم اي عداء سابق او منافسة ، فهم حين ينظرون اليه يكاد الشرر يقدح من أعينهم حقداً عليه وقد سألني عن السبب الذي يدفعهم الى ذلك .

كان جوابي له ان هذا امر متوقع في كل تفوق أو نجاح في الحياة ، والناجح يجب ان يتوقعه ولا يتعجب منه ، فكل شيء في هذه الدنيا له ثمنه ، وثمن النجاح هو في كثرة الخصوم والحاسدين لمن يفوز به ، وهذا يدخل فيما أشار اليه الشاعر العربي القديم حين

قال « ولا بد دون الشهد من إبر النحل » .

ان الناجح يجب ان يداري حاسديه ويجاملهم لكي يخفف من غلواء الحسد فيهم ، فهم لا ارادة لهم فيما يفعلون ، وهو قادر أن يخفف دافع الحسد فيهم عن طريق دغدغة الانوية فيهم ومحاولة استرضائها .

ان الذي يعامل حاسديه بإعلان عدائه لهم قد يضر نفسه أكثر مما ينفعها .

س : ما صلة الحسد بإصابة العين ، فالعوام يربطون بينهما ربطاً قوياً ، فما قولك في هذا ؟

ج : ان إصابة العين موضوع طويل أصبح من جملة المواضيع التي يدرسها علم الخارقية الجديد ، اي الباراسيكولوجيا كما يسمونه في اللغات الأجنبية ، وقد اتضح الآن في هذا العلم ان هناك افراداً لديهم قدرة على إصابة العين ، فإذا كان أحد هؤلاء الأفراد من ذوي الحسد الشديد استطاع ان يؤذي محسوده بمجرد تركيز النظر عليه .

س : هل هناك دوافع قهرية أخرى بالإضافة الى الوسوسة والشكاسة والحسد ؟

ج : إن دافع الوسوسة الذي تحدثنا عنه سابقاً مقصور على الضرر بالنفس وتعذيبها ، ولكن هناك دوافع اخرى لا تقتصر على الأضرار بالنفس بل هي تضر الغير ، وهي كثيرة ، وقد ابتلى بها الكثيرون منا مع الأسف . وهم فيها مجبرون لا ارادة لهم فيها ولا اختيار . أذكر فيما يلي نماذج منها :

١ – دافع السرقة : فالانسان قد يكون غنياً ولكنه يجد نفسه مدفوعاً الى سرقة بعض الاشياء التافهة التي هو في غنى عنها ، كملعقة شاي من مقهى ، او كتاب من مكتبة ، او علبة من مخزن ، فهو يبذل جهده لمغافلة الناس من اجل السرقة منهم ، وهو قد ينكشف امره وينال الفضيحة ولكنه لا يرعوي بل يظل خاضعاً لدافعه القهري حتى اخر أيامه .

٢ – دافع المماطلة : ونقصد به ميل الشخص للمماطلة في دفع الديون المستحقة عليه ، فهو قد يكون قادراً كل القدرة على الوفاء بدينه ولكن نفسه لا تطاوعه على ذلك ، وتراه يكيل الوعود لدائنيه مرة بعد مرة ، وتسوء سمعته من جراء ذلك ، فلا يبالي ، وكأنه يشعر ان أكل الدين نوعاً من الغلبة والشطارة تجاه الغير .

٣ – دافع الحرص : وهو شدة البخل ، وصاحبه يحرص على المبلغ التافه بالرغم من

ثروته الكبيرة . فهو يرغب في تضخيم ثروته مع علمه انها تذهب الى غيره بعد موته . وهو يظل على حرصه هذا حتى الساعة الأخيرة من حياته !

٤ - دافع الإيذاء : وصاحبه يحب ايذاء الناس ولا يحب نفعهم او مساعدتهم ، فهو يرمي سيكارته قبل اطفائها على المواد القابلة للإلتهاب بغية اشعال النار فيها ، او يرمي قشور الفواكه في وسط الشارع لكي تنزلق بها أقدام المارة ، او يحطم اي شيء يقع تحت يده حين لا يرى أحداً يراقبه ، او ينم بين اثنين لكي يثير النزاع والعداء بينهما الخ .. وهو لا يرتاح نفسياً إذا رأى احداً ينتفع من شيء ، وقد يحاول ان يعرقل وصول الشيء الى الذي ينتفع به . وإذا وجد شخصاً مستضعفاً لا عون له عمد الى الإعتداء عليه او إيذاءه ثم يختلق عذراً يبرر به الإعتداء .

٥ - دافع الاستهزاء : وصاحبه يبحث عن شخص أضعف منه لكي يستهزىء به ويضحك عليه . فهو يشعر في أثناء ذلك بنوع من الإستعلاء والتفوق ، وإذا كان صاحب هذا الدافع مصاباً بدافع الايذاء أيضاً فانه لا يكتفي بالاستهزاء تجاه ضحيته بل يعمد الى إيذائه دون ان يخالجه أي شعور بالرحمة .

٦ - دافع الكذب : وصاحبه لا يستطيع ان يقول الصدق فيما يتحدث به . فهو لا بد ان يكذب فيه ، او يبالغ فيه على الأقل . ومن الجدير بالذكر ان الكذب امر لا مناص منه في الحياة الاجتماعية ، وقد يلجأ اليه كل انسان قليلاً أو كثيراً ، من حيث يشعر او لا يشعر . ولكن هذا الكذب العام يختلف عن كذب المصاب بدافع الكذب القهري . فالكذب العام انما يلجأ اليه الناس عن قصد لما يرجون فيه من نفع او يدرأون به من ضرر . أما المصاب بدافع الكذب فهو يكذب من غير قصد ، او هو بالأحرى لا يستطيع ان يصدق في كلامه . فهو ضحية دافعه القهري ، وهو يضر نفسه بذلك ويشوه سمعته دون مبالاة !

٧ - دافع المغابنة : وهذا الدافع قد يصاب به بعض الباعة والحرفيين في المجتمعات المتخلفة . وصاحبه يصعب عليه ان يصدق مع الزبون او يخلص له ، وهو ينتهز اية فرصة تتاح له لكي يغش الزبون او يغبنه . ان مصلحته تقضي عليه ان يصدق مع زبائنه لكي تتحسن سمعته ويروج سوقه في الأمد البعيد ، ولكن دافعه القهري يمنعه من ذلك ، اذ هو يفضل الربح العاجل القليل على الربح الآجل الكثير .

٨ - دافع الاغتياب : وهذا الدافع مرتبط بدافع الحسد من بعض الوجوه . وصاحبه يحب ان يتكلم بالسوء عن كل شخص غائب ، ولا يكاد يسلم احد من لسانه . انه يجد لذة في البحث عن مصائب الآخرين وفي التحدث عنها . وهو قد يجد رفاقاً يشبهونه في هذا

الدافع ، فيقضي اوقات فراغه معهم ، ليشاركهم في التمتع بلذة الاغتياب .

٩ – دافع الكلام : وصاحبه اذا اجتمع مع الآخرين في مجلس لا يحب ان يرى أحداً يتكلم غيره ، كأنه يشعر بأن الكلام في المجلس نوعاً من الغلبة والتفوق وهو لا يريد ان يتفوق احد عليه . انه حين يستمع الى حديث غيره يشعر بالتضايق ، ترى عينيه تدوران بحثاً عن فكرة يقاطع بها حديث غيره لكي يبدأ هو بالحديث ، وإذا كان المصاب بهذا الدافع محباً للجدل فان مشكلته تكون أشد تعويصاً فهو يجادل في كل موضوع وان كان هو لا يعرف عن الموضوع سوى معلومات محدودة . وإذا سمع من أحد قولاً مخالفاً لمعلوماته المحدودة أسرع الى تصحيحه أمام الحاضرين لكي يظهر سعة علمه وحذقه لهم ، وهو لا يبالي حين يظهر ان كان مخطئاً في تصحيحه . والملاحظ في بعض المصابين بهذا الدافع انهم لا يملكون القدرة على الحديث الجيد ، إذ هم يتلعثمون فيه او يتأتئون ، ولكنهم يحسبون انهم الفصحاء المفوّهون . وكثيراً ما يشعر المستمعون بالملل والتضايق من حديثهم بينما هم يظلون مصرين على متابعة الحديث ظناً منهم ان المستمعين مسروررون .

١٠ – دافع الخصام ، وهو الدافع الذي يوصف في اللغة الانكليزية بـ « المقدرة المنحوسة على خلق الاعداء » ، وصاحبه لا يستطيع ان يحتفظ بصديق له مدة طويلة ، فهو لا بد ان يجد سبباً للخصام معه ، فيلاومه ثم يترك صداقته ويحمل الحقد عليه . انه يطلب من الصديق ان يكون كاملاً لا نقص فيه ، مع العلم ان ليس في الدنيا صديق من هذا الطراز . فاذا وجد في صديقه أقل هفوة شهر عليه سيف اللوم والتقريع ومما يلفت النظر انه نفسه قد يكون من أكثر الناس عيوباً ، غير انه لا يدرك ذلك في نفسه ، وقد يعد نفسه مبرأ من كل عيب ، ان تفكيره موجه نحو التحري عن عيوب الغير ونسيان عيوب نفسه .

١١ – دافع العصبية : وهو الذي يسمى في اللغة الانكيزية (Prejudice) وصاحبه يضمر بغضاً عميقاً وحقداً على كل من ينتمي الى قوم غير قومه ، او طائفة غير طائفته ، فإذا لمح احداً منهم شعر بالتوتر العصبي ضده ، وقد يعمد الى الإعتداء عليه ، وهو اذا كان مصاباً بدافع الإيذاء علاوة على دافع العصبية فانه يندفع في اعتدائه بلذة عارمة لا تعدلها لذة اخرى ، اذ هو يجد حينئذٍ الفرصة التي كان ينتظرها منذزمن طويل .

هناك دوافع قهرية اخرى لا يسع المجال ذكرها . وبعضها لا يستحسن ذكرها لارتباطها بالجنس . ويجب ان لا ننس ان بعض الدوافع القهرية قد تكون نافعة للغير لا ضارة بهم ، كدافع الرحمة مثلاً الذي هو على النقيض من دافع الإيذاء الذي ذكرناه .

حين نستعرض الدوافع القهرية ندرك خطأ الرأي القديم القائل بأن الانسان حيوان عاقل

والواقع انه حيوان عجيب مليء بالمتناقضات ، وهو كثيراً ما يندفع في أمور ولا يدري لماذا اندفع فيها .

ان كل انسان – كما قلت سابقاً – لا بد ان يكون مصاباً بشيء من الدوافع القهرية قليلاً او كثيراً* والواقع ان كل شخص لا يمكن ان يخلو من مساوىء او محاسن على وجه من الوجوه . ولو كشف الله الغطاء عن حقيقة الكثيرين من الناس لرأينا فيهم من العيوب ما يثير الدهشة ، ولكن الله ستر عليهم فجعل عيوبهم قليلة نسبياً ومن السهل اخفاؤها .

* السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف نتعامل مع النتائج الحاصلة من هذه الأمور؟ إذا ما سرق شخص مصاب بدافع السرقة، هل نعاقبه على هذه الفعلة، والتي تعد - على حسب كلام الوردي - أمراً قهرياً لا دخل للفرد فيه؟

اللاشعور

س : ما المقصود باللاشعور بالدرجة الأولى وهل فطن اليه القدماء أو إستفادوا منه ؟

ج : يمكن القول ان اللاشعور وأثره في حياة الانسان قد فطن اليه البشر ببديهتهم منذ قديم الزمن ، حيث ادركوا ان بعض أفعال الانسان وأفكاره ليست نتاج تفكيره الواعي بل هي نتاج قوى خفية تؤثر فيه من حيث لا يدري او لا يشعر . وقد عزوا ذلك الى الجن والشياطين في بعض الأحيان والى الآلهة في أحيان اخرى .

يجب ان لا ننسى في هذا الصدد ما كان شعراء العرب قديماً يعتقدون به من الهام الشياطين لهم ، فكان لكل واحد منهم شيطان خاص به يلهمه الشعر في زعمهم ، فإذا غاب عنه شيطانه ضاع عليه نظم الشعر . ان هذا يدل على أنهم كانوا يدركون ان العقل الواعي ليس هو منبع الالهام في شعرهم ، بل ان هناك منبعاً آخر له لا يخضع للإرادة او التفكير الواعي .

ومما يلفت النظر ان القدماء كانوا ينسبون كلا من العبقرية والجنون الى تأثير الجن . ومن هنا جاءت لفظة « مجنون » في اللغة العربية ، كما جاءت لفظة « عبقري » ، فقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون بوجود وادٍ في موضع بعيد من جزيرة العرب يسكنه الجن وينسبون اليه كل امر بديع عجيب ولعل هذا له صلة بلفظة « جينس » الانكليزية التي تعني العبقرية .

يقال أن أول من لفت الأنظار الى موضوع اللاشعور في العصر الحديث هو الفيلسوف الالماني المعروف (لايبنتز) المتوفي في عام ١٧١٦ . ولكن بحثه في اللاشعور لم يلق اهتماماً واسع النطاق ، بل كان مقصوراً على المجال الفلسفي والأكاديمي فقط . ثم ظهر فرويد في أواخر القرن التاسع عشر ، فكانت له اليد الطولى في بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً ، وقد أثار بحثه ضجة كبرى في العالم ، ونال رواجاً منقطع النظير ، وقد وصف وليم جيمس نظرية فرويد بأنها « أعظم إكتشاف خلال مئة عام » .

قد يصح ان نقول عن نظرية فرويد في اللاشعور مثلما قيل عن المنطق العقلاني القديم الذي وضعه ارسطو . فكل واحد منهما كان في حينه ثورة تقدمية ساعدت على تطوير الفكر

البشري ، ولكنه صار بعدئذٍ عقبة في طريق هذا التطوير .

أننا إذ نعترف بفضل فرويد لا يجوز ان نغالي فيه على نحو ما غالى العقلانيون في المنطق القديم . ان الدراسات الحديثة أظهرت كثيراً من النقائض في نظرية فرويد . وقد نشر أحد الباحثين في امريكا مؤخراً بحثاً وصف فيه نظرية فرويد بأنها « بمثابة فقاعة صابون سرعان ما تتبدد في الهواء عند مواجهتها للحقائق العلمية » . ووصف النظرية باحث اخر يقول : « إنها مثل بناية كبيرة جداً ولكنها شيدت وفقاً لخطة رديئة » .

ان فرويد له فضل كبير في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي ، لانه كان اول من لفت الأنظار في العصر الحديث الى موضوع اللاشعور وأثره في حياة الإنسان ، ولكن عيب فرويد انه جعل اللاشعور مقصوراً على الرغبات المكبوتة ، ولا سيما الرغبات الجنسية . وقد تبين الآن أن اللاشعور عالم زاخر تكمن فيه مختلف الدوافع والعوامل . وليس مقصورا على دافع واحد كما تصور فرويد .

وعلى كل حال فقد راجت نظرية فرويد في بداية هذا القرن رواجاً عجيباً مذهلاً . وربما كان من أسباب رواجها انها فضحت سلوك الانسان من الناحية الجنسية وتحدثت بصراحة عن هذا الموضوع الذي كان المفكرون قبلئذٍ يتحاشون الخوض فيه .

وكان من نتائج رواج النظرية الفرويدية انها دخلت في عالم الأدب ، وتبناها بعض مشاهير الأدباء ، وصارت بعض مصطلحات فرويد – كعقدة « اوديب » محوراً للكثير من الروايات والمسرحيات . وانتشرت عدوى ذلك الى اللغة العربية ، وأصبحت نظرية فرويد في نظر الكثيرين في الأقطار العربية كأنها الكلمة النهائية في علم النفس . وما زالت هذه « الموضة » شائعة لدى البعض منهم حتى يومنا هذا !

س : الملاحظ في الكثير من الكتاب العرب انهم ما زالوا في المرحلة الفرويدية لم يتجاوزوها ، مع العلم انها كما ذكرت انت عنها أصبحت قديمة وغير مواكبة للتطور في هذا المجال . والرجاء منك ان تعطينا صورة عامة عن اللاشعور في ضوء الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة ؟

ج : ان اللاشعور في مفهومه الحديث يختلف عما فهمه فرويد منه . فهو لا يحتوي على الرغبات المكبوتة فقط بل هو يشمل محتويات اخرى عديدة . وهذه المحتويات كنت قد ذكرتها ، وكررت ذكرها ، في كتبي ومقالاتي ، ولعل من المجدي في هذه المناسبة ان اعيد ذكرها مرة اخرى لما لها من أهمية كبيرة في حياتنا العملية ، ومن المؤسف ان أقول اني وجدت بعض القراء لم يقتنعوا بصحة ما ذكرته وكررت ذكره ، في هذا الشأن ، أو هم لا

يريدون ان يقتنعوا ، فهم ما زالوا يعيشون في قوقعتهم العقلانية القديمة ، حيث يحسبون ان الانسان من الممكن إصلاحه عن طريق الخطابات والمقالات الرنانة . انهم يجب ان يعلموا أن الإنسان لا يمكن اصلاحه او التأثير فيه إلا بعد فهم طبيعته التي خلقه الله عليها ، والتغلغل في أعماقه من خلالها .

من الممكن ان نطلق مصطلح اللاشعور على جميع الدوافع التي تدفع الانسان في مختلف نواحي الحياة وهو لا يعرف مصدرها فيه . فالانسان حين يندفع بها يتصور انه فعل ذلك بإرادته واختياره ، بينما هو في الواقع مسير من حيث لا يدري .

وصف أحد الباحثين اللاشعور بقوله : انه يحتوي على منجم من الذهب وعلى مجموعة من النفايات في آن واحد . وكان الباحث يعني بذلك ان اللاشعور يضم جوانب ايجابية وسلبية معاً . وسنحاول فيما يلي ذكر عدد من الجوانب السلبية من اللاشعور وهي التي لها اثرها الضار في حياة الانسان الاجتماعية ، على أن نذكر الجوانب الايجابية في فرصة اخرى .

١ - التعصب التقليدي :

ونقصد بالتعصب التقليدي ميل الانسان الى التمسك بالمعتقدات والعادات والقيم والأعراف التي نشأ عليها في طفولته ، والتي تسمى في اللغة الانكليزية واللغات الاوربية الأخرى "Culture" والتي أفضل ترجمتها الى مصطلح « التراثية » .

فمن طبيعة الانسان بوجه عام انه إذ ينشأ على معتقدات وتقاليد معينة يتصور انها أفضل المعتقدات في العالم وان كانت هي مليئة بالخرافات والأباطيل . فهو يركز نظره على خـرافات المجتمعات الآخرى ، وينتقدها انتقاداً لاذعاً بينما هو يغض النظر عن خرافات مجتمعه ، وقد يأتي بالأدلة والبراهين لتبريرها او تمجيدها . وهذا هو الذي جعل الانسان يقاوم كل دعوة جديدة لإصلاح مجتمعه مهما كانت الدعوة فاضلة في حد ذاتها . ومن الجدير بالذكر ان القرآن أشار الى ذلك في بعض آياته حيث ذكر تمسك كل قوم بما وجدوا عليه آباءهم وكيف انهم يحاربون كل نبي يظهر بينهم وان كان يدعو الى معتقدات وتعاليم هي أفضل من تلك التي نشأوا عليها .

وهنا يجب ان لا ننسى ان الانسان في تعصبه التقليدي لا يخضع لتفكيره المنطقي الواعي ، بل هو يخضع لدافع لاشعوري لا ارادة له فيه ولا اختيار . وقد يصح القول ان الإنسان في حياته الاجتماعية يخضع لتنويم يشبه التنويم المغناطيسي من بعض الوجوه ، وهو الذي يمكن تسميته « التنويم الاجتماعي » . فالانسان يظل خاضعاً لهذا التنويم ما دام قابعاً في

بيئته الاجتماعية التي نشأ فيها ، ولكنه لا يكاد يفارق تلك البيئة او يتصل ببيئات اخرى حتى يبدأ التنويم الاجتماعي بالانقشاع عنه تدريجياً ، فهو في ظروفه الجديدة يتلقى إيحاءات تختلف عن الايحاءات التي اعتاد عليها سابقاً . وهذه الايحاءات لا بد ان تؤثر في تكوين لاشعوره قليلاً أو كثيراً .

٢ – الاتجاه العاطفي :

ونقصد به ميل الانسان الى النظر في الامور بنظرة تحيزية تبعاً لما يشعر به من عاطفة ايجابية او سلبية نحوها . فهو مثلاً إذا أحب شخصاً اتجه تفكيره نحو المبالغة في محاسن هذا الشخص ، وغض النظر عن مساوئه . وهو يفعل العكس من ذلك حين يكره شخصاً . ويجب ان لا ننسى ان الإنسان حين يركز نظره على المحاسن او المساوىء يتصور انه يفعل ذلك طلباً للحق والحقيقة ، وهو لا يدري انه آلة صماء بيد العاطفة اللاشعورية الكامنة في أعماق نفسه . انه قد يغير نظرته هذه بمرور الأيام تبعاً لتغير عاطفته ، ولكنه لا يعترف بذلك بل يعلل تغير نظرته بكونه قد إطلع على بعض الحقائق التي لم يكن مطلعاً عليها من قبل . وقد رأينا نماذج من هذا الطراز غير قليلة !

٣ – الدافع المصلحي :

ونقصد به حب الانسان لمصلحته الخاصة وبحثه عن كل ما ينفعها او يدرأ الضرر عنها وهذا يمكن ملاحظته بوضوح في قاعات المحاكم ، فكل من لديه قضية في المحكمة نراه منهمكاِ في البحث عن القرائن والأدلة التي تساعد على نجاح قضيته ، وهو يتصور انه على حق في قضيته وان خصمه على باطل ، فإذا حكم القاضي في مصلحته صار في نظره قاضياً عادلاً نزيهاً « كثر الله من أمثاله » ، أما اذا حكم القاضي في غير مصلحته إعتبره ظالماً او مرتشياً « ألف لعنه عليه »

وهذا أمر نلاحظه أيضاً عندما ينشب نزاع بين فريقين من الناس ، فأنت حين تستمع الى ما يقوله فريقين من الناس ، موضوع النزاع تجده يذكر جانباً من الحقيقة غير الجانب الذي يذكره الفريق الآخر . ان صاحب المصلحة هو كصاحب العاطفة لا يستطيع ان ينظر في الأمور نظراً موضوعياً محايداً مهما حاول ، فهو متحيز في نظره ولكنه لا يدري انه متحيز .

٤ – الأنوية :

ونقصد بها شعور الإنسان بـ « الأنا » وسعيه الدائب نحو رفع مكانتها في نظر الآخرين . فهذه طبيعة بشرية عامة لا يستطيع الانسان التخلص منها تخلصاً تاماً مهما حاول

فالانسان يسعى طيلة حياته نحو نيل المكانة العالية او السمعة الواسعة بين الناس . وهو لا يقف عند حد في ذلك حتى يدركه الموت فيستريح ويريح . ومشكلة الانسان انه حين يكون مدفوعاً بهذه الانوية الطاغية لا يدري انه مدفوع بها ، او هو لا يريد ان يدري . وحين يسأله أحد عن السبب الذي يدفعه الى هذا السعي الدائب يجيب انه لا تهمه نفسه بمقدار ما يهمه حب الحق والحقيقة ، او المصلحة العامة ، او التقرب الى الله ، او غير ذلك من التبريرات الظاهرية ، ان الإنسان يخدع نفسه قبل ان يحاول خداع الآخرين !

٥ – التجارب المنسية :

ان الانسان كثيراً ما تمر به حوادث سارة او مؤلمة ثم ينساها بمرور الزمن ، وهو يظن انه نسيها تماماً ، ولكنه لا يدري ان بقية منها ظلت كامنة في أعماق لاشعوره وهي تؤثر في سلوكه او تفكيره على وجه من الوجوه .

خــذ على سبيل المثال رجلاً رأى إمرأة لها شيء من الشبه بأمه التي ماتت منذ زمن بعيد . فهو قد يقع في حب المرأة من النظرة الأولى ويعدها جميلة جداً بينما هي في الواقع ليست جميلة بالدرجة التي يتصورها . وقد يعجب الناس من شدة حبه لها لأنهم لا يعرفون السبب اللاشعوري الذي دفعه الى ذلك .

وخذ مثلاً آخر في رجل حدثت له حادثة مؤلمة في وقت كان يسمع فيها أغنية معينة . فان هذه الاغنية تبقى مرتبطة في ذهن الرجل بالحادثة المؤلمة ، وهي قد تكون في المستقبل من أبغض الأغاني اليه دون ان يعرف السبب الكامن وراءها .

وخذ مثلاً ثالثاً في رجل كان له عدو من سالف الأيام وكان يكرهه كرهاً شديداً . ثم مات ذلك العدو ولكن ذكراه ظلت كامنة في ذهن الرجل فهو لا يكاد يرى أحد يشبه ذلك العدو في بعض ملامحه او حركاته حتى يشعر بالكره له . وهو قد يعلل هذا الكره بتعليلات او تبريرات وهمية يختلقها لنفسه ، ولو انه بحث في أعماق لاشعوره لوجد السبب الحقيقي كامناً فيه .

٦ – الرغبات المكبوتة :

ان الانسان كثيراً ، ما تكون لديه رغبات محرمة او غير مقبولة اجتماعياً ، فهو يخجل من إظهارها ويحاول كبتها في اعماق نفسه ، ولكنها لا تبقى مكبوتة دائماً بل هي تحاول التنفيس عن نفسها بالظهور بمظهر آخر غير مظهرها الحقيقي .

رأيت في أحد الأيام رجلاً قوياً من الذين يطلق عليهم لقب « الأشقياء » وهو يعتدي

على رجل مستضعف ويكيل له الضربات والصفعات ، ولما سألته عن سبب ضربه الرجل قال عنه ان « يكفر » . وقد اتضح لي ان هذا الرجل القوي مصاب بداء « الصادية » أي انه يتلذذ بالاعتداء والقسوة والإيذاء ، ولكنه لا يستطيع ان يشبع هذه الرغبة بغير عذر مقبول اجتماعياً وشاءت الصدفة انه سمع الرجل المستضعف ينطق في ساعة غضب بكلمات تتضمن سباً لأحد الأئمة ، فوجد صاحبنا القوي في ذلك فرصة سانحة لاشباع رغبته في القسوة ، وانهال على المسكين بالضربات والصفعات الشديدة ، متظاهراً انه يفعل ذلك في سبيل الله ومن أجل الحرص على الدين .

قد يصح ان أقول ان كثيراً من الذين يتظاهرون بحرصهم على الدين او المصلحة العامة ، او الحق والحقيقة ، انما هم في أعماقهم يطلبون إشباع رغبات لهم مكبوتة ، واني لا أزال أذكر أولئك االذين كانوا يسحبون جثة نوري السعيد في عام ١٩٥٨ .

فالواقع انهم كانوا في عملهم هذا يشبعون رغبة مكبوتة ، ولكنهم ينكرون ذلك ويتظاهرون بأن الذي دفعهم الى عملهم هذا هو حب الوطن فقط لا غير ، واني واثق ان ثورة ١٩٥٨ لو كانت قد اخفقت ، لفعلوا بعبدالكريم قاسم مثلما فعلوه بنوري السعيد .

أقف عند هذا الحد في ذكر السلبية من اللاشعور وهي الجوانب التي تجعل الانسان متحيزاً في تفكيره وبعيداً عن العدل والموضوعية . اما الجوانب الايجابية من اللاشعور فسوف أحاول شرحها في فرصة اخرى – قل ان شاء الله .

اللاشعور في جوانبه الايجابية :

ذكرنا من قبل قول أحد الباحثين في وصف اللاشعور وهو انه يحتوي على منجم من الذهب وعلى مجموعة من النفايات في آن واحد . فالمقصود بالنفايات هي الجوانب السلبية التي شرحناها في الحلقة الماضية ، اما منجم الذهب فالمقصود به الجوانب الايجابية من اللاشعور ، وهي الجوانب التي نحاول شرحها الآن .

يمكن القول ان معظم المخترعات الكبرى والأفكار المبدعة التي ساعدت على تطوير المجتمع البشري عبر التاريخ هي نتاج ومضات خاطفة انبثقت في لاشعور بعض الافراد بين حين وآخر . وكذلك يمكن القول ان معظم الناجحين في الحياة قد استمدوا نجاحهم من استثمار مواهبهم اللاشعورية على وجه من الوجوه .

هناك جانبان في اللاشعور لهما أثرهما الكبير في ابداع الانسان او في نجاحه . وكثيراً

ما يقع الانسان في خطأ مهلك حين يعتمد في حياته على التفكير المنطقي الواعي وحده ، ويهمل الومضات الابداعية او الخارقة التي تنبثق من عقله الباطن .

ذكرت في كلام سابقٍ شيئاً عن داء « الوسوسة » او « الوسواس » كما يسميه العوام في العراق . فالمصاب بهذا الداء قد يكون موهوباً بدرجة عالية من الذكاء ، او ببعض القدرات الخارقة ، ولكنه لا يستطيع استثمارها في حياته لأنه مشغول بعقدة الاستكمال التي تسيطر عليه فلا يستجيب لومضات مواهبه اللاشعورية او هو لا يهتم بها ، وكثيراً ما ينتهي المصاب بهذا الداء الى الفشل الذريع في الحياة !

ان العظيم او الناجح من الناس هو القادر على التمييز بين محتويات لاشعوره ، فيستثمر الجوانب النافعة منها بينما هو يراقب الجوانب الضارة فلا يتيح لها ان تعبث به كما تشاء .

نلاحظ في بعض الافراد انهم قادرون على إستثمار الجوانب الايجابية من لاشعورهم ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون ان يتخلصوا من مساوىء الجوانب السلبية : فترى أحدهم بارعاً في مهنته ولكن التعصب التقليدي او العاطفة والانوية تسيطر عليه وتفقده كثيراً من نتائج براعته .

ويمكن ان نقول مثل هذا عن العالم او الاديب او السياسي او الإداري فالواحد منهم قد يكون موهوباً في المجال الذي يعمل فيه ، ولكنه لا يستثمر موهبته كما ينبغي لأن الجوانب السلبية من لاشعوره تربك عمله وتخلق له خصوماً ليس هناك ما يدعو لخصومتهم .

س : أرجو ان تشرح لنا الجوانب الايجابية من اللاشعور على نحو ما شرحت لنا الجوانب السلبية منه سابقاً ؟

ج : يجب ان أعترف ان هذا الموضوع الذي تريد شرحه هو فوق طاقتي ، او هو بالأحرى فوق طاقة العلم في وضعه الحاضر ، ان مواهب الانسان كثيرة ومتنوعة ، وما زال العلم يشعر بالعجز عن اكتناه الكثير منها . ان الطبيعة البشرية وما فيها من ألغاز ما زالت في معظمها غير معروفة ، وقد يصدق عليها ما قاله الشاعر العربي :

أتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ان مواهب الانسان كثيرة ومتنوعة ، كما أشرنا إليه آنفاً . ومن الممكن تصنيفها الى صنفين رئيسين هما المواهب الذكائية والمواهب الخارقية .

في عام ١٩٨٢ جاء الباحث الامريكي هوارد غاردنر بنظرية جديدة مفادها ان الذكاء

ليس نوعاً واحداً بل هو سبعة انواع . فالفرد قد يكون ذا درجة عالية في أحد أنواع الذكاء بينما هو ذو درجة واطئة في نوع آخر منه . خذ مثلاً اينشتاين ، وهو العبقري المشهور صاحب نظرية النسبية التي اعتبرت في حينها طفرة في عالم الفيزياء والفلك . فهذا الرجل كان في طفولته لا يجيد الكلام ، وظل كذلك حتى آخر حياته . وقد ظن اهله انه لا خير فيه لانهم كانوا يقيسون الذكاء بفصاحة اللسان وجودة النطق ، كما هو الحال في الجيل الماضي عندنا . فهم لم يكونوا يعرفون ان اينشتاين لديه درجة عالية جداً من نوع آخر من الذكاء . ولو كان اينشتاين قد عاش في مجتمع متخلف لما تمكن من استثمار ذكائه الممتاز ، ولبقي طيلة حياته لا خير فيه .

ويمكن ان نقول مثل هذا عن اديسون وهو المخترع العظيم الذي لم يظهر في تاريخ البشرية اكثر اختراعاً منه . فهو لم ينجح في المدرسة في طفولته وكتب عنه مدير المدرسة أنه متخلف في ذكائه . فالمدير كان يقيس الذكاء بمقياس لم يكن منطبقاً على أديسون . ولو كان أديسون يعيش في مجتمع متخلف لصار مصيره كمصير اينشتاين « لا خير فيه » .

وحين نأتي الى المواهب الخارقية نجد انها أكثر تنوعاً وغموضاً من المواهب الذكائية . وهذا الموضوع هو الذي اختص به علم الخارقية الجديد ، اي « الباراسكولوجيا » كما يسمى في اللغة الانكليزية واللغات الاوربية الأخرى .

فقد اتضح الآن في ضوء هذا العلم ان كثيراً من الناس لديهم قدرات خارقة ، كقراءة الأفكار ، او رؤية الأشياء المحجوبة او البعيدة ، او تحريك الاشياء بالنظر ، او التنبؤ بحوادث المستقبل ، او المقدرة على شفاء الأمراض ، أو غيرها . ولكن كثيراً من هؤلاء الذين يملكون مثل هذه المواهب لا يستطيعون ان يستثمروها في حياتهم ، او هم لا يعرفون أنهم يملكونها ، فتضيع فوائدها عليهم .

يجب ان لا ننسى ان المواهب الخارقية ، هي كمواهب الذكاء ، لا تخضع للتفكير الواعي ، او هي قد يفسرها التفكير الواعي . فهي تنبثق من أعماق اللاشعور ، ومن يريد ان يستثمرها يجب ان يستجيب لها بلا تفكير او تمنطق أو وسوسة .

خذ على سبيل المثال تاجراً ناجحاً في تجارته ، وكان سبب نجاحه انه يملك قدرة خارقة في قراءة أفكار الزبائن او التأثير فيهم ، او التنبؤ بمستقبل الاسعار أو ما أشبه . وهو يجري في إستثمار موهبته عفو الخاطر . فهو لا يكاد يخضع موهبته لتفكيره الواعي حتى يبدأ بالسير في طريق الفشل .

ان هذا هو الذي جعل العلماء والمفكرين لا يصلحون للتجارة . فهم اذا دخلوا في عالم

التجارة اخفقوا فيه ، لأنهم إعتادوا على التفكير المنطقي في مجال عملهم ، وهذا النوع من التفكير يعرقل الاستجابة لومضات القدرات الخارقة . ومن هنا جاء المثل الدارج المعروف في أسواق بغداد وهو : « الذي يدخل في السوق يجب ان يضع عقله على الرف » .

س : أنك تقول ان الناجح من الناس هو الذي يقدر على التمييز بين محتويات لاشعوره فيستثمر الجانب النافع منها بينما هو يراقب الجانب الضار فلا يتيح له ان يعبث كما يشاء فالرجاء توضيح هذا القول لما له من أهمية غير قليلة في حياتنا العملية ؟

ج : أن الناجحين في مختلف شؤون الحياة هم الذين يملكون القدرة على التوفيق بين طاقات عقولهم الواعية واللاشعورية معاً . فلا خير فيمن يستجيب لومضات لاشعوره وحدها دون تفكير واعٍ كما لا خير فيمن يستجيب لتفكيره الواعي دون اهتمام بومضات لاشعوره .

ان التفكير الواعي هو الميزان الذي يزن به الانسان ما يخطر في ذهنه من خواطر متنوعة ، ويدرك قيمة كل منها في الحياة العملية ، فنحن نعرف أشخاصاً يملكون مواهب نادرة أو قوى خارقة ولكنهم لا يعرفون كيف يستثمرونها لنقص في عقولهم الواعية . وكذلك نعرف أشخاصاً على النقيض من ذلك يعتمدون على عقولهم الواعية في كل امورهم – كما هو الحال في المصابين بداء « الوسوسة » – وتراهم يحققون ويدققون في كل صغيرة وكبيرة ، فتضيع بذلك ومضات الابداع اللاشعورية فيهم .

ان الومضات الابداعية كثيراً ما تختلط في يقظتنا بمحتويات اللاشعور الأخرى ، كالرغبات المكبوتة او التعصب التقليدي ، او التجارب المنسية او العواطف القوية ، وهنا تأتي وظيفة العقل الواعي في التمييز بين المحتويات ، وفي معاملة كل منها بما ينفع فيها .

وهناك ناحية اخرى جديرة بالذكر هنا هي اهمية الدأب والمثابرة في إستثمار ومضات اللاشعور . فان الذي يملك موهبة الإلهام دون ان يملك معها موهبة الدأب والمثابرة كثيراً ما يضيع الهامه سدى .

يروي عن أديسون انه وصف الاختراع الذي يبدعه أي مخترع بأنه في معظمه حصيلة الجهد والتعب ، أما الإلهام فليس له في إنجاز الاختراع سوى نصيب قليل جداً . او هو على حد تعبير أديسون : « ٢ بالمئة نتيجة الالهام و ٩٨ بالمئة نتيجة العرق » . وهذا قول فيه مبالغة ولكنه مع ذلك لا يخلو من الحقيقة . فان الملهمين العظام في مجال العلم او الفن ليسوا حصيلة الالهام وحده ، بل هم قد تميزوا عن غيرهم بالتعب المتواصل وبذل الجهد ، أي بـ « العرق » على حد تعبير اديسون .

خذ مثلاً الشاعر المشهور الذي بز منافسيه بروعة شعره ، فهو لم يكتف بما لديه من موهبة شعرية ، بل رأيناه يكافح طويلاً في حفظ قصائد الشعراء الجيدين قبله ، يسعى بكل جهده في ان يقارن بينها لكي يعرف ميزة كل منها على الأخرى . وهو كلما ازداد حفظاً ودرساً وتدقيقاً إزدادت قدرته على نظم الشعر البديع . ولكنه مع ذلك لا يقسر نفسه على نظم الشعر في أي وقت يشاء ، بل هو ينتظر لحظات انطلاق القريحة ، فيقتنصها عند ذاك كما يقتنص الصياد فريسته .

وهذا هو ما يفعله المؤلف والباحث العلمي ، فهو لا يكتفي بما لديه من ذكاء او موهبة علمية ، بل هو يبذل أقصى جهده في جمع المعلومات وتصنيفها . وفي الدأب المتواصل الذي لا يقف عند حد فيها . وكلما ازداد دأباً في ذلك ازدادت قدرته على الإبداع فيه ، حتى يجد نفسه أخيراً وقد زخر عقله الباطن بالومضات المبدعة . فيعمد هو الى إقتناصها على نحو ما يقتنص الشاعر فيض قريحته .

والواقع ان الإبداع في كتابة المقالات هو من هذا الطراز أيضاً . فالكاتب لا يستحسن له ان يعتمد على قريحته او موهبته وحدها عندما يريد ان يكتب مقالاً . فهو مهما كان ذا موهبة كبيرة فليس في مقدوره ان يكتب المقال الجيد ما لم يتعب اولاً في جمع المعلومات الخاصة به .

يؤسفني ان أرى بعض مدارسنا وكلياتنا تعلم طلابها بخلاف هذا في كتابة الإنشاء . فهي تطلب من الطالب ان يلجأ الى الخيال والتأمل المجرد ، وان يشحذ قريحته اعتماداً على الالفاظ الرنانة والتعبيرات البلاغية المكررة .

ومن هنا نشأ لدينا كتّاب بارعون في صياغة الالفاظ الرنانة غير اننا لا نستفيد من كتاباتهم شيئاً أو لا نفهم منها شيئاً .

حول الحضارة الحديثة

س : قرأنا في بعض مقالاتك وكتبك أنك تدعو بحماس الى تبني الحضارة الحديثة والسير في طريقها ولكنك في الوقت نفسه تقول بأن الحضارة الحديثة مليئة بالمساوىء ، فإذا كانت هي كذلك فكيف تدعونا الى تبنيها والسير في طريقها ؟

ج : ان الحضارة الحديثة ، وكل حضارة بشرية ظهرت في تاريخ العالم ، لا يمكن ان تخلو من مساويء خاصة بها . ومن الممكن القول ان الحضارة الحديثة هي اكثر مساوئاً من الحضارات التي سبقتها وذلك لانها اكثر تقدماً واختراعاً .

ان هذا قول قد لا يرتضيه المفكرون العقلانيون لانهم اعتادوا على النظر في الامور حسب التصنيف الثنائي الذي التزم به المنطق القديم . فان هذا المنطق يصنف الامور الى صنفين متضادين : خير او شر ، حق او باطل ، نافع او ضار ، حسن او قبيح ، الخ ... ومن الجدير بالذكر ان هذا التصنيف الثنائي لا يوافق عليه المنطق الحديث ويعتبره مغلوطاً .

ان الأمور في ضوء المنطق الحديث كثيراً ما تكون مزيجاً بين الخير والشر ، او بين النفع والضرر . فليس هناك في هذه الدنيا خير محض او شر محض . وهذا هو ما أشار اليه القرآن الكريم حين قال : « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم » .

ان أمور هذه الدنيا نسبية في الغالب ، فما يرضى عنه قوم قد يسخط عليه آخرون . ويجب ان لا ننسى ان مبدأ النسبية لا يقتصر اثره على الأمور البشرية فقط ، بل هو يشمل ظواهر الكون أيضاً ، على نحو ما توصل اليه اينشتاين في نظريته المعروفة .

ان الحضارة الحديثة انتجت من المخترعات ما غيرت به وجه العالم ، وهي مخترعات لو سمع بها القدماء لاعتبروها مستحيلة او غير معقولة . ولكن هذه المخترعات أضـــرت بالبشرية بمقدار ما نفعتها ، او هي بعبارة اخرى اضرت بالبشرية ونفعتها في آن واحد .

أن الأضرار التي أصابت البشرية من جراء هذه المخترعات كثيرة يصعب حصرها . وقد يكفي ان نذكر منها : تلوث البيئة وتضخم المدن وتكاثر السكان والانفجارات النووية وتضاؤل طبقة الأوزون وانتشار التصحر وتقلص الغابات وظهور امراض جديدة وتسمم المياه والأغذية والمطر الحامضي وغيرها .

ان العلماء اليوم يحاولون علاج هذه الأضرار او العمل على تقليلها . ولكن السؤال

الذي يواجهنا هنا : هل هم قادرون على ذلك ؟

في رأي بعض العلماء ان الاضرار الناتجة عن الحضارة الحديثة ستنمو بمرور الزمن ، وهي قد تؤدي في نهاية المطاف الى هلاك البشرية . وهذا الرأي يذكرنا بما ورد في القرآن الكريم عن يوم القيامة . ونسأله تعالى ان لا يبقينا الى هذا اليوم – آمين !

لا تقتصر مساوىء الحضارة الحديثة على النواحي المادية وحدها ، وهي النواحي التي أشرت الى نماذج منها آنفاً ، بل هي تشمل نواحي اخرى غير مادية .

المعروف عن المجتمعات المتقدمة التي ازدهرت فيها الحضارة في عصرنا انها مشحونة بعوامل القلق والكآبة والجنون والانتحار والانحراف والتشرد . وقد يصح ان نقول ان المجتمع كلما ازداد تقدم الحاضرة فيه ازدادت فيه في الوقت نفسه معدلات الانتحار والجنون والانحراف والجريمة .

إني أدركت في صباي الجيل الذي عاش في العهد العثماني قبل مجيء الحضارة الحديثة اليه . فقد كان جيلاً يسوده الفقر والحرمان . ولكنه كان في الوقت نفسه تسيطر عليه الطمأنينية النفسية والعقيدة الجازمة .

كانت العقيدة الدينية حينذاك مسيطرة على النفوس لا يتطرق اليها الشك ، وكان الناس يجدون فيها السلوى تجاه ما يعانونه من مشاكل الحياة ومصائبها . فهم كانوا يجدون في العقيدة علاجاً روحياً لكل مشكلة يواجهونها ، وهم على الأقل ينتظرون من الله ان يعوضهم في الآخرة عما يعانونه في هذه الدنيا « الفانية » من آلام .

لا أنكر ان العقائد التي كانت سائدة في تلك الايام لم تكن خالية من بعض الخرافات والأباطيل ، ولكنها كانت مع ذلك تسبغ على الناس طمأنينة وراحة نفسية ، تبعدهم عن القلق والتذمر .

اني ما زلت أتذكر السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في العراق ، وكيف اندهش الناس حين رأوا بعض مظاهر الحضارة الوافدة اليهم ، فهم قد شاهدوا فجأة مصابيح موضوعة على أعمدة في الشوارع وليس فيها نفط ولا فتائل ولا تحتاج الى « نفطجي » مكلف بإنارتها واطفائها كل مساء وصباح . ان هذا امر لم تكن تستسيغه عقولهم ولا يستطيعون تفسيره ، وقد ذهبوا في تعليله مذاهب شتى حسب مفاهيمهم القديمة التي اعتادوا عليها .

ان الحضارة الحديثة بدأت بالتسلل الى العراق منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حيث جاءت الباخرة والتلغراف والحاكي والعربة وبعض المخترعات البسيطة الأخرى . ولكن

المخترعات الحديثة أخذت تأتي الى العراق عقب الحرب العالمية الأولى بزخم شديد ، فأذهلت عقول الناس وأخرجتهم من قوقعتهم الذهنية التي كانوا مرتاحين فيها .

كتبت ذات مرة مقالاً في إحدى الصحف بعنوان : « من على ظهور الحمير الى الجمبو » وهذا العنوان يصور الفترة التي عشت فيها منذ طفولتي حتى شيخوختي الحاضرة فالواقع اني سافرت مع اهلي في أواخر عام ١٩١٦ على ظهور الحمير ، ثم اتيح لي في الآونة الأخيرة ان أسافر بطائرة « الجمبو » وربما اتيح لي قبل مغادرة هذه الدنيا ان أركب الطائرة الصاروخية – قل ان شاء الله !

ان هذه الفترة التي استغرقت نحو سبعين سنة يمكن اعتبارها أهم مرحلة مر بها العراق في تاريخه الاجتماعي . فقد انتقل المجتمع العراقي بها من وضعه الراكد المنعزل الى وضعه الجديد الذي تسوده الحضارة الحديثة بمخترعاتها ونظمها المختلفة . اني حين أقارن بين ما كنا فيه قبل سبعين سنة وما نحن فيه الآن اجد فرقاً كبيراً من الناحيتين المادية والنفسية . فنحن الآن نتمتع بأقصى ما توصلت اليه الحضارة من مخترعات عجيبة كالسيارة والطائرة ، والمذياع والتلفاز ، والثلاجة والمكيفة وأصبح كل بيت يستطيع ان يجمع في جنباته ما يشتهيه اهله من ملذات مادية . اما الملذات الروحية التي كان البيت القديم مملوءاً بها فقد بدأت بالتضاؤل يوماً بعد يوما – مع الأسف الشديد !

ان هذا أمر محتوم لا مفر منه . فليس في مقدور الانسان ان يحصل على محاسن الحضارة بينما هو ينبذ مساوئها كما يشاء . ان شؤون الحضارة هي كغيرها من شؤون الحياة البشرية لا يمكن ان نتبع فيها طريقة الانتقاء والإختيار على نحو ما يفعل احدنا عند شرائه البطيخ من البقال .

يجب ان لا ننسى ان المحاسن والمساوىء تأتي معاً في الحياة الاجتماعية ، ومن يطلب المحاسن وحدها دون المساوىء فالأحرى به ان يعيش في عالم آخر غير هذا العالم الذي نعيش فيه .

ان المخترعات العظيمة التي تزخر بها الحضارة الحديثة قد منحت الانسان متاعاً مادياً غير انها أفقدته المتاع الروحي .

يقول احمد بن حنبل : العقيدة تسليم ومن تمنطق فقد تزندق . وهذا القول يقرب مما جاء به علم الاجتماع الحديث . فكلما كان المجتمع أكثر انغلاقاً وإنعزالاً كانت العقيدة في افراده أقوى ، وهو لا يكاد ينفتح على المجتمعات الأخرى ، وتأخذ الحضارة بالتسرب اليه ، حتى يبدأ التشكيك وضعف العقيدة بالظهور فيه قليلاً او كثيراً .

أن المفكرين العقلانيين يظنون ان في مقدور المجتمع ان يسير في طريق العلم والحضارة مع احتفاظه بالطمأنينة النفسية الشاملة لجميع الأفراد فيه . وهم يضعون في ذلك منهجاً يحسبون انه يوصلهم الى الهدف المنشود .

ان هذا من الأوهام التي شغل بها المفكرون العقلانيون منذ زمن قديم ، وما زالوا مشغولين به حتى الآن . فهم يحسبون انهم قادرون عل تغيير طبيعة الانسان عن طريق المواعظ وظلوا يمطرون الناس بمواعظهم طيلة مئات السنين بينما بقي الناس على طبيعتهم القديمة دون ان يتغير منها شيء .

س : نـعود الى السـؤال الموجه اليك فـي البداية ، وإسمح لنا ان نضعه بالصورة التالية : « إذا كانت الحضارة الحديثة مليئة بالمساوىء كما ذكرت فكيف جاز لك ان تدعونا الى تبنيها والسير في طريقها » ؟

ج : الواقع اننا نقف تجاه الحضارة الحديثة في مأزق ، او ما يسمى في الاصطلاح العلمي "Dilemma" ، أي اننا في مشكلة ذات حدين .

يجب ان لا ننسى ان الحضارة الحديثة محتومة علينا لا مفر منها ، فهي قدرنا الذي لا محيص منه ، فنحن ما دمنا نريد العيش في هذا العصر فلا بد ان ندخل في معترك هذه الحضارة شئنا او أبينا .

ان أمام اليمن السابق يحيى حميد الدين الذي عاش في النصف الأول من هذا القرن حاول ان يعزل بلاده عن الحضارة الحديثة ، فلم يسمح بالدخول الى بلاده منها الا بعض الامور المحـدودة التي إعتبرها نافعة غير ضارة ، انه كان يعتقد ان الحضارة الحديثة مليئة بالشرور ، وهي تفسد الأخلاق والايمان ، وان واجبه الديني يقتضي عليه ان يقف حائلاً بين بلاده وتسرب الحضارة اليها .

مشكلة هذا الرجل هي مشكلة أمثاله من الطوبائيين الذين يتصورون ان في مقدورهم ان يصوغوا أنفسهم ومجتمعهم كما يشاؤون . انهم لا يدرون ان الحياة الاجتماعية تسير حسب نواميس قاهرة تشبه نواميس الطبيعة من بعض الوجوه ، وقد صار من الواجب على من يريد المشاركة في هذه الحياة ان يفهم نواميسها وينسجم معها .

لو كان الامام يحيى يعيش في أحد القرون القديمة لكان في مقدوره ان يعزل بلاده عن أي تيار حضاري وافد اليها . ففي تلك القرون لم تكن وسائل السفر والإعلام والاتصال الفكري والاجتماعي ميسورة على نحو ما هي عليه اليوم . وكان من السهل على أي حاكم

مستبد آنذاك ان يسد منافذ بلاده عن تيارات العالم الخارجي . . ومن سوء حظ الامام يحيى انه عاش في غير زمانه ، ثم قضى غير مأسوف عليه .

خلاصة القول ان الحضارة الحديثة محتومة علينا بالرغم مما فيها من مساوىء ومخاطر كبيرة : فهي قدرنا المكتوب علينا . وكل ما نقدر ان نعمله تجاهها هو ان نتنبأ بالمساوىء والمخاطر التي تأتي معها ونعد أنفسنا لمعالجتها او التقليل من أضرارها بمقدار جهدنا – والله المستعان على كل حال ! .

عودة الى العقل

س : أصدرت في عام ١٩٥٥ كتاباً بعنوان « مهزلة العقل البشري » وهذا عنوان ينتقص من قيمة العقل الى الدرجة القصوى هذا مع العلم ان العقل هو أعظم ما وهبه الله للإنسان وهو الذي أنتج هذه الحضارة الكبرى . فما قولك ؟

ج : قلت في مناسبات سابقة ، واعيد القول هنا ، اننا نشأنا على مفاهيم مغلوطة في موضوع العقل والطبيعة البشرية ، وقد أدت هذه المفاهيم الى كثير من الاضرار بنا وبمجتمعنا . ولا أكتم القارىء أني أنا من ضحايا هذه المفاهيم . فقد نشأت كغيري من أبناء جيلي عليها واعتدت النظر في الأمور من خلالها ، وكان ذلك من الاسباب التي جعلتني أتورط خلال حياتي في أخطاء كنت في غنى عنها . واني احاول بمقدار جهدي ان أحذر أبناء الجيل الجديد من الوقوع في مثل الاخطاء التي وقعت فيها قبلهم .

عندما ذهبت الى الخارج في الأربعينات لدراسة علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي انكشفت امامي امور لم أكن أعلم عنها شيئاً من قبل . واتضح لي اني كنت غارقاً في الأوهام مع الأسف الشديد .

كانت الاوساط العلمية في الخارج حينذاك قد برزت فيها اتجاهات ثلاثة ، كنا نحن في الشرق غافلين عنها كل الغفلة ، وهي كما يلي :

١ – الاتجاه الذي بدأبه (وليم جيمس) و (كولي) و (ميد) في موضوع العقل والانوية في الانسان .

٢ – الاتجاه الذي بدأ به الاستاذ (راين) في جامعة ديوك في موضوع (الباراسيكولوجيا) او (علم الخارقية) كما أحب ان أسميه .

٣ – الاتجاه الذي بدأ به (كارنيجي) في موضوع كيف تعامل الناس وكيف تنجح في معاملتهم .

ان هذه الاتجاهات الثلاثة تناقض كل التناقض تلك المفاهيم التي نشأنا عليها في مجتمعنا وأضرت بنا . ولا بد لي من الإشارة هنا الى ان الناس في الغرب قد نشأوا على مثل المفاهيم التي نشأنا نحن عليها ، ولكنهم أدركوا خطأهم قبلنا . وقد شعرت ان الواجب يقضي عليّ عند عودتي الى الوطن ان أنبه الناس الى الخطأ في تلك المفاهيم .

مشكلتي عند العودة :

في عام ١٩٥٠ عدت الى الوطن بعد إكمال دراستي ، وكان ذهني مشحوناً بالاتجاهات الثلاث التي ذكرتها . أضف الى ذلك اني تعلمت هناك اسلوباً في الكتابة يختلف عن الاسلوب الذي اعتدنا عليه في بلادنا وهو اسلوب الالفاظ الرنانة والتحذلق والمزاوجة .

لم أكد أبدأ بالكتابة بعد عودتي الى الوطن حتى صار النقد الشديد يوجه الي من ناحيتين ، من ناحية الاسلوب وناحية المضمون . فالأدباء من ناحية يريدون مني ان احلق في عالم التحذلق والألفاظ الرنانة عالياً ، وينتقدون الاسلوب « التلغرافي » الذي اتخذته ، والآخرون من الناحية الأخرى يريدون مني ان أسير على نفس الخط القديم الذي سار الناس عليه قبلنا حيث اتبع المفاهيم التقليدية في الثقة المطلقة بالعقل ومحاولة اصلاح المجتمع عن طريق الوعظ الطوبائي .

جوبهت بتهم متنوعة على مدى اربعين عاماً تقريباً فمن النقاد من إتهمني بأني عميل للأجانب ومكلف بهدم تراثنا العظيم ، ومنهم من اتهمني باني أطلب المخالفة من أجل الحصول على الشهرة ، ومنهم من إتهمني بغير ذلك . وأسأله تعالى ان يبرئني من هذه التهم – في أواخر حياتي على الأقل .

قد يسألني سائل فيقول : لقد ذهب الكثيرون غيرك الى الخارج للدراسة ، ولكنهم لم يفعلوا مثلما فعلته انت ، فما هو السر في ذلك ؟

مشكلتي اني درست في الخارج علم الاجتماع ، وهذا من سوء حظي . فقد كان من الأنفع لي ان أدرس علماً آخر كما فعل الآخرون .

المصيبة في علم الاجتماع ان الناس كلهم ، وحتى الاميين منهم ، يتصورون انفسهم انهم اختصاصيون فيه . فكل فرد من الناس يحسب نفسه مفكراً اجتماعياً من الطراز الأول ، وهو مستعد لمجادلتك في أي موضوع اجتماعي وان كان هو لا يعرف عنه شيئاً .

ان الناس اعتادوا ان لا يجادلوا ذوي الاختصاص في موضوع اختصاصهم الا في علم الاجتماع . فهم مثلاً لا يجادلون الطبيب في موضوع اختصاصه ، او المهندس ، او الحقوقي ، او الفقيه ، او الكيمياوي ، او الفيزياوي ، او غيرهم . اما الاجتماعي فهم يسرعون الى مجادلته وتفنيد آرائه وهم واثقون انهم على صواب وانه على خطأ .

أجريت في أحد الأيام تجربة في أحد المجالس التي ارتادها ، وهو يضم نخبة من المثقفين فعرضت عليهم نظرية اجتماعية جديدة لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً من قبل ، وكانت هي

مخالفة للمفاهيم التي اعتادوا عليه . فانبرى البعض منهم ينتقد النظرية ويذكر جوانب الخطأ منها واحداً بعد الآخر . وعندما قلت لهم انها نظرية قد اتفق عليها اكثر العلماء في الوقت الحاضر ، أجابني أحدهم قائلاً : « ثم ماذا ؟ ان العلماء كثيراً ما يخطأون »ولما سألته عن المقياس الذي يميز به الخطأ عن الصواب في النظريات العملية ، أجابني : « أنه العقل » .

الواقع ان هذا المثقف ليس نادراً بين مثقفينا ، فان الكثيرين منهم لا يزالون يعيشون في قوقعتهم العقلانية القديمة حيث يعتقدون ان العقل هو مفتاح عام يصلح لفتح كل المغاليق ويفسر جميع القضايا .

ان هذا النمط من المفكرين ، وهم الذين نسميهم « العقلانيين » ، أخذ عددهم يتضاءل في الاوساط العلمية والثقافية في البلاد المتقدمة . . ويؤسفني ان أقول انه ما زالوا له دوره النشيط في اوساطنا . فهم ينظرون الى العقل على نحو ما كان ينظر اليه افلاطون وارسطو والفارابي وابن رشد ، غافلين عما يجري في العالم من تيارات فكرية جديدة .

قلت مراراً وأعيد القول هنا ، ان العقل البشري بمقدار ما هو عظيم في قدرته على الابداع والاختراع ، هو ضعيف عاجز في النواحي الاخرى .

يجب ان لا ننسى ان الله منح العقل للانسان لكي يساعده في تنازع البقاء ، على نحو ما منح الخرطوم للفيل ، والانياب للأسد ، والسم للعقرب ، والقرون للضبي ، الخ ... ومعنى ذلك ان العقل ليست وظيفته التوصل الى الحق والحقيقة كما توهمه العقلانيون القدماء ، بل ان وظيفته هي مساعدة الانسان في تنازع البقاء . فالانسان هو حيوان قبل ان يكون انساناً .

ان الانسان حين تجابهه مشكلة في حياته يبدأ بالتفكير في أيجاد حل لها. فهو لا يطلب الحق والحقيقة بمقدار ما يطلب الحل لمشكلته . وهذا هو سر الاختراعات المدهشة التي ابدعها الانسان عبر تاريخه الطويل . فهذه الاختراعات لم يكن المقصود بها التوصل الى الحقيقة المطلقة بل المقصود تغلب الانسان على أعدائه من الحيوانات الاخرى او من بني نوعه من البشر .

ان اول اختراع اخترعه الانسان في بداية تاريخه هو قطعة الحجر المدببة في طرف منها ، وهي التي تسمى (Eulith) فهذه القطعة قد إستخدمها الانسان في قتال اعدائه او في الصيد . ثم اخترع الانسان العصا بعدئذٍ ، ثم ربط بين العصا وقطعة الحجر بالياف استمدها من الاشجار فصارت في يده سلاحاً عظيماً يقارب في أهميته القنبلة الذرية في عصرنا .

لا مجال هنا لذكر سلسلة الاختراعات التي أبدعها الانسان في تاريخه الطويل .

ويـكفي ان نقول ان العقل البشري بارع كل البراعة في ابداع ما ينفع الانسان في تنازع البقاء ، غير انه من الجهة الاخرى عاجز كل العجز عن ادراك الحقيقة التي تخالف منفعته . انظر الى البشر في وضعهم الحاضر ، فهم وصلوا في مخترعاتهم الى هذه الدرجة الهائلة التي نشهدها ، ولكنهم من الجهة الأخرى عاجزون عن ايجاد حل لحروبهم . فهم سيظلون يتحاربون ويتحاربون الى ما شاء الله – مع الأسف الشديد !

لكي نفهم طبيعة العقل البشري بوضوح نذهب الى قاعات المحاكم ، فكل من له قضية في محكمة يسعى جاهداً نحو جعل القاضي يحكم لصالحه وتراه يجمع الأدلة العقلية والنقلية للبرهنة على صحة دعواه . وحين يحكم القاضي في مصلحته يكون أعظم القضاة عدلاً ونزاهة ، اما اذا حكم في غير مصلحته فانه يصبح ظالماً او مرتشياً « لعنة الله عليه ! » .

ان القضاء مؤسسة اجتماعية ابتكرها البشر منذ قديم الزمان لكي يحل بها المنازعات التي تنشب بينهم . فقد أدرك البشر ببديهتهم أن المنازعات لا يمكن حلها عن طريق مناشدة المتنازعين بالاحتكام الى العقل ، فان كل فريق من المتنازعين حين يحتكم الى عقله يعتقد جازماً ان الحق معه وان الباطل مع خصمه . ولا بد اذن من قيام مؤسسة لها قوة رادعة تحكم بين المتنازعين . وفي غياب مثل هذه المؤسسة يأكل الناس بعضهم بعضاً .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان البشر حين نجحوا في حل المنازعات التي تقع بين الافراد او الجماعات المحلية ، لم ينجحوا في حل المنازعات التي تقع بين الدول . فلم تظهر مؤسسة قضائية عالمية تملك القوة الرادعة التي تستطيع بها ان تفرض احكامها على الدول المتنازعة .

ان الأمم المتحدة في أيامنا هذه هي كعصبة الامم السابقة لها لا تصلح لحل المنازعات الدولية ، لانها لا تملك القوة الرادعة التي تجبر الدول المتنازعة على الانصياع لأوامرها . ولهذا فان الحروب سوف تبقى مستعرة بين الدول الى ان تقوم مثل هذه القوة العالمية الرادعة . ومن المؤسف ان نقول ان هذه القوة لن تقوم مادامت الدول الكبرى تتنافس فيما بينها وكل واحدة منها تريد ان تكون كلمتها هي العليا .

هذه هي طبيعة البشر منذ خلقهم الله وسيظلون كذلك حتى يوم يبعثون . فالبشر متـــنازعون بطبيعتهم ، وهم يظلون يتنازعون ويتقاتلون ما داموا لا يجدون أمامهم قوة تردعهم .

ان هذا الكلام كررته على القراء عشرات المرات على طريقة « يعيد ويصقل » ولكني لم أجد من يقبل به الا القليلين فالى متى ؟ !

س : انك في تهجمك على العقل تريد منا ان نكون مجانين ، فالعقل هو الذي يرشدنا الى طريق الصواب في حياتنا العملية ، وإذا تركنا دليل العقل كما تريد منا ان نفعل ، فأي دليل آخر يمكن ان نستعيض به في حياتنا ؟ ! افتونا مأجورين .

ج : يبدو لي ان هذا السائل قد أساء فهمي ، فاني عند انتقادي ، او تهجمي ، على العقل لم أقصد ابعاده عن حياتنا نهائياً . فقد قلت مراراً ، وأعيد القول هنا ، ان العقل عظيم جداً ، ولكن مشكلتنا معه هي أننا نستعمله في كل شيء حتى في النواحي التي اتضح علمياً انه عاجز وقاصر فيها .

كل ما اريد قوله في هذا الشأن هو اننا يجب ان نميز بين النواحي التي يكون العقل فيها عظيماً والنواحي التي يكون فيها عاجزاً قاصراً . واني لا أحب ان أعيد هنا ما كررته مراراً في مقالاتي وكتبي السابقة حول هذا الموضوع . ولكني مع ذلك مضطر ان أذكر بإيجاز خلاصة ما توصل اليه العلم الحديث فيه .

هناك منطقان او منهجان للتفكير ، أحدهما نسـميه المنطق « الاستنتاجي » أو العقلاني » ، والآخر نسميه المنطق « الاستقرائي » أو العلمي وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

ولا حاجة بنا الى القول ان المنطق الاستنتاجي هو الذي كان سائداً في العالم منذ ان أنشأه الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد ، اما المنطق الاستقرائي فهو الذي يسود الاوساط العلمية في العصر الحديث .

يمكن القول ان التقدم العلمي والتقني الذي نشهده في عصرنا هو نتاج المنطق الاستقرائي الحديث . فلو ان المنطق الاستنتاجي القديم ظل مسيطراً على الأذهان لما كان في مقدور البشر التوصل الى ما توصلوا اليه من تقدم علمي وحضاري عجيب . ومن المؤسف ان نرى بعض متعلمينا ومثقفينا ما زالوا يجرون في تفكيرهم على المنطق القديم بالرغم من تشدقهم بالأفكار والمعلومات الحديثة .

لا أنكر ان المنطق القديم عندما بدء به الإغريق كان يمثل ثورة على التفكير الذي كان سائداً في عصرهم . فقد كان البشر في العصور القديمة ، وما زال الكثيرون منهم حتى يومنا هذا ، يعيشون في عالم من الخرافات والأساطير التي لا يقبلها العقل . فنهض فلاسفة الإغريق لمكافحة هذا التفكير الخرافي ، وأنشأوا منطقهم لهذا الغرض وهو المنطق الذي عرف بأسماء مختلفة كالمنطق الصوري او الشكلي او الأرسطي .

تطرقت لهذا المـــوضوع في مجلة « الحضارة » وأشرت حينذاك الى ان المنطق

العقلاني الذي أنشأه الاغريق يعد حركة تقدمية بالنسبة الى زمانه ، ولكنه تحول بمرور الزمن الى حركة رجعية ، شأنه في ذلك شأن الكثير من الثورات والحركات التقدمية التي شهدها التاريخ ، انه كان ثورة على التفكير الخرافي ثم صار فيما بعد عقبة تجاه التفكير العلمي .

لو درسنا تاريخ الفكر في القرون الوسطى لوجدنا المنطق العقلاني سائداً على عقول المفكرين في الغالب . فكان كل ذي رأي او عقيدة يستخدم ذلك المنطق سلاحاً بيده ضد خصومه . ان المنطق العقلاني بعبارة اخرى صار مطية الأهواء وليس وسيلة للتوصل الى المعرفة النافعة .

ان هذا كان واضحاً في المجتمعات الاوربية والاسلامية معاً في تلك القرون . وهذا هو الأساس الذي قام عليه علم الكلام في الاسلام . ومن الجدير بالذكر ان المفكرين المسلمين لم يكونوا كلهم من هذا النمط . فقد ظهر بينهم مفكرون عديدون حاربوا المنطق العقلاني او انتقدوه وأظهروا عيوبه ، كان من بينهم الغزالي وابن تيمية وابن خلدون وقد يصح ان نعتبر هؤلاء من رواد الثورة المنطقية الحديثة التي دعت الى تبني منطق الاستقراء . وقد شرحت ذلك في كتابي « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » الذي صدر في القاهرة في عام ١٩٦٢ .

س : ما العيب الاساسي في المنطق العقلاني وهو العيب الذي جعل هذا المنطق سلاحاً بيد الفرق المتنازعة تتجادل به دون ان تصل في جدلها الى نتيجة حاسمة ؟

ج : عيب هذا المنطق انه استنتاجي اي انه يستنتج الأفكار التي يريدها من كليات عقلية عامة ، وهي الكليات التي كان أصحاب المنطق العقلاني يعتبرونها بديهية اتفق على صحتها العقلاء ولا يجوز الشك فيها . وهذا هو الذي جعل المناطقة القدامى حين يبدأون مقالاً لهم يقولون في مقدمته : « مما اتفق عليه العقلاء » أو « مما لا شك فيه » أو « مما لا يتجادل فيه اثنان » أو ما أشبه .

وما زالت هذه العبارات مستعملة لدى الكتاب والمؤلفين حتى يومنا هذا .

تبين الآن علمياً ان لا وجود للحقائق المطلقة ، او الكليات العقلية العامة ، في هذه الدنيا فان ما يعده الناس في عصر من العصور من الحقائق المطلقة ليس سوى مألوفات اعتادوا عليها واعتبروها كذلك ، وهي قد تنقلب في عصر آخر الى أوهام أو أباطيل لا أساس لها من الصحة .

أذكر فيما يلي قصة واقعية جرت لي في الاسكندرية بمصر في تموز ١٩٦٩ ، وقد

ذكرتها في مناسبة سابقة ، ولا بأس ان أذكرها هنا مرة اخرى لأنها تصلح ان تكون نموذجاً للجدل الذي ينشب بين الناس على أساس المنطق الاستنتاجي القديم .

خلاصة القصة اني كنت حينذاك في الاسكندرية وقد اعتدت ان أقضي بعض الوقت في الجلوس الى شخص أعرفه هناك ، وهو يملك دكاناً لبيع السلع المتنوعة بالقرب من محل اقامتي . وكان هذا الشخص له اصدقاء يرتادون دكانه ويجلسون معه لتبادل الحديث فيه . وكانوا جميعاً من الأميين او انصاف المتعلمين ، وكنت أستفيد من التحدث اليهم والمناقشة معهم لما في ذلك من دراسة عملية للتفكير البشري كما هو في الواقع لا كما يتحذلق به المفكرون الطوبائيون .

جئت اليهم في صباح احد الأيام لابشرهم بصعود اول إنسان الى القمر ، وكان هذا الخبر قد أذيع في الليلة السابقة . ولكنهم نظروا الي مستنكرين قولي ومتعجبين من تصديقي لهذا الخبر الذي هو غير معقول في نظرهم ولا يمكن ان يصدق به انسان له ذرة من العقل حسب قولهم . فقلت لهم : لا بد أنكم شاهدتم في التلفزيون أمس صورة هبوط الرجل على سطح القمر ، فما قولكم في هذه الصورة ؟ فانبرى أحدهم في الرد علي قائلاً : اذا كانت الصورة التي ظهرت في التلفزيون حقيقية وليست مصطنعة فهي تدل على ان أرض القمر هي كأرضنا مكونة من التراب ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يسقط التراب علينا من القمر ؟ !

أخذت أتابع المناقشة معهم لكي أتعرف على أدلتهم الأخرى . فقلت لهم ان التراب لا يسقط علينا من القمر تحت تأثير قانون الجاذبية ، فليس هناك فوق وتحت في الفضاء فنحن نرى القمر فوقنا في السماء ، والذين في القمر يرون الارض فوقهم في السماء كذلك .

فالأرض لها جاذبيتها والقمر له جاذبيته . والإنسان الذي يقف على الأرض يعتبر ما تحت قدمه « تحت » وما فوق رأسه « فوق » ، وكذلك يفعل الذي في القمر .

ان هذه الأدلة التي جئت بها لم تلق قبولاً منهم ، بل لقيت إستهزاءً واستنكاراً . وقال احدهم وهو يخاطبني بلهجة الناصح : « ان الله أعطانا العقل لكي نميز به الأشياء ! القمر فوق ونحن تحت ! » . ثم جاء بمثل واقعي هو المؤذن الذي يصعد الى المئذنة ، فهو عند صعوده الى المئذنة ، يرانا تحته ونحن نراه فوقنا . فالفوق فوق والتحت تحت . ماذا تقول ؟ ! ان الله أعطانا العقل لنفكر به !!!

ولم أجد تجاه الأدلة القاطعة التي أوردوها سوى الإذعان ، واعتذرت لهم عن تصديقي بذلك الخبر الذي لا يقبله العقل ، وشكرت تنبيههم لي .

ان هذه المجادلة التي ذكرتها آنفاً لا تختلف في فحواها المنطقي عن أية مجادلة تنشب بين الناس اعتماداً على الكليات العقلية العامة ، أو الحقائق المطلقة . ولا فرق في ذلك بين المتعلمين والأميين .

فان أولئك الأميين الاسكندرانيين اعتمدوا في جدلهم على حقيقتين هما من الحقائق المطلقة التي لا شك فيها في نظرهم . الأولى هي ان التراب الموضوع على سطح معين لا بد ان يسقط الى الأسفل إذا إنقلب هذا السطح . أما الثانية فهي ان الذي يرتفع عالياً في الجو يرانا تحته ونحن نراه فوقنا .

ويجب ان نعترف ان هاتين الحقيقتين لا يمكن الشك في صحتهما في نظر من لا يعرف قانون الجاذبية . ومعنى هذا ان الاميين الاسكندرانيين كانوا محقين في جدلهم . ونحن الذين نعرف قانون الجاذبية قد نصبح مثلهم تجاه من يعرف قانوناً آخر من قوانين الكون لا نعرفه .

ان قوانين الكون وأسراره لا تحصى ، والعلم يكتشف في كل يوم شيئاً جديداً منها ، وهو لا يزال في اول الطريق من ذلك ، وان كثيراً من الحقائق التي نثق بصحتها في أيامنا قد تصبح مغلوطة في أيام قادمة . وفي هذا مصداق قوله تعالى : « وفوق كل ذي علم عليم » و « ما أوتيتم من العلم الا قليلاً » .

خلاصة ما نريد قوله في هذا الصدد هي ان الحقائق المطلقة التي كان المفكرون القدامى يستندون عليها في مجادلاتهم ليست مطلقة بل هي نسبية . ولهذا نجد العلم الحديث حين يريد دراسة ظاهرة من ظواهر الكون او النفس او المجتمع لا يلجأ الى المجادلة كما كان القدامى يفعلون ، بل هو يبحث في الظاهرة نفسها حيث يحاول اخضاعها للتجريب او الدراسة الموضوعية بغض النظر عما اذا كانت مطابقة للحقائق المألوفة او مخالفة لها .

أود ان أقص للقراء قصة واقعية أخرى تشبه تلك التي حدثت لي في الاسكندرية ، وهذه القصة حدثت للمرحوم جدي ولكنه كان الغالب فيها بينما كنت في الاسكندرية أنا المغلوب .

ففي عام ١٩١٠ ذكرت جريدة كانت تصدر في بغداد خبراً مفاده ان (الأوربيين) اخترعوا عربة تطير في الهواء ، وهي التي سميت فيما بعد « طيارة » . وفي تلك الايام جاء الى جدي جماعة من أصحابه يذكرون له هذا الخبر العجيب عن العربة التي تطير في الهواء . فوجه جدي اللوم اليهم لتصديقهم بهذا الخبر الذي لا يقبله العقل . واخذ يشرح لهم الدليل الذي يجعل طيران العربة في الهواء مستحيلاً ، وسألهم قائلاً : « من أي شيء صنعت هذه

العربة التي تطير في الهواء كما تقولون ؟ أليست هي مصنوعة من الخشب والحديد كغيرها من العربات ؟ » ثم أشار جدي الى مطرقة كانت مطروحة الى جانبه وقال لهم : « هذه المطرقة المصنوعة من الخشب والحديد هل في مقدورها ان تطير في الهواء ؟ » . فوافقوا على صحة رأيه ، واعتبروا خبر الطيارة مستحيلاً . غير انهم لم تمض عليهم سوى خمس سنوات حتى شاهدوا بأم أعينهم طيارة محلقة في الجو وتقذفهم بالقنابل ...

ان جدي لا لوم عليه فيما قال ، فهو قد جرى في تفكيره على نفس المنطق الاستنتاجي الذي جرى عليه المفكرون قبله ، وهو قد عاش في عهد لم يكن المنطق الاستقرائي الحديث معروفاً فيه . ان اللوم في الواقع لا يقع الا على هؤلاء الذين يسمون انفسهم مثقفين في أيامنا ، وقد حصلوا على الشهادات العالية ، غير انهم ما زالوا يجادلون على منوال ما كان القدماء يفعلون . وأرجو من القارىء الذي لا يصدق بقولي هذا ان يذهب الى بعض مجالس المثقفين عندنا ويشهد المجادلات التي تنشب فيها .

وأرجو هنا ان لا يذهب القارىء الى الظن ان جميع مجالسنا هي من هذا النوع . فالواقع ان بعض مجالسنا لا تقل من حيث نضوجها الثقافي عن مجالس المجتمعات المتقدمة . وإني أشهد أني حين أحضر هذه المجالس أحصل منها على فوائد تاريخية واجتماعية غير قليلة .

حول القيم البغدادية

س : يرى بعضهم ان القيم الإجتماعية التي كانت سائدة في بغداد في العهد العثماني كانت حسنة ونافعة للمجتمع وهم يدعون الى المحافظة عليها ، فما رأيك أنتَ ؟

ج : ذكرتُ أن القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في بغداد في العهد العثماني كان لها جانب حسن اذ كانت تمثل النخوة والشهامة والنجدة والتعاون بين ابناء المحلة الواحدة تجاه المحلات الاخرى . ولكنها من الجانب الاخر لا تلائم الحضارة الحديثة التي نريد السير في طريقها في العصر الحاضر .

يجب ان نضع أمام ابصارنا دوما ان الحضارة الحديثة مليئة بالمساوىء ولكنها مع ذلك محتومة علينا لا مناص منها . اذ هي الميدان الذي يحصل فيه الان تنازع البقاء بين الامم والويل للامة التي تخفق فيه .

ان قيم النخوة والشهامة والنجدة والتعاون بين ابناء المحلة ذهب زمانها وحلت محلها قيم أخرى . فهي تمثل امتداداً للقيم البدوية السائدة في الصحراء والتي كانت تدور حول العصبية القبلية . اما الحضارة فلها قيم اخرى مناقضة لها .

من الجدير بالذكر ان العصبية القبلية كانت لها وظيفتها الاجتماعية في الصحراء لعدم وجود الحكومة فيها . فالفرد البدوي مضطر ان ينتمي الى قبيلة تحميه لانه لا يجد بديلا لها عند غياب الحكومة . فهو ينتصر للقبيلة في معاركها مع القبائل الاخرى . والقبيلة بدورها تنتصر له عند وقوع اعتداء عليه وتأخذ بثأره عند مقتله . ومن هنا نشأت خصال النخوة والشهامة والنجدة وغيرها من الخصال التي تميزت بها البداوة .

ويجب أن لا ننسى ان هذه الخصال انتعشت في بغداد وفي انحاء العراق الاخرى في العهد العثماني ، لان الحكومة كانت حين ذاك في غاية الضعف والتفسخ ، فهي لم يكن يهمها سوى جباية الضرائب ، وتركت الناس يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون ولذا استفحلت العصبية المحلية في المدن ، والعصبية العشائرية في الريف ، كما انتشرت القيم الملائمة لها وهي التي أشرنا انفاً .

اني أدركت بقايا ذلك العهد في طفولتي وصباي ، وكنت أسمع كبار السن يتحدثون عنه باسهاب . فقد كان الموظف حينذاك لا يقوم بعمل الا بعد أن يأخذ رشوة عليه في الغالب ، وكثيراً ما ينقلب الحق الى باطل في دوائر الحكومة ، والباطل الى حق . ولهذا اعتاد الناس على عدم الاعتماد على الحكومة عند وقوع اعتداء عليهم ، فهم يعرفون مقدماً ان

شكواهم اليها لا تنفعهم شيئاً لان الرشوة أو الوساطة هي التي تلعب دورها فيها . وهم اذاً مضطرون في حماية أنفسهم وأموالهم الى الاعتماد على انتماءاتهم المحلية أو العشائرية.

نماذج واقعية :

ان العصبية المحلية لم يقتصر انتشارها على بغداد وحدها بل هي كانت منتشرة في جميع المدن العراقية . ومن الممكن القول انها كانت في بغداد أضعف مما كانت في المدن العراقية الاخرى . وذلك لقوة السلطة الحكومية فيها بالنسبة الى غيرها .

إن كثيراً من المدن العراقية كانت بعيدة عن مركز الحكومة ، ولهذا كانت المعارك المحلية فيها أكثر مما كانت في بغداد . ولنأت بمثل على ذلك ما كان يجري في النجف من معارك ضارية . يحدثنا الشيخ جعفر محبوبة في كتابه (ماضي النجف وحاضرها) انه شهد في عام ١٩٠٥ معركة ضارية بين فئتين من أهل النجف هما (الزقرت) و (الشمرت) . وكان بطل المعركة رجل اسمه (عزيز باقر شام) وهو من الشمرت . وبعد أن قتل رجالا مشهورين بالشجاعة والنجدة من الزقرت سقط قتيلاً هو وولدان له . فانتصر الزقرت بذلك . ويقول الشيخ محبوبة انه شاهد بعينيه بعد انتهاء المعركة كيف أن الغالبين كانوا يحملون الأثاث والفرش الثمينة التي انتهبوها من بيوت المغلوبين . ومعنى هذا أن معارك المحلات في النجف لم تختلف في فحواها الاجتماعي عن معارك القبائل في البادية .

ان هذا الذي ذكره الشيخ جعفر محبوبة عن النجف نجده في مذكرات الذين عاشوا في بغداد وان كان على نطاق أضيق .

يحدثنا المرحوم (علي ال بازركان) في مذكراته وهو من مواليد عام ١٨٨٧ انه شهد في حداثته معركة حامية بين محلتي (الحيدر خانة) والميدان من جهة ومحلتي (العمار) و (البو شبل من الجهة الاخرى . وقد اشترك فيها الصبيان والشبان كما كانت النساء يزغردن لهم في أثناء ذلك .

ويحدثنا المرحوم الدكتور (مصطفى جواد) كذلك انه شهد في عام ١٩٢٠ معركة بين (بني سعيد) و(الكـــرد) و(باب الشيخ) ، وقد فرقتهم الشرطة كما اعتقلت عدداً منهم .

وكذلك يحدثنا المستشرق الفرنسي (ماسنيون) اذ هو كان في بغداد عام ١٩١١ وشهد في (باب المعظم) معركة بين محلتي (باب الشيخ) و(الحيدر خانة) ، وكان سبب المعركة ان المحلتين خرجتا للتظاهر في تأييد الدولة العثمانية عند نشوب الحرب بينها وبين ايطاليا . فقد أعلنت الدولة العثمانية الجهاد وخرجت المحلات البغدادية كلها للتظاهر تأييداً

للجهاد (في سبيل الله) ثم حدثت مشاجرة بين رجلين أحدهما من (باب الشيخ) والاخر من (الحيدر خانة) ، فنسى الناس قضية الجهاد عندئذٍ واهتموا بالمشاجرة الشخصية حيث انضم كل فريق منهم الى الرجل الذي هو من محلتهم . وقد انتهت المعركة أخيراً بانتصار محلة باب الشيخ ، وصار أهلها يهزجون باهازيج الفخار !

وحدث مثل هذا في الكاظمية في ٢٠ كانون الاول من عام ١٩١٢ . وهذا اليوم يوافق العاشر من محرم حيث يجري الاحتفال بذكرى مقتل الحسين في صحن الكاظمية المقدس . وقد حدثت المعركة بين موكب من أهل الكاظمية وموكب من أهل الكرخ . ووصفت المعركة مجلة (لغة العرب) التي كانت تصدر في بغداد حينذاك فقالت ما نصه :

(وقعت في الكاظمية نهار عاشوراء في ٢٠ كانون الاول واقعة مؤلمة أحزنت قلب كل عاقل . وصورة هذه الحادثة ان ألوفاً من المسلمين يجتمعون في الكاظمية يوم عاشوراء تذكاراً لوقعة الطف . ومن جملة من كان من المتألبين هناك في ذلك النهار جماعات من جانب الكرخ . وفي هذه الديار عادة سيئة وهي انه اذا اكتظ الناس في ساحة تساءلوا فيما بينهم ايهم من المحلة أو البلدة الفلانية وأيهم من المحلة أو البلدة الفلانية الاخرى . فإذا ألقي هذا السؤالُ ينشأ للحال نفور بين سكان محلة ومحلة أو مدينة ومدينة ثم لا يعتم ان يتجسم هذا النفور فيتحول الى سب وشتم . الى قدح وذم . الى ضرب ولكم . الى تجرح وقتل . وهذا ما وقع في الكاظمية ، فإنه لما علم بعض جهال الكاظمية من هم من محلة الكرخ تنابزوا فتشاتموا فتلاكموا فتجارحوا فتقاتلوا . وانجلت الواقعة عن قتل واحد من أهل الكاظمية وجرح ثلاثة منهـــم ، وعن جرح ثلاثة من أهل الكرخ . فقبض على المتهم بالقتل وجماعته فأودعوا السجن . عسى أن هذه الحادثة تكون الاخيرة في هذا الباب بهمة الحكومة وسهرها على رعاياها) .

من الجدير بالذكر ان والدي كان من بين الجرحى في تلك المعركة ، وقد أشرف على الموت لإصابته بطعنة عميقة في ظهره ، وحمل الى بيته حيث عالجه أحد الحلاقين بما كان لديه من أدوية تقليدية . وشاء القدر أن ينجو من الموت ، ولو أنه كان قد مات لما أتيح للقارىء ان يقرأ هذه السطور .

هناك قصة يرويها السيد محسن الامين العاملي ، وهي جديرة بالذكر هنا . فقد كان هذا الرجل طالباً يدرس الفقه في النجف في أواخر القرن التاسع عشر وهو قد شهد معركة محلية في النجف في أثناء دراسته فيها بين الزقرت والشمرت ، وكان سببها ان الشمرت أرادوا دفن ميت لهم ليلاً في المقبرة العامة خارج البلدة فخرج اليهم الزقرت لمنعهم .. وفي اليوم التالي هجم الشمرت على السوق فأغلق أهل الاسواق دكاكينهم بسرعة وتجمع الفريقان

وتحصنوا ، فانتشر الخوف والرعب في البلدة ، وأغلق الكليدار أبواب الصحن الشريف لكي لا يدخله احد الفريقين ويصعد الى المنائر فيطلقوا الرصاص منها . فالمنائر هي أعلى موضع في البلدة ومن يصعد اليها تكون له الغلبة على عدوه .

وقد استمرت المعركة بضعة أيام ويقول السيد محسن عن نفسه وعن زملائه الطلبة انهم كانوا ينامون فوق سطح الدار الذي يسكنون فيه لان الفصل كان صيفا ، فكانوا يسمعون أزيز الرصاص فوق رؤوسهم ، مما اضطرهم أخيراً الى النزول الى صحن الدار ثم الى الالتجاء الى الايوان لغرض النوم فيه .

ويقول السيد محسن أيضاً ان الحكومة في النجف كان أقصى عملها في تلك المعركة انها ادخلت جنودها الى القشلة واغلقت عليهم الابواب كما أغلقت أبواب السراي ، كأن الامر لا يعنيها .

الملاحظ ان هذا الذي حدث في النجف كان يختلف من بعض الوجوه عن الذي كان يحدث في بغداد . فقد رأينا ما حدث في المعركة التي نشبت في الكاظمية في أواخر ١٩١٢ ، والتي ذكرتها مجلة (لغة العرب) التي كانت تصدر في بغداد في تلك الايام . فقد ذكرت المجلة أن الشرطة ألقت القبض على عدد من المشاركين في المعركة وأودعتهم السجن . ثم ختمت المجلة حديثها بقولها : عسى ان الحادثة تكون الاخيرة في هذا الباب بهمة الحكومة وسهرها .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان الحكومة العثمانية أصبحت أكثر قدرة على ضبط الامن على أثر نجاح الحركة الدستورية فيها في عام ١٩٠٨ . وهي الحركة التي سميت في حينها « المشروطية » . أما قبل ذلك فكانت الحكومة لا تبالي بما يجري من اضطراب في الأمن الا ضمن حد محدود .

يمكن القول بوجه عام ان السلطة الحكومية محور الحضارة .

طابع المجتمع البغدادي :

ان وجود العصبية المحلية في بغداد في العهد العثماني بالاضافة الى وجود شيء من السلطة الحكومية فيها جعلها ذات طابع اجتماعي خاص بها .

فقد كان الفرد البغدادي في ذلك العهد يفتخر بصفتين فيه هما قوته الفردية وقوة الجماعة التي ينتمي اليها . ومن يستمع الى المفاخرات والمشاتمات المتداولة بين العوام يجد ذلك واضحاً فيها . فهم اذا أرادوا مدح فرد منهم وصفوه بأنه سبع و رجال و زلمة وإنه اذا مشى هز الارض بأقدامه وانه يغلب ما ينغلب و يأخذ حقه بذراعه . وهم إذا ذموا أحداً

منهم وصفوه بأنه مخنث و مكفخ و مفعول به الخ ...

ومما يلفت النظر في الشتائم العامية التي كانت متداولة بين الناس في تلك الايام ان معظمها لا توجه الى الفرد وحده بل هي تلحق به أباه أو أخاه أو أمه أو أسرته وعشيرته ، فيقال له ابن الكذا ، أو أخ الكذا ، أو ما أشبه .

والملاحظ أيضاً أن المفعولية الجنسية تعد من أبشع العيوب في تلك الايام ، فإذا وصف بها الفرد أو وصف بها أخوه أو أبوه أو أخته أو أحد أفراد أسرته كان ذلك عاراً عليه لا ينسى ، أما الفاعلية الجنسية فلم تكن تعد عيباً في الفرد مهما كانت انحرافية أو غير شرعية وكان بعض العوام يفتخرون بها أحياناً .

وفي الوقت نفسه كان العوام يفتخرون بعصيانهم للحكومة وتحديهم لأوامرها . وكان السجن حين ذاك يعد من مفاخر الرجولة ، ومن هنا جاء المثل البغدادي الدارج وهو قولهم : السجن للرجال . فاذا سجن أحدهم ثم خرج من السجن بعد انتهاء مدة محكوميته جعل لفّة اليشماغ على رأسه بشكل خاص يرمز الى انه كان مسجوناً ، وهـي اللفّة التي كانت تسـمى « قلعيل » نسبة الى القلعة التي كان المجرمون يسجنون فيها .

ذكرت في حديث سابق كيف أن الشقي كانت له منزلة عالية بين العوام ، اذ هو كان يعتبر بطل المحلة وحامي حماها ، بينما هو كان في نظر الحكومة يعتبر مجرماً . وقد جئت بمثل على ذلك بالقصة التي رواها المرحوم عبد الكريم العلاف ، وهو قد شاهدها بنفسه في أواخر العهد العثماني ، وخلاصتها ان شقياً بغدادياً مشهوراً اسمه عباس السبع قتل في معركة له مع شرطة وأرادت الشرطة أن تجعله عبرة لغيره من الاشقياء فربطت جثته بحصان وصار الحصان يسحبها في طرقات بغداد . ويقول العلاف أنه رأى الناس يبكون على الشقي القتيل كما رأى جـماعة منـهم تمشي خلف جثته وهي تهزج مادحة له كما كانت النساء يلطمن ويندبن حولها .

ان قصة عباس السبع هذه لها مغزى اجتماعي لا يستهان به ، اذ هي تشير الى العداء الذي كان مستحكماً بين الشعب والحكومة في العهد العثماني . وهذا أمر لا غرابة فيه لان السلطة الحكومية والعصبية القبلية متناقضتان ، فما يدعم احداهما يؤدي الى توهين الاخرى .

وهناك قصة أخرى تشير الى هذا العداء المستحكم بين الشعب والحكومة في العهد العثماني ، وهي قصة خلف بن أمين التي سمعتها من بعض المسنين من أهل بغداد وكانت متداولة بين الناس لما فيها من طرافة .

ملخص القصة ان هذا الرجل كان يعيش في أواخر العهد العثماني وكان أكبر مطمح له ان يكون شقياً مشهوراً لكي ينال السمعة والمكانة التي يحصل عليها الشقي في المجتمع

البغدادي عادة . ولكن خلف بن امين مع الاسف لم يكن يملك مؤهلات الشقاوة من حيث قوة البدن والشجاعة والجرأة . حدثني أحد الذين عاصروه وعرفوه من أهل بغداد فقال عنه أنه كان يكثر في أحاديثه من قصص القتل والسلب وقطع الطرق والسطو على البيوت ، وكان يعزو الكثير منها الى نفسه بقصد التفاخر بها . واذا وقعت حادثة قتل أو سرقة في محلته أو في المحلات المجاورة لها ذهب الى مقربة من مركز الشرطة يسأل الناس هل ورد اسمه بين المتهمين اذ يقول لهم : هل ورد اسم خالكم ؟ ويقصد بذلك نفسه وهو قد يتعمد في بعض الاحيان إلصاق التهمة به لكي يحشر مع المتهمين عندما يساقون الى المحكمة ويقال ان القاضي كان يعرفه ويخيب أمله في كل مرة يجده أمامه في المحكمة حيث كان يطلق سراحه ويقول له : لو تموت ما أحبسك .

لقد كان الشقي مجرماً في نظر الحكومة بينما هو كان في نظر الشعب بطل المحلة وحامي حماها وكذلك كان السجن لا يعاب الرجل عليه ومن هنا المثل البغدادي الدارج : السجن للرجال .

الواقع ان معالم العداء بين الشعب والحكومة حينذاك كانت كثيرة وكان من السهل تفسيرها اجتماعياً في العصبية المحلية أو القبلية وهي بطبيعتها مناقضة للسلطة الحكومية ، كما أشرت اليه سابقاً ، فكلما كانت العصبية المحلية في الناس أقوى كان عداؤهم للحكومة أشد .

اعتاد الناس في العهد العثماني انهم اذا جاءهم مجرم هارب من الحكومة ، ولجأ اليهم دخيلاً ، أسرعوا الى نجدته وحمايته بكل وسيلة ممكنة لديهم . فهم كانوا بالاضافة الى عدائهم للحكومة يتمسكون بقيم الدخالة والنجدة ، ومن العار عليهم أن لا ينجدوا أحداً جاءهم دخيلاً عليهم .

وكان الناس اذا علموا أن أحد منهم قد أخبر الحكومة عن رجل هارب منها ، أو اشترك في القبض عليه بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، أصبح في نظرهم جاسوساً ووصفوه بأنه ليس نجيباً ولا ابن أجاويد .

وكذلك اعتاد الناس على تخريب أي شيء يعود للحكومة وان كان موضوعاً لخدمتهم ، كما اعتادوا على عصيان أوامر الحكومة وتعليماتها وان كانت تلك الاوامر يقصد بها مصلحتهم العامة ومن المؤسف أن نقول ان هذه العادات ظلت متبعة بعد زوال العهد العثماني . ومشكلة العادات انها لا تزول بزوال اسبابها بل هي تبقى في الناس وان كانت تضعف تدريجياً بمرور الزمن .

إننا حين ندرس عادات العوام وبعض المتعلمين في أيامنا نجد البعض منها لا يختلف عن عادات أسلافهم في العهد العثماني .

أرجو من القارىء أن يقوم بجولة في حدائق بغداد وشوارعها ومرافقها العامة لكي يشهد بنفسه ما صنع الناس فيها من تخريب عجيب . وإني في الواقع لا أملك نفسي من الدهشة حين أرى المساطب الحجرية في الحدائق العامة وهي محطمة فان تحطيم هذه المساطب ليس بالامر السهل اذ هو يحتاج الى قوة وجلادة ، ولست أدري ماذا يقصده المخربون من فعلهم هذا ؟

ويمكن أن أقول مثل هذا عن سلاسل الحديد التي نصبتها أمانة بغداد لكي تدرب الناس بها على نظام العبور . فالناس بدلاً من أن يتدربوا على النظام بها صاروا يقطعونها ويعبثون بها وسيأتي يوم عليها لا يبقى فيه منها سوى الحطام الذي يضر ولا ينفع .

اطلعت مؤخراً على احصاء ذكرته احدى الصحف العراقية حول التخريب الذي جرى على الاسيجة التي وضعـتها أمانة بغداد في الشوارع من أجل سلامة المواطنين فقد بلغت كلفة تصليحها خلال ثلاث سنوات أكثر من مليونين وأربعمئة دينار .

الواقع ان هذا التخريب ليس سوى قليل من كثير — . فلو نظرنا الى معالم التخريب في حافلات النقل ومقاعدها — اكشاك الهاتف وغيرها ، علاوة على ما رأيناه منها في الشوارع والحدائق العامة ، لكانت النتائج مذهلة يصعب تصديقها ، وهي من النادر أو المستحيل وجودها في مجتمع متحضر اعتاد الناس فيه على عادات الحضارة وقيمها .

لعل من المناسب أن أذكر هنا حادثة بسيطة شهدتها بنفسي في احدى الحدائق العامة في مدينة أوروبية . فقد كانت هناك امرأة تمشي في الحديقة بصحبة طفلها ، وأسرع الطفل في غفلة من أمه فاقتطع زهرة كانت في متناول يده ، ولم تكد الام تلحظ ذلك حتى بدأت بتوبيخه وذكرت له ان الحديقة ملك الجميع وان الواجب يقضي على كل مواطن ان يحافظ عليها ثم طلبت الام من طفلها أن يذهب الى حارس الحديقة الذي كان واقفاً بالقرب منها لكي يعتذر منه عما فعل ويبدي استعداده لدفع التعويض .

وشهدت حادثة أخرى هنالك تشبه هذه الحادثة فقد كنت أريد عبور شارع في خارج احدى المدن ، ولم تكن في الشارع أية سيارة غير أن ضوء العبور كان أحمر ، ورأيت عجوزاً واقفاً تنتظر الضوء الاخضر اذ هي كانت حريصة على طاعة نظام المرور بالرغم من عدم وجود أي خطر في العبور وخجلت انا أن أخالفها في ذلك وبقيت واقفاً معها .

ان هذا أمر مألوف في البلاد المتحضرة الحديثة وأريد أن أعيد هنا ما ذكرته سابقاً وهو أن الحضارة الحديثة فيها مساوىء كثيرة وان فيها من القيم الاجتماعية ما ينافي القيم التي نحترمها في مجتمعنا ، ولكن الحضارة مع ذلك محتومة علينا في هذا العصر الذي نعيش فيه ، ونحن لابد أن نأخذها بمساوئها ومحاسنها معاً شئنا أو أبينا !

ولعلني لا أغالي اذا قلت أن مساوىء الحضارة بدأت تنتقل الينا اكثر من انتقال محاسنها وأخشى اننا اذا بقينا مستمرين في مثل الحالة فربما جاءنا يوم نخسر فيه الخيط والعصفور ، مع الأسف الشديد !

اننا نمر الان في مرحلة اجتماعية صعبة جداً ، وقد أصبح علينا ازاءها واجب ضخم . ومن المؤسف ان نرى الكثيرين من كتابنا ومفكرينا لا يعيرون أي اهتمام للمشكلة الكبرى التي نعانيها في هذه المرحلة ، ومنهم من يهتمون بهذه المشكلة ولكنهم يحاولون معالجتها بالطريقة الخطابية المثالية التي اعتاد عليها المفكرون القدامى وكان ضررها أكثر من نفعها .

إن هؤلاء الخطابيين يزعمون أن في مقدورنا أن نأخذ من الحضارة محاسنها ، كما نأخذ من قيمنا القديمة محاسنها ، بينما ننبذ المساوىء من كليهما معاً ، وبذلك نكون أفضل الأمم وحين نسألهم عن الطريقة العملية التي نتوصل بها الى هذا الهدف المثالي يجيبوننا بأن الناس جهلة وأن خير طريقة لإصلاحهم هي أمطارهم بالمواعظ والخطب التوجيهية . فالناس في رأي هؤلاء لابد أن يتأثروا بكثرة مواعظنا وخطبنا عليهم اذ هم سيدركون بها سوء الحالة التي هم فيها ثم يأخذون بسلوك طريق الهدى والصلاح حسبما نرشدهم اليه .

لا حاجة بنا الى القول ان هذا تفكير عقيم ذهب زمانه ، فهو مستمد من الفلسفة الاغريقية القديمة التي تؤمن بالمبدأ القائل : الجهل رذيلة والمعرفة فضيلة . وقد تبين الان علمياً خطأ هذا المبدأ فالانسان مهما حشوت ذهنه بصرخات المواعظ وأماديح الفضائل فهو يظل في سلوكه الواقعي خاضعاً للقيم الاجتماعية التي نشأ عليها في محيطه المحلي . انه قد يتأثر بصرخات المواعظ في حدود الاقوال التي يتحذلق بها أحياناً ، وتراه حين ذاك تقياً نقياً يدعو الى مكارم الاخلاق كما جاءت بها الاديان ، أما في سلوكه الواقعي فهو ينسى تلك الاقوال ويصبح كأنه شخص اخر . وهذا هو ما أسميناه ازدواج الشخصية الذي سنأتي الى شرحه في فرصة أخرى .

كانت الحرب العالمية الاولى حدثا في غاية الاهمية من الناحية الاجتماعية بالنسبة للعراق بوجه عام ولبغداد بوجه خاص .

كان العراق قبل الحرب تحت وطأة الحكومة العثمانية ، وكانت تلك الحكومة ضعيفة ومتفسخة جداً . كما ذكرناه من قبل . ولذا انتشرت العصبية المحلية والقبلية بين الناس حينذاك كما انتشرت معها قيم النخوة والشهامة والثار وغسل العار والدخالة والضيافة وحقوق القرابة والجيرة والزاد والملح والفضل وما أشبه .

فقد كان الناس في تلك الايام لا يعيرون أي اهتمام لسلطة القانون والنظام العام ، بل كانوا يتحدونهما ويعصون أوامرهما . وكان معظم اهتمامهم منصباً نحو مراعاة تلك القيم

التي كانت ملائمة لظروفهم ومنسجمة مع حياتهم الاجتماعية .

وجاءت الحرب العالمية الاولى أخيراً ، وكان من أهم معالمها أن الحضارة الحديثة جاءت معها بزخم شديد . وبذا بدأ الصراع بين القيم القديمة وقيم الحضارة الجديدة . في المجتمع العراقي بوجه عام . وفي المجتمع البغدادي بوجه خاص .

عندما تأسست الحكومة العراقية في أوائل العشرينات من هذا القرن كانت من أكبر المشاكل التي واجهتها هي مشكلة الصراع بين القيم القديمة والجديدة . وان أول ما أهتمت به تلك الحكومة هو القضاء على المعارك المحلية في المدن . والمعارك العشائرية في الريف . ومن الممكن القول أن الحكومة نجحت في ذلك الى درجة غير قليلة حيث اختفت المعارك المحلية في المدن . ولاسيما في بغداد . أما المعارك العشائرية في الارياف فقد اخذت تسير في طريق التضاؤل والتناقص تدريجاً .

بين الرشوة والوساطة

مما يلفت النظر عقب تأسيس الحكومة العراقية ان ظاهرة الرشوة التي كانت واسعة الانتشار في دوائر الحكومة في العهد العثماني اخذت تتناقص في العهد الوطني . بينما اتسعت في الوقت نفسه ظاهرة الوساطة . وهذا أمر له أسبابه الاجتماعية .

كان الموظف في العهد العثماني لا يحصل على مرتبه الشهري بانتظام ، كما ان مرتبه لم يكن كافياً يساعده على أن يعيش عيشة محترمة تناسب مقامه الاجتماعي كموظف في الدولة . ولهذا كان الموظف مضطراً الى أخذ الرشوة في كل عمل يقوم به .

أما في العهد الوطني فقد تغير الحال تغيراً واضحاً ، حيث أصبحت المرتبات تدفع بانتظام . كما انها كانت أرفع من مستوى المعيشة السائدة بين سواد الناس . اضف الى ذلك ان الرأي العام صار له تأثيره في دوائر الحكومة . وبدأت الصحافة تلعب دورها في الكشف عن ظواهر التفسخ في تلك الدوائر . وهذا أمر لم يكن مألوفاً في العهد الماضي الا ضمن حدود ضيقة .

الواقع ان الرشوة لم تختف اختفاء تاماً في العهد الوطني ولكنها قلت بشكل ظاهر . وهنا يجب أن نذكر أن الوساطة حلت محل الرشوة من بعض النواحي . ففي العهد العثماني كان المواطن الذي لديه حاجة في احدى الدوائر يبحث عن رجل يتوسط له في رشوة الموظف المسؤول فيها . أما في العهد الوطني فكان أكبر هم لصاحب الحاجة هو أن يبحث عن وسيط له نفوذ أو صداقة مع الموظف المسؤول . فهو يسأل عنه من الناس هنا وهناك لكي يتعرف عليه ولكي يتوصل الى التأثير فيه بطريقة من الطرق .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن ظاهرة الوساطة لها صلة وثيقة بالقيم المحلية القديمة أي قيم النخوة والشهامة وحقوق القرابة والجيرة والزاد والملح والصداقة والفضل وما أشبه .

فالشخص الذي لديه حاجة في احدى الدوائر يبحث عن وسيط له علاقة به عن طريق تلك القيم أما الذي لا يجد وسيطا له من هذا النوع فان من الصعب عليه تمشية معاملته في دوائر الحكومة . وهو قد يعاني فيها ما يعاني .

ان هذا وضع عشناه وشهدناه عياناً . وما زلت أتذكر عام ١٩٣٧ عندما تخرجت من المدرسة الثانوية وحاولت الحصول على وظيفة معلم في مدرسة ابتدائية في بلدتي أو قريباً منها التي كانت تسمى وزارة المعارف انذاك . وكنت أرى الوسطاء من ذوي النفوذ يأتون الى الوزارة ويخرجون منها وقد استجيبت طلباتهم . اما أنا وأمثالي فكانت طلباتنا رهن القدر والمصادفات وقد عينت أخيراً في بلدة بعيدة هي الشطرة ، وبقيت فيها سنة دراسية واحدة . ولم انتقل عنها الا بوساطة رجل توسلت اليه بحق من الحقوق التي تتصل بالقيم القديمة .

بين ضغطين

كان الموظف في العهد الوطني يواجه موقفاً حرجاً في كثير من الاحيان . فهو يقف عند معاملة المراجعين له تجاه ضغطين متضادين . فهو من جهة يجب أن يعامل المراجعين على مستوى واحد لا تمييز فيه حسبما يقضي به مبدأ العدالة والمساواة التي تتظاهر به الدولة ويدعو اليه الرأي العام . غير انه من الجهة الاخرى يجب أن يداري في المعاملة أهل محلته وأقرباءه وأصحابه والذين لهم فضل سابق عليه ، حسبما تقضي به القيم المحلية السائدة في مجتمعه .

ان الموظف قد يقف حائرا بين هذين الاتجاهين المتضادين . فاذا هو سار حسب مبدأ العدالة والمساواة أصبح موضع ذم لدى أهل محلته وأقربائه وأصحابه ، واذا سار حسب القيم المحلية أصبح موضع اعتراض ونقد من قبل المراجعين الاخرين .

كنت ذات يوم من عام ١٩٤٣ جالسا في احدى المقاهي المحلية في بغداد القديمة أصغي الى أحاديث الجالسين في المقهى وهم في الغالب من أهل المحلة القريبة منه . فوجدت زمرة منهم يتحدثون بحماس عن موظف كبير من أبناء محلتهم . اذ هم كانوا يمدحونه ويصفونه بانه شهم وسبع و ابن أجاويد لانه يساعد ابناء محلته وأقرباءه وأصدقاءه في تمشية معاملتهم في الدائرة التي يعمل فيها . وهو قد يعطل معاملات الاخرين من أجلهم . ثم اخذوا يقارنون هذا الموظف الشهم بموظف اخر من أبناء محلتهم . فوصفوه بأنه مخنث و بومة لانه يعامل جميع المراجعين بلا تمييز وانه اذا جاءه أحد من أبناء محلته يستنجد به فانه لا يستجيب له ولا

يبالي به .

إن الموقف الحرج الذي يقفه الموظف يزداد شدة بإزدياد مسؤوليته وارتفاع منصبه . فالمسؤول الكبير يحتاج أحياناً الى تعيين موظفين جدد في دائرته ، والمفروض فيه أن يعين الموظفين حسب كفاءاتهم الفردية بغض النظر عن انتماءاتهم المحليــة أو العائلية ، وبغض النظر عن علاقاتهم الشخصية به . ولكن هذا مبدأ من الصعب تطبيقه في ضوء القيم السائدة في المجتمع . فماذا يصنع هذا المسؤول الكبير تجاه هذين الضغطين المتضادين ؟ !

أعرف شخصاً تولى احدى الوزارات في يوم من الايام فملأ وزارته بالموظفين من أبناء بلدته وذوي الدالة عليه . وســمعت الناس يمدحونه ويعتبرون ذلك من الفضائل التي يفتخر بها . ولكن المشلكة في هذا الرجل انه أضر بجهاز الحكم من حيث يظن انه نفعه .

إن جــهاز الحكم في الحضارة الحديثة يمكن تشبيهه بالماكنة المعقدة ذات الاجزاء الدقيقة ، فكل جزء منها يجب أن يكون في مكانه المناسب له . وهي تعجز عن اداء عملها عند طروء أي خلل في أي جزء منها مهما كان صغيراً . ان جهاز الحكم يقوم على أساس وضع الشخص المناسب في المكان المناسب . ولكن هذا الاساس يناقض القيم القديمة التي ورثناها من الماضي . وقد أصبح من الواجب علينا أن ننظر في هذه المشكلة بعين الجد . فالأمم اليوم في سباقٍ مع الزمن ، ولابد لنا من أن نتسابق معها !

ذكرتُ ان القيم الاجتماعية لا تزول بزوال أسبابها . فهي تبقى في الناس وان كانت تضعف في تأثيرها بمرور الايام . وهذا هو ما رأيناه واضحاً في العصبية المحلية والبلدية والعشائرية التي كانت مستفحلة في العراق في العهـد العثماني . اذ كانت المعارك حينذاك متواصلة بين المحلات في المدينة الواحدة ، وبين أهل المدن عندما يجتمعون في مناسبة دينية عامة ، وبين العشائر المتجـاورة في الريف . وقد تضاءلت هذه المعارك بعد زوال الحكم العثماني ثم اختفت نهائياً . ولكن القيم المرتبطة بها ظلت كامنة في اعماق النفوس زمناً طويلاً ، وما زالت بقاياها موجودة في النفوس حتى الان . فما زال الكثيرون من الناس يلهجون بعبارة ابن محلتي و ابن ولايتي و ابن عشيرتي وقد رأينا اثر ذلك في دوائر الحكومة عندما يحاول الموظف مساعدة ابن محلته أو ابن بلدته أو ابن عشيرته ويقدم تمشية معاملته على معاملة غيره .

من الجدير بالذكر في هذا الصدد ان القيم الاجتماعية ليست كلها على درجة واحدة من حيث تضاؤل تأثيرها بعد زوال اسبابها فهناك من القيم ما تبقى على حالها بالرغم من زوال اسبابها . ويمكن أن نأتي بمثل على ذلك في قيم الكـرم والضيافة . فهذه القيم ظلت قوية بعد زوال الظروف التي نشأت فيها في الماضي .

قيم الكرم والضيافة

إن قيم الكرم والضيافة السائدة الان في مجتمعنا كانت قد نشأت في الماضي في مجتمع البداوة وكانت لها وظيفتها في ذلك المجتمع . ومن الممكن القول ان هذه القيم التي تتسم بالتبذير والاسراف عندنا لم تكن كذلك في المجتمع البدوي . بل هي كانت تسد حاجة ضرورية فيه من بعض الوجوه .

المعروف عن البدو انهم ليس لديهم وسائل الطبخ المعروفة في المدن ، كما انهم ليس فيهم قصاب يبيع اللحم لهم بالمفرد . وهم اعتادوا على الاكتفاء في طعامهم على الخبز والتمر واللبن في الغالب ، ولا يأكلون اللحم والطبيخ الا في مناسبات الضيافة ، أي عندما يأتي الى شيخ القبيلة ضيف كبير . فمن مزايا الشيخ في البداوة انه يملك قدوراً ضخمة . وكلما كانت قدوره اضخم كانت مكانته الاجتماعية أرفع وسمعته أوسع . فهو يقدم الطعام المطبوخ الوفير الى الضيف تكريماً له . والضيف طبعاً لا يستطيع ان يتناول من ذلك الطعام الا قليلاً . اما بقية الطعام فيتناوله أفراد القبيلة بعد انتهاء الضيف من تناول طعامه .

يمكن اعتبار الضيافة في البداوة كأنها نوع من التعاون بين الشيخ وأفراد قبيلته . فالطعام الكثير الذي يقدمه الشيخ لضيفه هو في ظاهره تكريم لضيفه بينما هو في الواقع معاونة منه لافراد قبيلته .

معنى هذا أن الضيافة في قبائل البدو ليس فيها تبذير . ويمكن أن نقول مثل هذا عنها في عشائر الريف . أما التبذير الحقيقي فهو الذي يحصل في ضيافة اهل المدن ، فهم قد انتقلت اليهم قيم البداوة في الكرم والضيافة وظلوا متمسكين بها بالرغم من تغير ظروفهم .

اننا حين ننظر الى الولائم الفخمة التي تقام في مجتمعنا نجد انها ليست سوى مظهر من مظاهر التفاخر والتباهي دون أن تكون فيها أية فائدة حقيقية للمجتمع . فمعظم الذين يدعون اليها ، أو كلهم تقريباً ، لديهم الطعام الوفير في بيوتهم وهم ليسوا في حاجة الى الطعام الذي يدعون اليه . أما الذين هم في حاجة ماسة الى الطعام فهم قابعون في بيوتهم مع أطفالهم لا يدعوهم احد الى وليمة الا نادراً .

هناك افراد من الناس يذهبون الى الولائم من غير دعوة . هم الذين يسمون في اللغة الفصحى « الطفيليون » . وهؤلاء لهم وسائلهم في معرفة أماكن الولائم . وتراهم يتساءلون عنها ثم يتهافتون عليها ، واذا علم أحدهم بوجود وليمتين في وقت واحد ذهب الى احداهما حتى اذا خرج منها بعد أن يشبع من الطعام فيها عمد الى التقيؤ في الطريق لكي يستطيع أن يتناول الطعام في الوليمة الثانية .

والواقع ان الفقراء الذين يحافظون على كرامتهم يرفضون ان يسلكوا تجاه الولائم مثل

هذا السلوك الطفيلي . ومنهم من لديه أطفال وعائلة وهو يأبى أن يذهب الى وليمة ليشبع فيها ويترك عائلته وأطفاله جياعاً .

موقف الاسلام

لا حاجة بنا الى القول ان الاسلام لا يرضى عن اقامة مثل تلك الولائم التفاخرية . أو هو ينهي عنها . يكفي ان نذكر في هذه المناسبة قصة عثمان بن حنيف الذي كان والياً على البصرة في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (ع) فقد دعي هذا الوالي الى وليمة فخمة من طراز هذه الولائم التي نشهدها في مجتمعنا ، ولما علم الخليفة بذلك أرسل الى الوالي يلومه على ذهابه لتلك الوليمة في رسالة ننقل فيما يلي الفقرات الاولى منها :

أما بعد يا ابن حنيف : فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة فأسرعت اليها تستطاب لك الالوان ، وتنقل اليك الجفان ! وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه ...

ان الخليفة يصف في رسالته تلك الوليمة البصرية بصفتين ، احداهما انها تنقل اليها القصاع الكبار المملوءة بالاطعمة المستطابة . والثانية انها يدعى اليها الاغنياء ويبعد عنها الفقراء . وحين ننظر الى ولائمنا الفخمة نجدها لا تختلف في هاتين الصفتين عن تلك الوليمة البصرية - مع الاسف الشديد .

ما يلفت النظر في الكثير من ولائمنا انها تقام في المناسبات الدينية ، كمجلس الفاتحة ، والاحتفال بمولد النبي ، أو عزاء الحسين . وهي كما رأينا يقصد بها التباهي والتفاخر حيث يدعى اليها غير المحتاجين ويبعد عنها المحتاجون . وهذا خلاف ما يأمر به الاسلام في حقيقته .

إن من تعاليم الاسلام ان الانسان حين يريد تقديم معونة الى أحد ، من طعام أو غيره ، ينبغي أن يقدمها سراً بمقدار جهده . وكلما كانت المعونة اكثر خفاء عن الناس كان ثوابها عند الله أكبر . أما الذي يقدم المعونة من أجل التفاخر والتباهي . كما هو الحال في هؤلاء الذين يقيمون الولائم الفخمة باسم الدين ، فهو لا ينال الثواب عليها من الله ، لانه في حقيقة أمره لم يطلب بها وجه الله بل طلب كسب تقدير الناس . ومعنى ذلك انه ينال ثوابه من الناس لامن الله . وهذا هو ما أشار اليه الحديث النبوي القائل : انما الاعمال بالنيات ولكل امرء ما نوى .

يروي عن علي بن الحسين الملقب بـ زين العابدين (ع) انه كان يقدم المعونة للفقراء من أهل المدينة سراً . فهم كانوا يتسلمون المعونة منه دون أن يعرفوا من هو الذي أرسلها اليهم . وهم لم يعرفوا ذلك الا بعد موت علي بن الحسين اذ هم وجدوا المعونة قد انقطعت

عنهم فأدركوا انه هو الذي كان يرسلها اليهم .
ان هذا هو الاسلام في حقيقته !

عادة مستهجنة :

في ختام القول أود أن ألفت النظر الى بعض العادات التي ورثناها من البداوة وهي ذات صلة بالكرم والضيافة . فقد اعتدنا على الالحاح على الضيف عند تقديم الطعام اليه ، كما اعتاد الضيف ان يظهر الامتناع مرة بعد مرة وقد تطول المصاولة بينهما بشكل يثير الاستغراب عند الاجانب الذين لم يعتادوا عليها .

ولا يقتصر هذا النوع من المصاولة على مجال تقديم الطعام وحده ، بل هو يشمل كذلك مجالات أخرى عديدة ، كمجال دفع النقود في المقهى أو السينما أو المطعم أو الحافلة أو غيرها . فكل واحد منهم يريد منافسة الاخرين على الدفع . فهذا يقـول : والله ما يصير ، والاخـــر يقـول : أرجـوك بالله عليـك الخ ..

والمشكلة في هؤلاء الناس أنهم اذا سافروا الى بعض البلاد المتقدمة حضارياً فهم ينقلون هذه العادة معهم ، وبذلك يصبحون وضع السخرية أو الاستغراب في نظر الناس هناك .

أضف الى ذلك أنهم حين يهمون بالدخول الى مكان أو الخروج منه يحاول كل واحد منـــهم أن يقدم غيره عليه . وهو يلح في ذلك على نحو ما يفعل عند تقديم الطعام أو دفع النقود .

أعود فأقول الان ما قلته فيما سبق مراراً ، وهو أننا نسير في طريق الحضارة الحديثة وهي محتومة علينا . وقد أصبح من الواجب علينا أن نتدرب على قيمها قبل فوات الاوان .

حول المنطق العقلاني (1)

س : ما رأيك بما يثار حول المنطق العقلاني او العقل بين الماضي والحاضر ؟

ج : ان موضوع العقل والمنطق العقلاني ليس جديداً على القراء فقد تحدثت فيه غير مرة في مناسبات سابقة واني أخشى أن يمل القراء من الحديث فيه مرة أخرى .

أطلق احد القراء علي لقب الدكتور صاقول ، فأنا في رأيه اعيد واصقل في بعض الاراء بلا حدود . والواقع اني يجب أن اعطي الحق لهذا القارىء فيما وصفني به ، ولكني مع ذلك أرجو منه ومن غيره من القراء ان يعذروني في هذا التكرار الذي تتصف به كتاباتي ومحاضراتي ، فهناك سبب يدعونني اليه .

يجب أن لا ننسى ان مجتمعنا مرت به فترة انحطاط حضاري دامت نحو ستة قرون ، وهي الفترة التي سميت الفترة المظلمة فقد سيطرت علينا في تلك الفترة قيم اجتماعية غير حسنة كما سيطرت علينا مفاهيم ومقولات فكرية أضرت بنا كثيراً . وقد أصبح من واجب كتابنا ومؤلفينا ان يتعاونوا في مواجهة تلك القيم والمفاهيم ويحاولوا ايجاد حل لها بمقدار جهدهم .

وفي رأيي ان معالجة تلك القيم والمفاهيم اهم جداً من معالجة بعض المواضيع الهامشية التي يهتم بعض مؤلفينا وكتابنا بها . والملاحظ ان هؤلاء المؤلفين والكتاب ظلوا يعيدون ويصقلون الى تلك المواضيع على مدى عشرات السنين دون أن يقول لهم أحد : لماذا ؟!

من بين المفاهيم الفكرية التي سيطرت على اذهان الناس في الفترة المظلمة هي ثقتهم المطلقة بصحة المنطق العقلاني ، وهو الذي يسمى أحياناً المنطق الارسطي نسبة الى واضع قواعده ارسطو طاليس .

فقد كان هذا المنطق موضع الاهتمام والتدريس في بعض معاهدنا القديمة . وكان المتعلمون يعتبرونه الوسيلة الوحيدة للتوصل الى الحقيقة . ومازال الكثيرون منهم يعتبرونه كذلك .

العوام والمتعلمون :

كان الناس في الفترة المظلمة يمكن تصنيفهم من الناحية الفكرية الى صنفين رئيسين عوام ومتعلمين . وكان لكل من هذين الصنفين طابعه الخاص به : فالعوام كانوا متمسكين بالقيم الاجتماعية السائدة حينذاك أي قيم الشقاوة والغلبة والنخوة والدخالة والثأر وغسل العار وما أشبه . أما المتعلمون فكانوا متمسكين بالمنطق العقلاني . وكانت معظم مجادلاتهم ،

أو كلها تقريباً ، قائمة على أساس ذلك المنطق . ولهذا كانت مجادلاتهم متواصلةِ لا نهاية لها على توالي القرون دون أن يتوصل أي فريق منهم الى اقناع الاخرين بصحة رأيه .

كان المتعلمون في تلك الفترة يتجادلون بالادلة العقلية كمثل ما كان العوام يتنازعون بالايدي أو الهراوات والخناجر . ولكن الفرق بينهم هو أن تنازع العوام ينتهي عادة بتغلب أحدهم عن الاخر . أو بتدخل شخص محايد يفصل بينهم ، أما المتعلمون فان جدلهم ليس له حد يقف عنده . وهو اذا توقف ظاهراً فانه يبقى قوياً في الباطن ، وكل واحد من المتجادلين يعتقد بعد انتهاء الجدل انه كانِ المنتصر فيه ، وهو قد يحمل الحقد على صاحبه باعتبار انه لم يرضخ للحق الواضح الذي كان هو يدعو اليه .

إن كتابنا ومؤلفينا يواجهون مهمة عسيرة في هذه المرحلة التي نعيش فيها . فهم من جهة يجب أن يكافحوا القيم القديمة التي مازالت مسيطرة على عوامنا ، وهم من الجهة الاخـرى يجب أن يكافحوا المنطق العقلاني الذي مازال مسيطراً على عقول الكثير من متعلمينا .

ان المنطق العقلاني الذي ندعو الان الى مكافحته كان قد نشأ على ايدي فلاسفة الاغريق قبل أربعة وعشرين قرناً . وهنا يجب أن نذكر أن هذا المنطق كان له في زمانه دوره العظيم في تحريك الاذهان . ولكن المشكلة فيه هي كالمشكلة في أية حركة فكرية أو اجتماعية جديدة ، اذ هي تكون تقدمية في وقتها ثم تتحول بمرور الزمن الى رجعية .

ان المنطق العقلاني ظهر في زمن كان التفكير اللاعقلاني هو السائد بين الناس في جميع الاقطار . وهو بهذا المعنى يعتبر ثورة بالنسبة الى الزمن الذي ظهر فيه . ولكنه عندما غالى المفكرون فيه بمرور الزمن صار مدعاة للجمود الفكري وعقبة في طريق التطور العلمي .

ان العلم الحديث لم يستطع ان يتطور وينمو الا بعد أن ثار على المنطق العقلاني وأظهر عيوبه . وبعبارة اخرى : ان العلم الحديث هو ثورة على المنطق العقلاني كمثل ما كان المنطق العقلاني في وقته ثورة على المنطق اللاعقلاني .

مـــقارنة :

يمكن تشبيه المنطق العقلاني بنظرية ماركس التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر فالنظرية الماركسية كان لها في حينها دورها الذي لا يستهان به . اذ هي نبهت الاذهان الى العامل الاقتصادي وأثره في حياة الانسان .

لقد كان هذا العامل قبل ظهور الماركسية لا يهتم به أحد . وجاء ماركس يدعو الى الاهتمام به ، ولكنه افرط في ذلك وغالى . اذ هو جعل العامل الاقتصادي الكل في الكل

بالنسبة لحياة الانسان ومسيرة التاريخ .

ثم جاء اتباع ماركس بعدئذ فزادوا عليه في الافراط والغلو ، كما هو شأن الاتباع المتعـصبين دائماً ، حتى وصلوا بالنظرية الماركسية أخيراً الى هذا الوضع العجيب الذي شهدناه .

يحاول انجلز الاعتذار عن نفسه وعن صاحبه ماركس في هذا الغلو والافراط في تقدير العامل الاقتصادي فيقول ما نصه :

ماركس وأنا نحمل جزئياً مسؤولية كون الشباب يعطون الجانب الاقتصادي وزنا أكبر مما يجـب . ففي مواجهتنا لخصومنا كان علينا أن نؤكد على المبدأ الاساسي الذي ينكرونه . وفي هذه الحالة لا نجد دائماً الوقت والموضوع والظرف الذي يتيح لنا اعطاء العوامل الاخرى التي تشترك في الفعل المتبادل مكانها ..

ويعترف انجلز بأن هنالك عوامل أخرى تؤثر في حياة الانسان ومسيرة التاريخ بالاضافة الى العامل الاقتصادي ، كالعامل السياسي والعامل العسكري والعامل الفكري والعامل الديني . ثم يقول انجلز : اذا قام أحد بتشويه هذا الموقف بمعنى انه جعل العامل الاقتصادي العامل المقرر الوحيد فانه بذلك يحوله الى جملة فارغة مجردة حمقاء .

إن هذا الذي تنبأ به انجلز في تحول النظرية المارسكية الى جملة فارغـة مجـردة حمقاء قد تحقق فعلاً لدى الكثيرين من أتباع الماركسية . وقد رأيناهم عيانا . وعانينا منهم ما عانينا . اذ وصل الحال بهم الى درجة انهم اعتبروا سحل الجثث في الشوارع مكسباً شعبياً .

قد يصح ان أقول أن ما رأيناه من أتباع الماركسية رأينا مثله من اتباع المنطق العقلاني . فقد كان البعض من أتباع هذا المنطق يدعون الى القتل والاضطهاد وانتهاك الحرمات تجاه من يخالفهم في الرأي أو المعتقد . فالمخالف لهم انما هو في نظرهم يخالف الحق الواضح الذي لاشك فيه والذي لا يتنازع فيه اثنان . انهم لا يدرون انهم لو كانوا قد نشأوا في مثل البيئة التي نشأ فيها المخالفون . وعاشوا في مثل الظروف التي عاش فيها أولئك ، لصاروا مثلهم في الافكار والمعتقدات .

ان الماركسية لم يطل بها الزمن كثيراً كمثل ما طال بالمنطق العقلاني . فهي قد نشأت في زمن تعقدت فيه الحضارة واشتد الصراع الفكري . ولهذا فهي قد انكشفت عيوبها خلال مدة قصيرة . وهي لو كانت قد نشأت في عصر قديم لربما سيطرت على الاذهان بمقدار ما سيطر عليها المنطق العقلاني .

ان المنطق العقلاني يقوم على اساس المنهج الاستنتاجي إذ هو يستند في استدلالاته على كليات عقلية يعتبرها بديهيات أو حقائق مطلقة ثم يستنتج منها الرأي الذي يريده . وقد تبين

الان علمياً ان الكليات العقلية التي يستند عليها المنطق العقلاني ليست سوى مألوفات اجتماعية نشأ الناس عليها واعتادوا على الثقة بصحتها دون أن يكون لها أساس من العلم الحقيقي . فهي قد تكون اليوم في نظر الناس صحيحا ثم تصبح غير صحيحة غداً . تبعاً لتطور المعرفة ونمو الحضارة .

بين المألوف وغير المألوف :

من عادة الناس انهم اذا سمعوا بأمر مخالف لما ألفوه من قبل أسرعوا الى تكذيبه أو انكاره باعتبار أنه غير معقول . ولكنهم لا يكادون يألفونه ويعتادون عليه حتى يصبح معقولاً في نظرهم أو بديهياً . ولدينا أمثلة واقعية على ذلك لا تحصى .

خذ على سبيل المثال كيف كذب الناس التلغراف عند تأسيس أول محطة له في بغداد في الستينيات من القرن الماضي . فقد اعتبره الناس عند سماعهم بخبرة لأول مرة انه أمر لا يقبل به العقل أبداً . وقال احدهم في التعليق عليه : ان الله أعطانا العقل لكي نميز به الامور ، فهل من المعقول أن تدق على حديدة في بغداد فيسمعها الناس في اسطنبول .

وحدث مثل هذا عند تأسيس أول محطة للاتصال اللاسلكي في المملكة السعودية في العشرينات من القرن الحالي . فقد حرمه بعض رجال الدين هناك باعتبار انه لابد أن يكون من عمل الجن لانه ليس من المعقول أن ينتقل الخبر بين الرياض ومكة في لحظة واحدة مع العلم أن المسافر يقطع المسافة بينهما على ظهور الابل في عشرين يوماً .

وحدثني أحد رجال الدين من الذين أدركوا العهد العثماني في العراق فقال انه قرأ حينذاك في احدى المجلات المصرية بحثاً حول كروية الارض فأرسل الى المجلة مقالاً يفند فيه هذه الفكرة ، أي فكرة كروية الارض ، وكان دليله في ذلك اننا نشاهد الارض مسطحة أمام أبصارنا ، وكيف يمكن لاي انسان عاقل ان ينكر حقيقة بديهية يراها رأي العين . وقد نشرت المجلة مقال هذا الرجل . ويبدو أن المجلة قصدت من نشر المقالة اعطاء القراء نموذجاً لتفكير الناس في ذلك الحين . ولكنه ظن أن نشرها للمقال دليل على اقتناعها بصحة رأيه لانه الرأي الذي قام على الدليل المحسوس الذي لاشك فيه في نظره.

ان هذا الذي فعله الناس تجاه التلغراف أو اللاسلكي أو القول بكروية الارض فعلوا مثله تجاه جميع المخترعات العجيبة التي سمعوا بخبرها لأول مرة كالحاكي والسيارة والطيارة والضوء الكهربائي والمذياع والتلفاز والصاروخ الذي يصعد الى القمر وغيره . وهذا ليس مقصوراً على المجتمعات المتخلفة فقط بل هو يشمل كذلك المجتمعات المتقدمة وان كان فيها على درجة أقل .

يمكن القول بوجه عام أن التمييز بين المعقول وغير المعقول في نظر الناس انما هو تعبير عن التمييز بين المألوف وغير المألوف لديهم . وهم لا يكادون يألفون الامر الذي كان غير معقول في نظرهم حتى يصبح معقولاً .

ان العالم حولنا مليء بالامور التي هي غير معقولة ولكننا نشأنا عليها منذ طفولتنا واعتدنا على رؤيتها فصارت معقولة . يعطينا الغزالي مثلا على ذلك فيقول لو أن انساناً لم ير النار في حياته ثم سمع بخبرها وكيف أن شرارة صغيرة منها قادرة على التهام غابة كبيرة بأكملها لوجد أن هذا الخبر غير معقول وجاء بالادلة لتفنيده .

ويمكن أن نأتي بمثل اخر يشبه مثل الغزالي . فنحن اعتدنا على رؤية بذرة صغيرة تنبت في الارض فينتج عنها شجرة كبيرة وافرة الظلال . فهذا حدث نعتبره أمراً طبيعياً معقولاً لاننا اعتدنا عليه ولكنه في نظر من لم يعرفه لابد ان يكون عجيباً غير معقول .

الخلاصة :

ان الذي نريد أن نستخلصه من هذا الشرح هو أن الكليات العقلية التي يستند عليها العقلانيون في مجادلاتهم واستدلالاتهم هي في الغالب مألوفات اعتاد الناس على الوثوق بصحتها وهي قد تكون في حقيقة أمرها غير صحيحة :

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الكليات العقلية متنوعة وقد تكون في بعض الاحيان متناقضة . ولهذا اعتاد العقلانيون حين يتجادلون ان يبحث كل فريق منهم عن الكليات التي تلائم مقصده ، فهو يبحث عنها في الامثال الشعبية ! أبيات الشعر أو المأثورات الدينية أو الحكم المتداولة أو غيرها . وهذا هو ما يفعله خصمه أيضاً . فكل واحد منهما يحاول تفنيد الكليات التي يستند عليها خصمه ويبرهن على صحة الكليات التي يستند عليها هو . وبذا يستمر الجدال بينهما بلا حدود . وكل منهما يعتقد انه صاحب الحق فيه .

هناك كلمة مأثورة للامام علي بن أبي طالب لها أهميتها في هذا الشأن . فهو قد وصف القرآن بأنه حمال أوجه ، وكان يقصد من ذلك ان كل فرقة من الفرق المتنازعة في زمانه كانت تستند في جدالها على بعض الايات من القرآن بينما هي تغض النظر عن الايات الاخرى ، أو هي كانت تفسر بعض الايات القرآنية بما يلائم مقصدها .

ان هذا الذي حدث في زمان الامام علي استفحل بعده . وصار الجدال بين الفرق المتنازعة يتصاعد ويتفاقم جيلاً بعد جيل حتى وصل الى ذلك الوضع العجيب الذي عرفناه .

ولم يكتف المتجادلون بالاستناد على الايات القرآنية بل هم اضافوا اليها الاحاديث النبوية . وكان كل فريق منهم يأخذ من تلك الاحاديث ما يلائمه ويعتبر الاحاديث الاخرى

مكذوبة أو هو يحاول تفسيرها كما يريد .

اني أملك في مكتبتي مجموعة كبيرة من الكتب الخاصة بتلك المجادلات الطائفية . وأحاول في بعض الاحيان القراءة فيها لكي أتفرج على مهزلة العقل البشري حين يسيطر عليه المنطق العقلاني .

أرجو من القارىء أن لا يعد ذلك خاصاً بالمسلمين وحدهم ، بل هو يشمل البشر جميعاً على مختلف أديانهم وأقوامهم . فمن طبيعة البشر انهم حين يختلفون أو يتنازعون يحاول كل فريق منهم البحث عن الادلة التي تؤيد جانبه وتفنيد الادلة التي تؤيد خصمه . وهذا هو الذي جعل العلم الحديث يعتمد في بحوثه على منهج اخر غير المنهج العقلاني الذي سار عـــليه المفكرون قديماً .

البارا سيكولوجي بين التصديق والتكذيب

س ما الفرق بين المنهج العقلاني والمنهج العلمي ؟

ج : أشرت الى الفرق الكبير بين المنهج العقلاني والمنهج العلمي ، فالكثيرون من متعلمينا لا يعرفون هذا الفرق أو هم لا يعترفون به ، ففي رأيهم أن ما يقول به العقل هو نفسه ما يقول به العلم ، وقد أدى هذا الخلط بهم الى الكثير من الاخطاء .

ان الناس حين يذكرون العقل في أحاديثهم انما يعنون به ما اعتادوا عليه وألفوه من مفاهيم ومعايير وكليات عقلية ، وهم لذلك يكذبون كل امر لا ينسجم مع تلك المفاهيم والكليات ويعتبرونه غير معقول ، وهم لا يكادون يعتادون عليه حتى يعتبروه معقولاً .

ان العلم الحديث لم يتطور هذا التطور العجيب الذي نشهده الا بعد أن أدرك الخطأ في المنهج العقلاني القديم وجاء بمنهج جديد هو المنهج الذي يعتمد على الاستقراء والدراسة الموضوعية بدلاً من الاعتماد على المفاهيم والكليات المألوفة .

مثل واقعي :

خير مثل يمكن أن نأتي به لتوضيح الفرق بين المنهج العقلاني والمنهج العلمي هو الموقف الذي اتخذه العقلانيون تجاه علم الباراسيكولوجي ، أو علم الخارقية كما أحب أن أسميه ، فهذا العلم أصبح الان علماً معترفاً به في جميع أقطار العالم وله مختبراته ومؤسساته وأقسامه الجامعية ، ولكـــن العقلانيون مازالوا ينكرونه ويعتبرونه نوعا من الخرافات التي لا يقبل بها العقل .

ان هؤلاء العـقلانيين انما ينظرون الى هذا العلم بمنظار المفاهيم والمعايير التي اعتادوا عليها ، أما العلميون فهم ينظرون اليه بمنظار الدراسات الموضوعية والتجارب العملية التي أقيم العلم عليها .

ان المفكر العلمي اذا سمع عن شخص له قدرة خارقة مثل اصابة العين أو قراءة الافكار أو التنبؤ أو غيرها لا يسرع الى تكذيبها فوراً بل هو يذهب الى صاحب تلك القدرة فيفحصه فحصاً دقيقاً أو هو يضعه تحت التجربة العلمية ، ثم يخرج منها بالنتيجة التي توصل اليها بغض النظر عما كان يفكر به من قبل .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن أصحاب القدرات الخارقة كانوا ومازالوا موجودين في جميع المجتمعات . ولا يكاد يخلو مجتمع منهم . ولكن المشكلة فيهم أن أكثر الناس في الماضي قد وقفوا تجاههم موقفاً غير علمي ، اضاعت بذلك تلك القدرات أو هي

استغلت استغلالا غير صحيح .
كان العوام في الماضي قد اعتادوا على تفسير القدرات الخارقة تفسيراً غيبياً حيث نسبوها الى الجـن أو الشياطين أو الارواح أو ما أشبه ، وهم بذلك أخرجوها من اطارها الواقعي . أما المتعلمون فقد اعتادوا على عدم التصديق بها أو نسبوها الى الشعوذة والحيلة .
تبين الان علمياً ان القدرات الخارقة هي من المواهب التي يتميز بها بعض الافراد والتي يمكن أن يستفيد منها أصحابها في حياتهم العملية كما يستفيد منها مجتمعهم . وجاء علم الخارقية الجديد لكي يكشف عن تلك المواهب في الافراد ويساعدهم على تنميتها في أنفسهم وعلى استثمارها وبذا قدم هذا العلم للبشر خدمة كبيرة .

كيف بدأ العلم :

كانت البداية الاولى لعلم الخارقية في عام ١٨٨٢ ، فقد اجتمع في ذلك العام نفر من العلماء في بريطانيا وقرروا تأسيس جمعية أطلقوا عليها اسم جمعية المباحـث النفسية ، وأعلنوا ان الغرض من تأسيسها هو البحث عن أصحاب القدرات الخارقة ووضع قدراتهم تحت مشرط العلم . وقد جاء في البيان الذي أصدرته الجمعية قولهم : اننا نسمع كثيراً عن الخوارق التي يقوم بها بعض الافراد ، ويرويها لنا شهود ثقات ، ولكننا اعتدنا على أن نسخر منها ولا نصدق بها . وهذا في رأي الجمعية فضيحة وقد ان الاوان لكي نضع حداً لها ، اذ يجب علينا أن ندرس تلك الخوارق دراسة علمية لكي نعرف ما هي على حقيقتها .
وقد سارت الجمعية على هذا المنهج العملي الذي أعلنت عنه ، صارت تخضع أصحاب القدرات الخارقة ، أو الذين يزعمون انهم يملكونها ، للدراسة العلمية الموثوقة . وتبين من نتيجة دراستها أن البعض منهم مشعوذون فعلاً بينما البعض الاخر منهم صادقون ولديهم قدرات خارقة ذات قيمة علمية لا يستهان بها .
إنّ الجمعية مازالت قائمة ولها مركز يضم نتائج دراساتها التي استمرت اكثر من قرن من الزمان . واني أنصح كل من تتاح له الفرصة للذهاب الى بريطانيا ان يزور ذلك المركز لكي يطلع على ما فيه من سجلات علمية . ومن الطريف أن أذكر أني كنت ذات يوم أتحدث الى شخص اعرفه عن تلك الجمعية ودراساتها وكان هو من العقلانيين الذين ينكرون صحة علم الخارقية من أساسه ، فقال لي مستهزئاً : الى متى تصدقون بهذه الاكاذيب والخرافات . فهذه الجمعية انما هي مؤسسة استعمارية يقصد بها افساد عقولكم من أجل السيطرة عليكم .
ولم أجد في الجواب على قول هذا الشخص سوى السكوت ، مع الاسف الشديد !

المرحلة الثانية :

كان لنجاح تلك الجمعية صداه في مختلف البلاد الغربية ، فاسست لها فروع في الولايات المتحدة وفرنسا وهولندا والدانمارك والنرويج وبولندا وغيرها .

وفي عام ١٩٣٠ بدأت مرحلة ثانية في تطور علم الخارقية ، وهي المرحلة التي قام به الاستاذ راين من جامعة ديوك الامريكية . فقد أسس هذا الاستاذ قسماً في جامعة ديوك لدراسة القدرات الخارقة ، وكان ذلك أول قسم جامعي مخصص لدراسة هذا العلم في العالم . ويذكر لنا راين في أحد كتبه عن السبب الذي دعاه لتأسيس هذا القسم ، فهو يقول عن سيدة يعرفها انها رأت في الحلم اخاها وهو يدخل بيته ثم يخرج مسدسه ويطلقه على نفسه ، وقد رأته في الحلم بوضوح وهو يتدحرج ميتاً لا حراك فيه وقد سقط المسدس من يده . فاستيقظت السيدة من نومها مرعوبة وأصرت على زوجها أن يذهب معها الى بيت أخيها للتحقق من الامر . وحين وصلا الى البيت وجدت السيدة جثة أخيها في نفس المكان الذي حلمت به والمسدس ساقط الى جانبه .

ان راين وجد في هذه الحادثة لغزا علمياً يجب حله ، فهي لا يمكن تفسيرها بعامل المصادفة على نحو ما يفسرها العقلانيون ، لان تفاصيل الحادثة التي حلمت بها السيدة في منامها ثم شاهدتها في الواقع كانت متعددة ومعقدة وهي أكثر مما يمكن تفسيرها بعامل المصادفة وحده ، ولابد أن يكون هناك عامل اخر بالاضافة اليه .

اتخذ راين طريقة في دراسة العلم الجديد تختلف عن طريقة الجمعيات النفسية السابقة . فقد كانت تلك الجمعيات كما رأينا تبحث عن الافراد الذين يملكون القدرات الخارقة من أجل دراستهم . اما راين فقد وضع منهجاً لدراسة الناس بغض النظر عن كونهم يملكون تلك القدرات أو لا يملكونها . ففي رأي راين ان كثيراً من الناس لديهم قدرات خارقة بدرجة ضعيفة . ومنهم من لديهم قدرات قوية غير انهم لا يعرفون عنها شيئاً . وقد وضع راين منها لدراسة عدد كبير من الناس على نطاق واسع ، وخرج من ذلك بنتائج لها أهميتها .

ومهما يكن الحال فان العمل الذي قام به راين قوبل بالكثير من المعارضة والاستنكار في الاوساط العلمية وغيرها . ولكن هذه المعارضة لم تبق على حالها بمرور الايام ، بل هي صارت تقل شيئاً فشيئاً حتى اختفت أخير . وأخذت بعض الجامعات تقتدي بجامعة ديوك إذا أسست أقساماً خاصة بذا العلم الجديد .

البارا سيكولوجي والماركسية

أريد الان أن أتحدث عن هذا العلم وكيف استنكره الماركسيون في بداية الامر ثم قبلوا به أخيراً .

ان استنكار الماركسيين لعلم الخارقية يختلف من حيث أساسه المنطقي عن استنكار العقلانيين له . فالعقلانيون كما رأينا سابقاً انما استنكروا هذا العلم لانه مخالف في زعمهم لما يقضي به منطق العقل . أما الماركسيون فهم استنكروه لانه لا يمكنك تفسيره مادياً .

لا حاجة بنا الى القول ان المادية هي من أهم أركان النظرية الماركسية . فقد آمن ماركس بالمبدأ الذي كان شائعا في القرن التاسع عشر والذي جاء به بوخنر ، وفحواه ان الكون كله ليس فيه سوى المادة والحركة . ومعنى هذا ان أية ظاهرة من ظواهر الكون ، بشرية أو غير بشرية ، لا يجوز تفسيرها بغير المادة والحركة ، وان كل تفسير بغيرهما انما هو تفسير باطل من اساسه ، أو هو تفسير ميتافيزيقي حسب التعبير الماركسي . ومن هنا جاء استنكار الماركسيين لعلم الخارقية الجديد .

مشكلة ماركس وبوخنر ومن ذهب مذهبهم في التفكير المادي انهم عاشوا في القرن التاسع عشر حين لم تكن المكتشفات العلمية الحديثة في المادة معروفة . فقد كانت المادة حينذاك لها مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهومها الحاضر . فهي كانت في نظر العلم حينذاك مؤلفة من ذرات لا يمكن تجزئتها . أما الان فهي أصبحت مؤلفة من ذرات مليئة بالالغاز التي لا يستطيع العقل أن يفهم كنهها .

ان القرن العشرين شهد ثورة علمية كبرى لا تقاس بأية ثورة حدثت قبلها ولا سيما فيما يخص طبيعة المادة .يقول جينز : ان ليس هناك فرق جوهري بين قطعة المادة التي نتناولها بأيدينا وشـــعاع الضوء الذي نلمحه بأبصارنا ، فكل منهما مؤلف من أمواج كهربائية مغناطيسية . ان الفرق الظاهري بين المادة والشعاع سببه أن أمواج المادة معلبة حيث تدور في افلاك صغيرة داخل الذرة بينما أمواج الشعاع منطلقة في الفضاء .

ان العلماء الان يقفون حيارى عاجزين تجاه المادة ، فهم يعرفون ان الذرة المادية مؤلفة من أمواج كهربائية مغناطيسية ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يعرفون كنه الكهرباء والمغناطيس من جهة . كما أنهم من الجهة الاخرى لا يعرفون كنه الوسط الذي يحدث فيه التموج الكهربائي المغناطيسي . يقول احد العلماء في وصف المادة في مفهومها الحاضر ما نصه : انها تتألف من شيء نعجز الان عن تكوين صورة له ولو اننا نستطيع وضع المعادلات الرياضية

لوصف حركته .

خلاصة ما أريد قوله في هذا الصدد ان النظرة المادية التي التزم بها الماركسيون في تفسير الكون ذهب زمانها كمثل ما ذهب زمان المنطق العقلاني . فان هذا العصر الذي نعيش فيه قلب الموازين الفكرية رأساً على عقب . ومن المؤسف أن نرى بعض متعلمينا ما زالوا قابعين في قوقعة تفكيرهم القديم لا يعرفون ما حدث في العلم من ثورة كبرى .

أمثلة واقعية

وفي عام ١٩٥٢ أصدرت كتاباً بعنوان « خوارق اللاشعور » حاولت فيه دراسة القدرات الخارقة في الانسان وأثرها في حياته . وفي عام ١٩٥٩ أصدرت كتاباً اخر بعنوان « الاحلام بين العلم والعقيدة » اولت فيه دراسة جانب اخر من تلك القدرات .

ومن المؤسف ان أقول اني جوبهت على اثر ذلك بشيء غير قليل من التهجم والاتهام من قبل العقلانيين والماركسيين معا . فالعقلانيون اتهموني باني أعمل على ترويج الخرافة بين الناس بينما اتهمني الماركسيون بأني من عملاء الاستعمار ـ والعياذ بالله !

ونشرت احدى المجلات العراقية في نيسان ١٩٦٠ مقالة لاحد الماركسيين ، وكان استاذاً في جامعة بغداد يحمل شهادة الدكتوراة ، تهجم فيها على كاتب هذه السطور وركز نقده بوجه خاص على ما ورد في كتاب الاحلام بين العلم والعقيدة من أن بعض الابحاث العلمية الحديثة تدل على أن نسبة الصدق في تنبؤات الاحلام هي أكثر مما يقضي به قانون الاحتمال القائم على المصادفة المحضة . فكتب الاستاذ في مقالته في نقد ذلك ما نصه : ان موضوع التنبؤ في الأحلام من المواضيع الميتافيزيقية التي لم يتوصل العلم . ولن يتوصل الى نتيجة فيها ... فاذا أنتجت الخرافات أو الأساطير سؤالاً هل تستطيع الاحلام التنبؤ بالمستقبل ؟ فاننا نرفض الاجابة عليه لاننا نعلم أن الاسس التي أنشأ عليها اسطورة خرافية !

ان الذي لفت نظري في مقالة الاستاذ انه يقول بان موضوع التنبؤ في الاحلام من المواضيع الميتافيزيقية التي لم يتوصل العلم الى نتيجة فيها ولن يتوصل . فمن أين جاءه هذا اليقين الذي لاشك فيه بان العلم لن يتوصل في المستقبل الى نتيجة معينة فيه ؟! فنحن نعرف أن كثيراً من الامور التي كانت تعد في القرن الماضي مستحيلة أو غير مقبولة عقليا أصبحت الآن ممكنة ومعقولة . وقد تبين الان كما أشرت اليه سابقا ان الفرق بين المستحيل والممكن ، ان بين المعقول وغير المعقول ، انما هو من الامور النسبية الاعتبارية . فالكون مليء بالالغاز وكلما توصل العلم الى حل لغز واحد منها ظهرت أمامه عدة الغاز جديدة في حاجة الى حل .

مما أتذكره في هذا الصدد ان مناقشة جرت بيني وبين أحد العقلانيين على أثر صدور كتاب « خوارق اللاشعور » وكان رأيه ان القدرات الخارقة التي ذكرتها في الكتاب هي من الامور المستحيلة التي لا يقبلها العقل . وكان جوابي له أني تناولت حجراً صغيراً كان قريباً مني وقلت له : كيف يقبل العقل ان هذا الحجر الصغير يحتوي في ذراته على طاقة نووية كافية لتحريك باخرة كبيرة وتسييرها حول الارض عدة مرات !!! وقلت مراراً ، وأعيد القول هنا ، ان العقل في مفهومه القديم لا يجوز ان نجعله حكماً في تقدير الامور . وهذا هو ما يجب أن نقوله في شأن المادية في مفهومها القديم ايضاً . فالعقلانيون والماركسيون جميعاً اخطأوا في فهم الكون المحيط بنا ، وقد آن الاوان لكي يدركوا خطأهم .

إنقلاب فكري :

اتخذت الحكومة السوفياتية في عهد ستالين موقفاً شديداً ضد علم الخارقية الجديد باعتباره علماً ميتافيزيقياً يفسد العقول . وظل هذا الموقف سائداً هناك حتى اواخر عام ١٩٥٩ . وعند ذلك حدث ما يشبه الانقلاب الفكري تجاه هذا العلم في الاتحاد السوفياتي .

سبب هذا الانقلاب ان الصحف الفرنسية نشرت خبراً مثيراً بعناوين بارزة حول الغواصة الامريكية الذرية ناوتيلوسو ، كان فحوى الخبر أن الحكومة الامريكية استخدمت في الغواصة شخصاً يملك قدرة خارقة في معرفة افكار الاخرين من بعيد ، وصار هذا الشخص يتصل فكريا بشخص اخر واقف على الساحل بعيداً عنه . وتساءلت الصحف الفرنسية قائلة : هل ان القدرات الخارقة سلاح سري جديد ؟ وهل ستلعب هذه القدرات دورا حاسما في الحروب المقبلة ؟ وهل نجح العسكريون الامريكيون في اكتشاف سر قوة الروح ؟ !!

ان هذا الخبر وما أحاطته الصحف الفرنسية من تعليقات وتساؤلات مثيرة اثار الاهتمام البالغ في الحكومة السوفياتية . ومن الجدير بالذكر أن الحكومة الامريكية كذبت الخبر في حينه ، ويبدو ان الحكومة السوفياتية اعتبرت هذا التكذيب نوعاً من التغطية على سر عسكري خطر ، ولعلها خشيت ان تتفوق عليها الحكومة الامريكية في مجال هي غافلة عنه . فقد كانت الحرب الباردة بين الحكومتين على أشدها في ذلك الحين كما هو معروف .

كان في روسيا باحث اسمه فاسيليف يعمل في علم الخارقية سراً . وكان رئيساً لقسم الفسلجة في جامعة لينغراد . والظاهر انه انتهز الفرصة فاعلن عن بحوثه السرية . فاستدعته الحكومة السوفياتية اليها وطلبت اليه التفرغ لهذا العلم وخصصت له مبلغاً كبيراً من المال ..

وفي نيسان من عام ١٩٦٠ ، عندما اقيم في موسكو احتفال كبير بمناسبة ذكرى اختراع المذياع وحضره كبار العملاء في روسيا ، قام فاسيليف ففاجأ الحاضرين بكلمة حول

المخ البشري وقال عنه انه يكون في بعض الافراد كالمذياع اذ هو يتلقى الامواج التي تصدرها أمخاخ الاخرين ويعرف ما فيها ، ثم أعلن فاسيليف قائلا :

لقد قمنا اثناء عهد ستالين بأبحاث متعمقة في موضوع القدرات النفسية الخارقة لم تأخذ طريقها الى النشر قط . واليوم تقوم البحرية الامريكية بتجارب من هذا النوع على متن غواصاتها الذرية . وقد أصبح من الضروري ان نتخلص من أحكامنا المسبقة ان علينا ان ننكب من جديد على استكشاف هذا الميدان ذي الاهمية الحيوية .

ثم أضاف فاسيليف الى ذلك قائلا : ان اكتشاف الطاقة التي تمثلها القدرات النفسية الخارقة سيكون له من الاهمية بقدر ما كان لاكتشاف الطاقة النووية .

العائنية معناها واثارها الإجتماعية

س : المعروف عنك أنك أول من كتب في موضوع الباراسيكولوجي في اللغة العربية من الناحية العملية ، وذلك باصدارك كتاب « خوارق اللاشعور » في عام ١٩٥٢ ، وقد بقيت تتطرق الى هذا الموضوع في كتبك ومقالاتك ومحاضراتك بين كل حين واخر . والسؤال الذي نريد توجيهه اليك هو عن العلاقة بين الباراسيكولوجي وعلم الاجتماع الذي هو موضوع اختصاصك ؟

ج : استطيع أن أقول ان هناك ارتباطاً وثيقاً بين الظواهر الخارقية والظواهر الاجتماعية من بعض النواحي . فالذي يدرس المجتمعات البشرية على مختلف أنواعها ، ولاسيما البدائية والنامية منها ، يجد فيها كثيراً من المعتقدات والاساطير والعادات والحرف الشعبية التي لها صلة بالظواهر الخارقية بشكل مباشر أو غير مباشر ...

خذ على سبيل المثال المعتقدات الشائعة بين الناس حول الجن والحظ واصابة العين ، وبعض الحرف الشعبية كالتنجيم وفتح الفأل والسحر وكتابة الادعية والطلاسم ، وما أشبه . فهذه كلها لم تنشأ من عدم . ولابد لها من أساس واقعي نشأت عنه هي القدرات الخارقة التي ظهرت لدى بعض الافراد . ولكن المشكلة في جماهير الناس ، ولاسيما العوام منهم ، انهم لا يستطيعون ان يفهموا طبيعة تلك القدرات كما هي في حقيقتها ، فهم حين يشهدون الافاعيل العجيبة التي تصدر عنها يحاولون تفسيرها حسب مفاهيمهم الساذجة التي اعتادوا عليها ، فينسبونها الى الجن أو الشياطين أو الارواح أو ما أشبه . وهم لابد أن يبالغوا فيها ويزيدون في مبالغاتهم فيها بمرور الزمن ، وقد يظهر فيهم من يحاول استغلالها في حرفة له أودعوة . وبذا يكون لها أثرها الاجتماعي سلبياً أو ايجابياً .

س : الرجاء ان تعطينا مثلا واقعيا من مجتمعنا على هذا الذي ذكرته .

ج : اقرب مثل يمكن أن أذكره هنا هو ما كان شائعا في مجتمعنا من معتقدات وعادات وأساطير حول اصابة العين ، وهي مازالت موجودة لدى عوامنا حتى الان وان كانت تسير في طريق الاضمحلال والزوال تدريجيا .

اني أتذكر أيام صباي في العشرينيات من هذا القرن عندما كان الخوف من اصابة العين سائدا في الناس ، وفي النساء منهم بوجه خاص . فقد كانوا يربطون بين الحسد واصابة العين ، وكان أشد ما تخشاه المرأة على طفلها هو نظرة الحسد اليه ، ولهذا كانت تحيط طفلها بالتعاويذ والطلاسم ، وهي لا تكاد تسمع من أحد كلمة مديح له ، أو ترى نظرة اعجاب به ، حتى تسرع الى قراءة بعض الادعية حوله من أجل وقايته من اصابة العين .

وقد اعتاد الناس حينذاك انهم اذا بنى احدهم دارا جديدة له وضع فوق بابها حدوة حصان أو نعل . وكان اعتقادهم ان الحسود سوف يشغله النظر الى النعل أو حدوة الحصان فلا يركز نظرة على الدار ، وبذلك تنجو الدار من اصابة عينه حسب زعمهم .

وهنا يجب أن نذكر ان هذه المعتقدات والعادات لها أساس واقعي نشأت عنه ولكن العوام بالغوا فيه وحاكو الاساطير حوله كما هو شأنهم في مثل هذه الامور حتى وصلوا به الى هذه الصورة التي رأيناها .

تبين الان في علم الخارقية ان هناك بعض افراد لهم قدرة خارقة في اصابة العين ، وهي قدرة تظهر بمظاهر مختلفة منها الضار ومنها النافع . ولكن هؤلاء الافراد قليلون جداً ، أو هم نادرون بالنسبة الى مجموع الناس ، وقد لا يظهر الواحد منهم الا من بين عدة ملايين من البشر .

أطلق علماء الخارقية على هذه القدرة في الانكليزية اسم (Psycho - Kinesis) وهو الاسم الذي أميل الى ترجمته في العربية باسم العائنية . وان الذي دعاني الى اتخاذ هذا الاسم هو أن العرب القدامى كانوا يطلقون اسم العائن على الشخص الذي يملك القدرة على اصابة العين . واني انتهز هذه الفرصة لكي أقدم هذا المصطلح الى المجمع العلمي العراقي عسى أن يحظى منه بالقبول . ومن المؤسف ان أقول اني قدمت الى المجمع قبل هذا مصطلحات أخرى فلم أحظ منه بجواب . وكل أملي أن أحصل منه في هـــذه المرة على جواب ـ قل ان شاء الله .

س : تقول ان اصابة العين ، أو العائنية كما تسميها ، تظهر بمظاهر شتى . فالرجاء منك أن تذكر بعض تلك المظاهر بقدر المستطاع .

ج : ان العائنية تظهر بمظاهر عديدة يصعب احصاؤها . اذكر فيما يلي بعض تلك المظاهر ابتداءاً بالابسط منها .

(١) ان أبسط تلك المظاهر يتمثل في القدرة على تحريك الاشياء الصغيرة بمجرد تركيز النظر عليها . وهذا هو ما اشتهرت به امرأة روسيـة اسمهـا نيليا ميخائيلوفا : ففي ربيع عام ١٩٦٨ اذاعت وكالات الانباء اخبارا مثيرة عن هذه المرأة ووصفتها بأن لها القدرة على تحريك عيدان الثقاب أو كؤوس الخمر من دون أن تمسها ، وانها عندما تحتاج الى شيء يكفيها أن تركز نظرها عليه ليبدأ هو بالانزلاق نحوها . وقد أثارت هذه المرأة ضجة كبيرة في روسيا وفي العالم ، وانقسم المفكرون الماركسيون تجاهها الى فريقين متصارعين . فالمتعصبون للتفسير المادي منهم اعتبروها مشعوذة أو انها تخفي مغناطيساً في جهازها التناسلي . اما المتحررون منهم فقد حاولوا دراستها موضوعيا بغض النظر عن كون افعالها يمكن تفسيرها على أساس

مادي أم لا ، وكان رأيهم ان العلم في تطور مستمر وان ما لا يمكن تفسيره اليوم قد يصبح من الممكن تفسيره غدا .

وجاء احد علماء روسيا ، واسمه الدكتور سيرغييف . بنظرية حاول بها تفسير افعال نيليا تفسيراً مادياً . وكان فحوى نظريته ان القدرة العائنية بشتى أنواعها هي نتاج الامواج الكهرطيسية ـ اي الامواج الكهربائية المغناطيسية ـ التي تصدر من مخ صاحب القدرة ، وكلما كانت تلك الامواج أقوى كانت قدراته العائنية في تحريك الاشياء أشد . وقد فحص الدكتور سرغييف الامواج الصادرة من مخ نيلينا فوجد قوتها تعادل أضعاف قوة الامواج الصادرة من مخ شخص عادي .

(٢) وهناك مظهر اخر من العائنية يعد أكثر تعقيدا من المظهر الاول الذي ذكرته انفا ، وهو الذي يتمثل في كسر الزجاج أو الادوات المصنوعة من المعادن الصلبة .

حدثني شخص اثق به انه شهد بعينه في لبنان رجلا يركز نظره على كأس من الزجاج موضوع على منضدة امامه فينكسر الكأس من تلقاء نفسه . وحدثني شخص اخر عن رجل في الفرات الاوسط انه كان ينظر الى شراع السفينة النهرية فيمزقه عن بعد .

وفي عام ١٩٧٢ عرض التلفاز في لندن رجلا اسمه يوري ميللر وهو يستطلع في المسامير والمفاتيح والملاعق بمجرد تركيز نظره عليها . وقد الفت جمعية المباحث النفسية في بريطانيا لجنة لدراسته ، وكانت نتيجة دراستها له ايجابية .

(٣) وهناك من أصحاب القدرة العائنية من يستطيع أن يقتل أي حيوان بمجرد تركيز النظر عليه . وقد اشتهرت بهذه القدرة فتاة صينية اسمها زهين كسيانغ لينغ ، فهي كانت قادرة على كسر أبرة أو قتل حيوان بنظرة واحدة . وقد اذاعت اخبارها وكالات الانباء في عام ١٩٨٩ .

ويروي المؤلف المصري المعروف محمد فريد وجدي قصة لها اهميتها في هذا الصدد ، وقد رواها له صديق حضرمي كان يسكن سنغافورة . فقد سمع هذا الحضرمي عن رجل في الهند له قدرة عائنية على قتل الحيوان ، فقصده الحضرمي ليشهد بعينيه افاعيل تلك القدرة . وحين التقى به وحدثه بمقصده صادف أن مرت بهما امرأة قروية وهي تسوق بقرة أمامها . فقال العائن الهندي له : اذا تعهدت بدفع ثمن البقرة الى المرأة فاني سوف اقتلها بالنظر وقد وافق الحضرمي على دفع الثمن . فأخذ العائن يركز نظره على البقرة ، فسقطت هي على الارض ميتة . وصارت المرأة تصرخ وتولول لموت بقرتها . فأسرع الحضرمي اليها واسترضاها بعد أن دفع ثمن البقرة اليها .

الواقع ان هناك مظاهر اخرى للقدرة العائنية لا يسع المجال من ذكرها ، ومنها ما لا

يستطيع كثير من الناس التصديق بها ، وهي مازالت موضع تحقيق ودراسة لدى العلماء .

وهنا لابد لي من أن أشير الى قصة العائن الهندي التي رواها محمد فريد وجدي . فالذي يبدو من هذه القصة ان هذا العائن كان طيب القلب صالحا ولهذا فهو لم يقدم على قتل البقرة الا بعد أن تأكد من دفع ثمنها لصاحبتها . والسؤال الذي يخالج الذهن في هذه المناسبة هو كيف يكون الحال لو أن العائن كان لئيما صاديا يحب ايقاع الاذى بالناس ؟

من الجدير بالذكر ان الناس بوجه عام يمكن تصنيفهم الى صنفين رئيسيين ، فمنهم من يتلذذ بايقاع الاذى بالناس ، ومنهم من هو على النقيض من ذلك اذ هو يحب نفع الناس ولا يحب ايذاءهم . وتلك نزعة طبيعية في كل منهما لابد له فيها ولا اختيار ، بل هو مدفوع بها بدافع قهري يصعب التخلص منه .

نستنتج من هذا ان العائن اذا كان من الصنف الاول ، أي من الذين يحبون ايقاع الاذى بغيرهم ، وكان بالاضافة الى ذلك شديد الحسد ، فان الضرر عنه لابد أن يكون بالغ الخطورة . ولكن الذي يخفف من هذا الضرر ان الحساد العائنين نادرون بين الناس ، وقد لا يظهر الواحد منهم الا من بين عدة ملايين أو مئات الملايين . وهو اذا عرفه الناس حاولوا تجنبه والهروب من نظراته المهلكة ـ والله هو المستعان على كل حال !

الحظ وهل له اساس علمي

س : أشرتَ في حديثك الى الحظ وقلت عنه انه مثل اصابة العين له أساس علمي ولكن العوام لم يفهموه على حقيقته وقد أحاطوه بالمعتقدات الغيبية والخرافات . فالرجاء أن تعطينا صورة عنه حسبما جاءت به الابحاث العلمية الحديثة .

ج : أخطأ العوام في فهم الحظ كمثل ما أخطأوا في أمور كثيرة . فهم حين يرون شخصاً ناجحاً في مهنة له أو مجال في الحياة ولم يعرفوا السبب في نجاحه عزوا ذلك الى قوة خفية سموها الحظ . والواقع ان الاعتقاد بالحظ لا ينحصر وجوده في مجتمعنا بل هو موجود في جميع المجتمعات قليلا أو كثيرا . وقد لاحظ الباحثون الانثربولوجيون انه شائع في جميع الشعوب البدائية لا يخلو أي شعب منها .

من الجدير بالذكر في هذا الصدد ان النجاح في الحياة له عوامل متعددة أهمها وجود الموهبة المناسبة للمهنة أو المجال الذي يعمل فيه الانسان . وقد اتضح الان ان المواهب انواع شتى ، وان كل مجال في الحياة يحتاج الى موهبة مناسبة له لكي يحصل النجاح فيه . ولكن الناس كانوا قديماً ، ولا يزال الكثيرون منهم حتى الان ، لا يعرفون ذلك ، أو هم كانوا يعرفونه معرفة غامضة غير دقيقة . ومن هنا جاء إنتشار الإعتقاد بالحظ بينهم .

من الاخطاء التي كانت شائعة بين المعلمين قديماً ، ومازالت شائعة ، اعتقادهم بأن الجد والمثابرة هما العامل الوحيد في النجاح . واني أتذكر أيام صباي عندما كان المعلمون يلقنوننا بالمبدأ القائل : كل من جد وجد ، وكل من سار على الدرب وصل. ومازلت أحفظ بيت الشعر الذي كان المعلمون يرددونه علينا دائمـــاً وهو :

الجد في الجد والحرمان في الكسل

فانصب تصب عن قريب غاية الامل

اننا لا يجوزان أن ننكر أهمية الجد في نجاح الانسان ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى ان الجد وحده لا يكفي للنجاح . فهو عامل من جملة عوامل ، والذي يطلب النجاح في مجال وهو ليست لديه موهبة مناسبة سوف يتعب ويكدح دون جدوى وربما أصيب بالعقدة النفسية أو الجنون من جراء ذلك .

خلاصة ما أريد قوله هي أن الناس حين كانوا يرون شخصاً ناجحاً في حياته من جراء موهبة فيه لا يعروفونها كانوا يعزون نجاحه الى الحظ . وبعبارة اخرى : ان الحظ في كثير من الاحيان ليس سوى تعبير عامي عن الموهبة .

س : تقول إنّ المواهب أنواع شتى . فما هي تلك الانواع وكيف تؤدي بالانسان الى النجاح ؟

ج : ان العلم مازال يعمل على اكتشاف المواهب في الانسان وفي وضع المقاييس لها . ومن الممكن القول في حدود ما نعرفه عنها ان هناك مواهب لها صلة بالذكاء . ومواهب لها صلة بالقدرات الخارقة ، ومواهب أخرى غيرها متنوعة .

المتوقع لمستقبل الحضارة أن سيأتي يوم عليها لا يترك فيه الخيار للاباء لكي يقرروا لابنائهم المهن التي يشتهونها لهم ، كما هو الحال في الوقت الحاضر . فالطفل في المستقبل يوضع تحت الفحص العلمي لمعرفة الموهبة التي يملكها ثم يوجه الى المهنة التي تلائم تلك الموهبة ، وبذا ينتفع هو وينتفع مجتمعه .

مشكلة الناس في الماضي انهم ، كما أشرت اليه انفاً ، لم يكونوا يعرفون عن المواهب شيئاً ، أو هـم كانوا يعرفونها معرفة غامضة غير دقيقة . وبذا ضاعت المواهب على الناس ، فخسروا هم كما خسر مجتمهم .

خذ على سبيل المثال القدرات الخاصة بالذكاء ، فقد كان الناس يفهمونها فهماً غير صحيح في الغالب . انهم كانوا في الجيل الماضي كما أدركتهم يتصورون ان الانسان قادر ان يكون ذكيا بارادته ، وقد يطلبون منه أن يشغل مخه أو يقولون له موبخين : لماذا لا تكون ذكياً مثل فلان ؟ ! ظناً منهم ان الانسان في مقدوره ان يشغل مخه كما يشاء .

أضف الى ذلك ان الغبي من الناس لا يدري انه غبي ، وهو قد يتصور نفسه أذكى من غيره ، ويحاول أن يعمل في المجال الذي يحتاج الى ذكاء كالمجال المدرسي والعلمي . فاذا أخفق فيه ، وهو لابد أن يخفق فيه ، فانه لا يعزو اخفاقه الى نقص في ذكائه بل هو يعزوه الى سوء حظه ، أو هو قد يختلق له سببا اخر كسوء اخلاق الناس أو سوء النظام السياسي أو ما أشبه .

تبين الان ان الذكاء لا يد للانسان في صنعه بل هو وراثي في الغالب . انه من الممكن تنميته اكتسابيا ضمن حدود معينة ، ولكنه لا يمكن خلقه من عدم دون أن يكون له اساس وراثي .

وقد اكتشف احد العلماء مؤخرا ان الذكاء ليس صنفا واحدا كما كان يظن سابقا بل هو عدة أصناف ، كالذكاء الحسابي والذكاء اللغوي والذكاء الدهائي والذكاء التصوري وغيره . فالانسان قد يكون موهوبا بأحد أنواع الذكاء بينما هو غبي في نوع اخر منه . وهذا هو ما لوحظ في العالم الرياضي المشهور اينشتاين ، فقد كان هذا الرجل عبقريا في ذكائه الحسابي بينما هو كان غبيا في مقدرته اللغوية لا يحسن الكلام .

ان اينشتاين نجح في حياته ذلك النجاح العظيم لانه عاش في حضارة مكنته من استثمار موهبته الحسابية ولو انه كان قد عاش في حضارة تقدر الموهبة اللغوية ولا تهتم بالموهبة الحسابية لكان مصيره الاخفاق في حياته طبعا ، لو ظل يندب حظه حتى اخر يوم من عمره.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن المواهب التي لها صلة بالقدرات الخارقة . فالكثيرون من الناس يملكون شيئاً من تلك المواهب قليلا أو كثيرا ، غير انهم يجهلون وجودها فيهم ، أو أن الظروف التي يعيشون فيها لم تساعدهم على استثمارها ، أو أن المهنة التي يعملون فيها لا تناسب الموهبة التي يملكونها ، وبذلك أضاعت عليهم تلك المواهب .

أعرف شخصاً أمتهن التجارة ونجح فيها نجاحا غير قليل ، وكان من أهم اسباب نجاح انه يملك قدرة التخاطر أي قراءة أفكار الغير . وقد حدثني عن نفسه فقال انه يستطيع أن يحدس شخصية أي زبون جديد يدخل عليه في محله ، هل هو أمين أو مخادع ، وهل هو عازم على القيام بصفقته التجارية أو متردد فيها . وقد ذكر لي أن حدسه صدق معه بحدود تسعين بالمئة .

يجب أن لا ننسى أن التجار ليسوا كلهم من هذا الطراز . فالبعض منهم قد يكون لديهم الموهبة الملائمة ولكنهم يجهلون وجودها فيهم ، وهم لذلك لا يستجيبون لالهامها اللاشعوري بل هم يسيرون في أعمالهم التجارية في ضوء ما يوحي به عقلهم الواعي ، وينتهي امــرهم الى الفشل في كثير من الاحيان . من هنا جاء المثل الشائع في أسواق بغداد وهو : الذي يدخل السوق يجب أن يضع عقله على الرف .

يمكن أن نقول عن العقل الواعي مثلما قلناه عن الجد . فكل منهما له أهميته في الحياة ، ولكننا يجب أن نعرف المجال الذي يناسبه ، و بغير ذلك قد يكون الضرر منه أكثر من النفع .

ان المواهب في الغالب لاشعورية ، والذي يطلب النجاح يجب أن يعرف متى يتسجيب لالهام موهبته اللاشعوري ، ومتى يصغي الى عقله الواعي .

حول موهبة الإيحاء

س : ماذا يقصد بالايحاء باعتباره موهبة خارقية ، وما هي أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين التخاطر ؟

ج : ان التخاطر كما قلت يتمثل في قدرة الانسان على قراءة أفكار الغير ، أما الايحاء فيتمثل في قدرة الانسان على التأثير في فكر الغير . ومعنى هذا انهما من طبيعة واحدة غير ان أحدهما سلبي والاخر ايجابي . وبعبارة أخرى : ان قدرة التخاطر تسشبه المذياع الذي يلتقط الامواج اللاسلكية بينما قدرة الايحاء تشبه محطة الاذاعة التي تبث الامواج اللاسلكية .

ان الابحاث الحديثة دلت على أن المخ البشري تنبعث منه أمواج كهرطيسية ، اي كهربائية مغناطيسية ، تشبه الامواج اللاسلكية التي تصدر من محطات الاذاعة . فهناك أفراد لديهم قدرة تشبه قدرة المذياع ، وهناك اخرون لديهم قدرة تشبه قدرة محطة الاذاعة . واذا اتيح لواحد من هذين الفريقين ان يتخذ مهنة تناسب قدرته ، وان يتمكن من استثمار قدرته فيها ، كان ذلك من أهم عوامل النجاح له في الحياة .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان القدرات البشرية هي كغيرها من مختلف صفات البشر لا يمكن أن تكون على درجة واحدة فيهم جيمعاً . فهي تكون قوية جدا في عدد قليل منهم ، كما تكون ضعيفة جدا في عد قليل اخر منهم . اما أكثر الناس فهم يكونون في الوسط بينهما على درجات متفاوتة .

يمكن تشبيه ذلك بصفة الطول والقصر في الناس فالطويل جدا منهم قليل أو نادر ، وكذلك القصير جدا منهم . اما أكثر الناس فهم عند وضعهم في صف واحد تأخد رؤوسهم شكل خط مائل يتحدر من رأس الطويل جدا الى رأس القصير جدا .

يمكن القول بوجه عام اننا كلنا نملك شيئاً من القدرات الخارقية قليلا أو كثيرا . ولكن المشكلة في أكثر الذين يملكون درجة عالية منها انهم لا يحسون بها ، أو ان الظروف لم تساعدهم على استثمارها ، أو انهم يبعثرون الهاماتها اللاشعورية بتفكيرهم العقلاني .

س : الرجاء ان تعطينا نموذجاً واقعياً لشخص كان يملك درجة عالية من قدرة الايحاء ثم ساعدته الظروف على استثمار تلك القدرة ونال بها نحاجا كبيرا .

ج : أوضح نمودج يمكن أن نأتي به في هذا الشأن هو راسبوتين ، وهو الرجل الذي نال مكانة عالية جدا لدى قيصر روسيا قبيل الحرب العالمية الاولى وفي اثنائها . وأصبحت له شهرة عالمية كبرى .

ولد راسبوتين في عام ١٨٦٨ في قرية تقع الى الشرق من جبال أورال في روسيا ، وعمل في شبابه حوذيا ، أي عربنجياً حسب اصطلاح أهل بغداد . وقد اتصف بالتهتك والفجور والعربدة وسوء الخلق بالاضافة الى أنه كان ضخم الجثة أشعث الشعر رث الثياب قذر . ولكنه كان من الجهة الاخرى موهوبا بقدرته على الايحاء بدرجة قوية جدا ، وقد ساعدته هذه القدرة على شفاء بعض المرضى ولاسيما أولئك الذين يشكون من مرض له أساس نفسي . وقد ترك راسبوتين مهنة الحوذية اخيرا واتخذ مهنة الرهبنة وصار يعالج المرضى ونال بذلك شهرة واسعة .

كان يحكم روسيا في تلك الايام القيصر نقولا الثاني ، وكان للقيصر ولد وحيد جاء بعد بنات غير أن هذا الولد أصيب في طفولته بمرض نزف الدم وعجز الاطباء عن علاجه . وسمع القيصر بشهرة راسبوتين في شفاء المرضى فاستدعاه لعلاج ولده ونجح راسبوتين فيما استدعي له ، وبذا أصبح من أقرب الناس الى القيصر وأرفعهم مكانة لديه .

مشكلة راسبوتين كمشكلة الكثيرين من البشر الذين لا يستطيعون تغيير عاداتهم بعد تغير الدنيا بهم فقد ظل راسبوتين في طوره الاخير كما كان في طوره الاول اشعث الشعر رث الثياب يميل الى التهتك والعربدة ، وقد استخدم قدرته الايحائية في انتهاك حرمات النساء المحيطات به وكان بعضهن من نساء الطبقة العالية القريبة من القيصر ويقال ان زوجة القيصر نفسها لم تسلم من نضراته المؤثرة .

قال أحد الباحثين في وصف راسبوتين انه كان يملك عينين مغناطيسيتين تخضعان ارادة أي امرأة تقع تحت نظرهما . فقد كانت المرأة لا تكاد تقضي دقيقة واحدة في حظرة راسبوتين حتى تقع في فراشه ...

وفي عام ١٩١٦ نفذ صبر الطبقة العالية من أفاعيل راسبوتين واستهتاره فتأمروا على قتله ثم قتلوه أخيرا بعد الجهد الجهيد .

الواقع أن سيرة راسبوتين تعطينا دروسا لها أهميتها في فهم الشخصية البشرية وكيف تنجح أو تفشل في الحياة . ان راسبوتين كانت لديه كما قلنا موهبة خارقية كبرى وقد ساعدته الظروف والمصادفات على استثمارها ونيل النجاح بها ، ولكن العادات السيئة التي أعتاد عليها في بداية أمره لم تسمح له بالسير في طريق النجاح الى منتهاه .

معنى هذا ان الموهبة لا تكفي وحدها لنيل النجاح ، ولابد أن تصحبها الحكمة وبعد النظر بالاضافة الى عوامل النجاح الاخرى كالدأب والمثابرة وحسن الخلق وغيرها .

س : انك تقول ان القدرة الايحائية التي كان راسبوتين يملكها ساعدته على شفاء بعض المرضى ، فما العلاقة بين الايحاء وشفاء المرض ؟

ج : دلت الابحاث العلمية الحديثة على أن الامراض بشتى أنواعها يدخل في تكوينها العامل النفسي والعامل البدني معا ، غير ان الامراض تتفاوت في نسبة كل من هذين العاملين فيها . فمن الامراض ما يكون العامل البدني فيها أقوى من العامل النفسي ، ومنها ما هي على النقيض من ذلك ، وعلى درجات مختلفة .

معنى هذا ان العامل النفسي له دخل في كل مرض قليلا أو كثيرا ومن هنا يأتي تأثير الايحاء في شفاء الامراض . فالشخص الذي يملك قدرة ايحائية قوية من طراز راسبوتين قادر أن يسلط فكرة الشفاء على ذهن المريض حيث يجعله معتقدا كل الاعتقاد سوف يشفى من مرضه وهذا الاعتقاد يكون له أثر في الشفاء قليلا أو كثيرا . وكلما كانت قوة الايحاء أكبر كان تأثيره في الشفاء أشد .

موهبة الفراسة بين القديم والحديث

س : ما الفراسة ، وما رأي العلم فيها ؟

ج : هناك فرق كبير بين مفهوم الفراسة قديما ومفهوم الفراسة حديثا ، فقد صدرت قديما عدة كتب في علم الفراسة ، وكان المحور الذي تدور حوله تلك الكتب هو أن صفات الانسان الظاهرة تدل على اخلاقه الباطنة ، وقد اتضح الان علميا ان علم الفراسة القديم قائم على اساس باطل وان القواعد التي وردت فيه تؤدي في حالة تطبيقها عمليا الى الكثير من الظلم الاجتماعي .

ان الفراسة في مفهومها الحديث هي موهبة في الانسان قد يصح ان نعدها من نوع قدرة التخاطر التي درسها علم الخارقية والتي أشرت اليها سابقاً. فالانسان الذي يملك هذه الموهبة قادر ان يقرأ افكار الغير لاشعوريا ومن الممكن أن يستفيد من هذه الموهبة في حياته العملية ، اذ هو يفهم الناس الذين يتعامل معهم ويعرف دخائلِ أنفسهم .

ان هذا المفهوم الحديث للفراسة لم يكن يعرفه المفكرون القدماء . فقد كان معظم تفكيرهم يدور حول العقل الواعي اذ هم كانوا يعتبرونه المصدر الاول للنجاح في الحياة ، ولم يكونوا يعيرون اية أهمية للاشعور في الحياة .

من يقرأ الكتب القديمة التي صدرت في علم الفراسة قد يصاب بالدهشة . وربما بالتقزز ، مما ورد فيها من قواعد هي في نظر أصحابها مقاييس صحيحة لمعرفة الناس واخلاقهم بينما هي في الواقع قواعد سخيفة لا صلة لها بالواقع من قريب أو بعيد ، وهي كما قلت انفا تؤدي في حالة تطبيقها عمليا الى الكثير من الظلم الاجتماعي .

كتاب نموذجي

ان الكتاب الذي الفه فخر الدين الرازي في علم الفراسة يعد من أهم الكتب في هذا العلم وأشهرها . ونستطيع ان نعتبره نموذجاً له لما فيه من اراء يعتقد صاحبها أنها تستند على أساس من العقل بينما هي في الواقع بعيدة كل البعد عن العقل كما نعرفه .

يقـول الرازي في مقدمة كتابه ان الصفات الظاهرة في الانسان تدل على اخلاقه الباطنة ، وهذا في رأيه يمكن الاستدلال عليه بالعقل . وهو يأتي كدليل على ذلك بمروضي البهائم الذين يسوسون الخيل والبغال والحمير وغيرها . فهم يستدلون بصفاتها المحسوسة على اخلاقها الحسنة والقبيحة . ويتوصل الرازي من ذلك الى القول انه اذا كان الاستدلال بالصفات الظاهرة صحيح في الحيوانات فهو لابد أن يكون أولى بالصحة في البشر .

وفي ما يلي انقل نصوصا من كتاب الرازي ليتبين القارىء فيها ماهية هذا اللغو الذي سمي علم الفراسة يقول الرازي :

(١) من كان شديد استدارة الوجه فهو جاهل ونفسه حقيرة . وهذا الدليل مأخوذ من القرد .

(٢) من كان صغير الوجه هو ردىء خبيث ملق. وهو مأخوذ من القرود ..

(٣) من كان طرف الانف منه دقيقا فهو محب للخصومة طياش خفيف ، وهذه الدلالة مأخوذة من الكلب .

(٤) من كان أنفه يبتدىء من الجبهة متقوساً فهو وقح ، وهذه الدلالة مأخودة من الغراب .

(٥) من كان واسع الفم فهو نهم شجاع لان توسع المجرى ليس الا من الحرارة ولانه يشبه الاسد .

(٦) من كان انفه غليظا متمليا فهو قليل الفهم . وهذه الدلالة مأخوذة من الثيران .

(٧) من كانت عيناه تتحركان بسرعة وحدة وكان حاد النظر فهو مكار محتال لص ، وهذه الدلالة مأخوذة من أن الخائن حال أقدامه على الخيانة تصير عيناه بهذه الصفة .

(٨) من كانت عيناه بارزتين فهو وقح . وهذه الدلالة مأخوذة من الكلاب .

(٩) من عظمت عيناه فهو كسلان ، وهذه الدلالة مأخوذة من مشابهة أعين الثيران . وأيضاً فعظم العين يدل على كثرة المادة الرطبة الدماغية وهو يوجب البلادة .

(١٠) من كانت عيناه جاحظتين فهو جاهل مهذار وهذه الدلالة مأخوذة من مشابهة الحمار .

(١١) من كانت حدقته شديدة السواد فهو جبان وذلك لان اللون الاسود يدل على الجبن ولان السواد يدل على المادة السوداوية الموجبة للجبن .

(١٢) من كان لون عينيه أزرق أو أبيض فهو جبان لان اللون الابيض يدل على استيلاء البلغم .

(١٣) من كان لون عينيه كالشراب الصافي فهو جاهل وهذه الدلالة مأخوذة من الغنم ..

(١٤) من كان لحيم الوجه فهو كسلان جاهل . وهذا الدليل مأخوذ من الثيران ، وأيضاً كثرة اللحم في الوجه تدل على كون العروق الدماغية مملوءة من الاخلاط الغليظة ، وكثرة الاخلاط توجب قلة الارواح الحاملة لقوى الحس والحركة .

(١٥) العين الزرقاء التي يكون في زرقتها صفرة كأنها صبغت بالزعفران فانها تدل

عـــلى رداءة الاخلاق لان الرزقة تدل على البلادة والكسل ، والصفرة تدل على الجبن والخوف ، ولاشك ان عند اجتماعهما تحصل أحوال مشوشة .

(١٦) اذا كانت العين حمراء مثل الجمر فصاحبها غضوب مقدام لان عين الانسان عند الغضب تصير بهذه الصفة .

(١٧) الحاجب الكثير الشعر يكون صاحبه كثير الهم والحزن وذلك لان تكون الشعر انما هو من المادة الدخانية فكثرة شعر الحاجب تدل على كثرة المادة الدخانية التي في الدماغ فتدل على استيلاء طبيعة السوداء على الدماغ وذلك يوجب الغم والحزن .

ان هذا قليل من كثير من القواعد الفراسية التي جاء بها الرزاي في كتابه . والغريب انه لم يكتف بالاستدلال بالعقل على صحة تلك القواعد ، بل قال انها يمكن الاستدلال على صحتها بالكتاب والسنة . ونحن لا ندري مبلغ تأثير هذا الكتاب وأمثاله على الناس في زمانه وقد يصح القول ان البعض منهم لابد أن يكونوا قد صدقوا بما ورد فيه من قواعد واعتمدوا عليها في تعاملهم بعضهم مع بعض .

لنفرض ان سلطاناً من سلاطين ذلك الزمان قرأ كتاب الرزاي وصار يعامل رعاياه حسبما جاء فيه من قواعد فماذا سوف نكون النتيجة يا ترى .

فذلكة اجتماعية :

من أهم ما جاء به الرازي في كتابه هو قوله ان حسن الوجه يدل على حسن الخلق ، فهو يقول في ذلك مانصه : قبيح الوجه لا يكون حسن الخلق الا نادراً لان المزاج الموجب للخلق الظاهر والخلق الباطن واحد . واذا كان ذلك المزاج فاضلا ظهر أثر الكمال في الظاهر والباطن ، وان كان ناقصا فكذلك . ولذلك قال النبي عليه السلام : اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه .

ان هذا القول الذي جاء به الرازي نجد ما يشابهه في أكثر الكتب المؤلفة في علم الفراسة القديم . وهذا يدل على أن علم الفراسة نشأ في أحضان الطبقة المترفة وكان منسجماً مع مناخها الفكري . فالمترفون عادة هم أكثر وسامة من الفقراء والصعاليك من الناس وذلك لسببين :

أولها : ان المترفين يختارون زوجاتهم عادة من ذوات الجمال الممتاز ويتركون الدميمات لغيرهم . وهذا يجري جيلاً بعد جيل فتتحسن بذلك وجوههم لمرور الزمن .

وثانيا : ان الامراض والعاهات أقل انتشاراً بين المترفين مما هي بين غيرهم ، وذلك لانهم أقدر على معالجة أمراضهم كما أن النظافة وجودة التغذية لديهم أفضل مما لدى غيرهم :

أود أن ألفت نظر القارىء الى أن تراثنا الثقافي هو تراث أية أمة في هذه الدنيا فيه الجوانب السلبية كما فيه الجوانب الايجابية وليس من الصحيح ان نتعصب لتراثنا تعصبا اعمى فننسب اليه كل المناقب ونبرئه من المثالب .

ان علم الفراسة هو من جملة الجوانب السلبية في تراثنا واني أريد أن انتهز هذه الفرصة لكي انبه القراء فلعل البعض منهم قد قرأ كتب هذا العلم وصدق بما فيها .

اننا نعيش في عصر يسوده العلم الحديث وقد صار هذا العلم هو مناط النجاح فيه شئنا أم أبينا ، وليس من المجدي لنا أن نكون كالنعامة تخفي رأسها في التراب عند رؤيتها للعدو .

الفهرس

١ – محاولة في فهم ما جرى : مقدمة بقلم سعد البزاز ٥
٢ – حوارات في الطبيعة البشرية للدكتور علي الوردي ٢٧
٣ – العراق أولاً ٢٩
٤ – حول الشخصية ٣٣
٥ – من عالم الظلم الإجتماعي في مجتمعنا ٤٠
٦ – حول القيم العشائرية ٤٣
٧ – حول الظلم الإجتماعي .. مرة اخرى ٤٦
٨ – مأزق المرأة العراقية ٤٩
٩ – دروس من الحياة ٥٩
١٠ – حول حرف التنجيم في المجتمع ٦٥
١١ – حول العقل ٦٧
١٢ – حول الأنوية ٨٢
١٣ – حول الدوافع القهرية ٩٨
١٤ – اللاشعور ١١٣
١٥ – حول الحضارة الحديثة ١٢٣
١٦ – عودة الى العقل ١٢٨
١٧ – حول القيم البغدادية ١٣٧
١٨ – حول المنطق العقلاني (١) ١٥١
١٩ – الباراسيكولوجي بين التصديق والتكذيب ١٥٧
٢٠ – الباراسيكولوجي والماركسية ١٦٠
٢١ – العائنية معناها وآثارها الإجتماعية ١٦٤
٢٢ – الحظ وهل له أساس علمي ١٦٨
٢٣ – حول موهبة الإيحاء ١٧١
٢٤ – موهبة الفراسة بين القديم والحديث ١٧٤
٢٥ – الفهرس ١٧٩